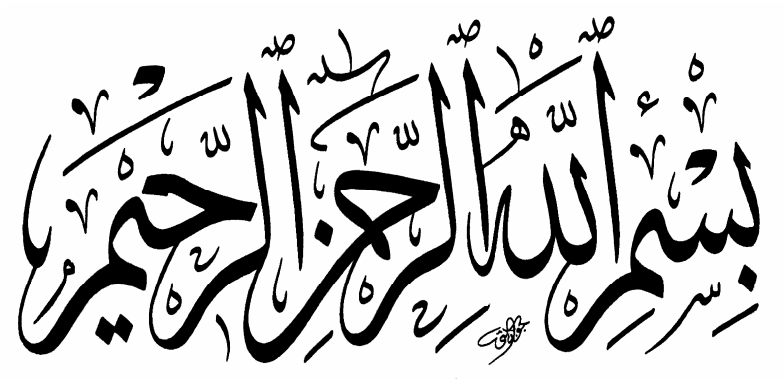
بسم الله الرحمن الرحيم

ج۴

الإمـام الصـادق(عليه السلام)

والمذاهب الأربعة

■ المؤلف: **الأستاذ أسد حيدر**

■ الموضوع: **كلام و تاريخ**

■ المحقق : **مؤسسة «نشر الفقاهة»**

■ عددالأجزاء: ۸

■ الناشر: **مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت(عليهم السلام)**

■ الطبعة: **الأولى**

■ المطبعة: **ليلى**

■ الكميّة: **۳۰۰۰**

■ تاريخ النشر: **۱۴۲۴ هـ**

شابك

المجمع العالمي لأهل البيت(عليهم السلام) قم

الامام الصادق
والمـذاهب الاربعـة

الجزء الرابع

أسد حيــدر

(وَمَن أَحْسَنُ قَوْلاً مِمّن دَعَا إلى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّني مِن المُسْلمينَ* وَلا تَسْتَوي الحَسَنَةُ وَلا السَيّئَةُ ادفَعْ بالّتي هيَ أَحْسَنُ فإذَا الّذي بَيْنَك وَبيْنَه عَدَاوةٌ كَأَنَّهُ وَليٌّ حَمِيم * وَمَا يُلقّاهَا إلاّ الّذينَ صَبرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إلاّ ذُو حَظّ عَظِيم* وَإمَّا يَنزغَنّكَ مِنَ الشَيْطانِ نَزْغٌ فاستَعِذْ باللهِ إنَّهُ هو السَّميعُ العَليم).

فصلت: ٣٣ ـ ٣٦

تقديم وبيان

نوعية البحث

يتضمنّ هذا الجزء، وهو الجزء الرابع من كتابنا الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، لمحة موجزة عن حياة الإمام الصادق، ونبذاً من تعاليمه، وأخلاقه، وآدابه، ثم تاريخ حياة الإمام أحمد بن حنبل. و قد اقتصرت على ذكر نسبه وشيوخه، وأهم حوادث عصره: كمشكلة خلق القرآن وغيرها. وهذه الحادثة هي من أهم الحوادث التي أثارت صراعاً فكرياً، وجدلاً بين المسلمين أعقبه عداء بين الطوائف، ذهب ضحيته خلق كثير. وقد اكتفيت بالإشارة إليها في موجز من البيان في هذا الجزء لكثرة ما كتب فيها وما ذكر عنها، لأنّها كانت العامل الوحيد في شهرة أحمد وطلوع نجمه. وسنبحثها في الجزء السابع في جملة الأسباب والعوامل التي أثّرت في المجتمع الإسلامي .

كما أنّي أشرت إلى أعيان مذهبه وناشريه، وحملة فقهه والمؤلّفين فيه. ولم أهمل ذكر بعض القضايا الهامّة التي تعطينا صورة لها علاقة بموضوع البحث عن الإمام أحمد ومذهبه، كما أهملت الكثير من القضايا التي نقلت عنه من مناقب ومآثر، وأشياء لا تصلح أن تكون تاريخاً نستمدّ منه معلومات خليقة بأن تكشف لنا عن نواحي شخصيته، لأنّنا نحاول أن نتعرّف عليه عن طريق الواقع، ومن ضوء الحوادث التأريخية التي لا صلة لها بالمؤثرات التقليدية والمنازعات الطائفية.

منهج البحث

وقد نهجت في هذا الجزء ما نهجته في الأجزاء السابقة من الابتداء بذكر الإمام الصادق، ثم ذكر واحد من أئمة المذاهب الأربعة. فذكرت الإمام أبا حنيفة في الأوّل، ومالكاً في الثاني، والشافعي في الثالث، وأحمد بن حنبل في هذا الجزء.

وخصّصت الجزء الخامس لأهم المسائل الفقهية المتفق عليها، والمختلف فيها من المذاهب الأربعة، ومذهب الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام)، مع استدراك ما فاتنا بيانه في تلك الأجزاء المتقدّمة عليه.

وقد نبهت بأنّ ترتيب ذكرهم بهذه الصورة إنّما هو حسب الرتبة الزمنية لا الرتبة العلمية; فإنّ الحكم لواحد من الأربعة بالأعلمية هو من الصعوبة بمكان، لوجود

الخلاف والاختلاف، فأتباع كلّ إمام يدّعون أنّ إمامهم هو الأعلم، والأولى بالاتباع دون غيره، مستدلين بالنقل والاعتبار. وساق كلّ فريق - عدا الحنابلة - أحاديث عن النبي جعلوها دليلاً على لزوم اتّباع ذلك الإمام ومبشّرة به تصريحاً أو تلميحاً.

فالحنفية يروون في كتب مناقبهم أحاديث: «يكون في أُمتي رجل يقال له أبو حنيفة هو سراج أُمتي» وفي لفظ آخر: «يكون في أُمتي رجل اسمه النعمان وكنيته أبو حنيفة» وفي لفظ ثالث: «اسمه النعمان بن ثابت».[١]

ونحن لانقف هنا مع هذه المرويات موقف تمحيص وتدقيق بعد أن وقفنا معها في الجزء الأوّل، فأوضحنا هناك للقارئ نصيبها من الصحة. ولم نحجم عن التصريح بأنّها مكذوبة وأنّها من وضع رجال; أجمع علماء الرجال على تجرّدهم من الصدق، كما نصّ الكثيرون من علماء الحنفية على كذب هذه الادعاءات ونفوها نفياً باتّاً.

وادّعت المالكية انطباق حديث: «يوشك أن يضرب الناس أكباد الابل فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة».[٢]

وقد أطال القاضي عياض في «ترتيب المدارك» القول في الحديث وروايته ورواته بانطباقه على مالك دون غيره، وأنّ السلف فهموا ذلك وعدّ هذا من معجزات النبي (صلى الله عليه وآله) وإخباره بالمغيّبات.

وقد أصبح عند المالكية من المسلّمات، وأكثر حفاظ الحديث قالوا: إنّ هذا الحديث من اختصاص المالكية دون غيرهم، ومنهم من وهنه مرة ونفى انطباقه على مالك مرة أُخرى. لوجود علماء في عصر مالك كانت المدينة تزخر بهم، وهم أعلم منه بل هم اساتذته: كسعيد بن المسيب، وعبد العزيز العمري، ومحمد بن مسلم الزهري، وربيعة الرأي وغيرهم من شيوخ مالك الذين هم أعلم منه وأرقى درجة في الفقه، ولو سمحت الظروف القاسية للحقيقة الصامتة أن تنطق بالحقّ وتتفوه بالواقع لما تخطّت الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام)الذي هو أستاذ مالك ومن شهد له مالك نفسه: بأنّ عينه ما رأت أعلم ولا أتقى من جعفر بن محمد الصادق .[٣]

وامّا الشافعية فدليلهم في النقل هو دعوى انطباق حديث عالم قريش: «يملأ الأرض علماً» [٤] على الشافعي وما ذلك إلا تخمينات مبهمة وفرضيّات عقيمة، وقد تعرضنا له في الجزء الثالث في حديثنا عن الشافعي.

(١) انظر جامع مسانيد أبي حنيفة ج ١ ص ١٥.
(٢) الديباج المذهب ص ٥٠.
(٣) مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ٢٦٩ .
(٤) مناقب الشافعي للبيهقي ج ١ ص ٢٩ - ٣٠.

أمّا الحنابلة فقد أهملوا طريق النقل وتمسّكوا بالاعتبار، فلم يدّعوا وجود حديث في إمامهم يبشّر به ويفيض على شخصيته قدسية تؤهّله لأن يتفرّد بالعلم ولزوم الاتّباع، ولكنّهم اعتمدوا على مبشرّات الأحلام، فجعلوها محل اعتماد ومن المرجّحات للمذهب، وأنّها بمنزلة اليقظة فيقولون: إنّ ما قاله رسول الله(صلى الله عليه وآله)في نوم أو يقظة فهو حقّ، وقد ندب (صلى الله عليه وآله) إلى الاقتداء به - أي بأحمد - فلزمنا جميعاً امتثاله [٥]. يشيرون بذلك إلى منامات يدّعى فيها أنّ سائلا سأل رسول الله(صلى الله عليه وآله) في النوم: من تركت لنا في عصرنا هذا من أمتك نقتدي به يارسول الله؟ فقال: عليك بأحمد بن حنبل. وبهذا استوت كفتا الميزان في طريق النقل كاستوائهما بين جميع المذاهب في طريق النقل والاعتبار. فإنّهم جميعاً قد عقدوا فصولاً مطوّلة في الأحلام لإثبات فضائل أئمتهم، وجعلوها مصدراً من مصادر تاريخ حياتهم، وميزاناً من موازين عظمة شخصيّتهم، وطريقاً لإثبات مفاخرهم.

كما إنّنا نلمح في مناقب الكثير منهم اشتراكاً في المفاخر التي أثبتوها، وأنّ طابعها واحد لا يتغير وإن تغيّر الزمن، وقد تجنبنا الخوض في ذلك وذكر الكلام حولها، إلاّ ما يتعلّق به غرض من أطراف البحث.

وكثرت المنامات في فضل أحمد حتى كان لها الأثر في الأدب الحنبلي، فنظم الشعراء ذلك، يقول أبو الخطاب المتوفى سنة (٤٧٦ هـ) :

وعن مذهبي إن تسألوا فابن حنبل *** به أقتدي مادمت حيّاً امتّع

وذاك لأني في المنام رأيته *** يروح ويغدو في الجنان ويرتع[٦]

فهذا الرجل قد جعل المرجّح لمذهب أحمد والدليل على لزوم اتّباعه هو حلم رآه، وهو: أنّه رآى أحمد في الجنة، ومثل هذا كثير ستقف على البعض منه في ترجمة أحمد.

وعلى أيّ حال فإنّا نقرأ في تأريخ حياة أولئك الأئمة صفحات غامضة، وألغازاً معقّدة، وزوائد تتضمنّ غلوّاً في المدح، وتجاوزاً في الاطراء، ومناقب حافلة بالغرائب والعجائب، يقف الباحث حيالها مدهوشاً، ولكنّه بعد أن يتوصّل إلى معرفة الأسباب التي أوجدت تلك الأوهام وسبّبت ذلك الغموض تتّضح له الحقيقة، وإذا ظهرت الحقيقة بطلت الأوهام.

(٥) ذيل طبقات الحنابلة ج ١ ص ١٣٧.

(٦) طبقات الحنابلة ج ١ ص ٤٠٧.

ولقد نهجنا في بحثنا عن أئمة المذاهب نهجاً وسطاً، فلم نندفع مع المتعصّبين لهم فنستوحي معلوماتنا عنهم بما لا صلة له بالواقع، ولا يكشف عن طابعهم الذي طبعوا عليه، ونهجهم الذي ساروا به، كما انّنا لم نتنكّر للحقائق شأن المتعصبين عليهم في سلوك طرق ملتوية فراراً من الحقيقة وابتعاداً عن الواقع، فإنّ كلاً من هذا وذاك لا يكشف لنا عن الحقيقة التي نحاول الوقوف عليها في دراستنا هذه.

وقد التزمنا بأمانة النقل للحوادث التي لها الأثر في نتائج المقارنة والموازنة بينهم، فإنّا لم ننته بعد من إجراء تلك العملية، ولا يمكن لنا ذلك إلاّ بعد التدقيق والتمحيص.

وإنّي بهذا العرض التأريخي الموجز آمل من ورائه أن أقف على مقدّمات غير عقيمة الانتاج.

التعصّب للمذاهب

وكما قلت إنّ مشكلة التعصّب للمذاهب هي من أعظم المشاكلّ التي حلّت في المجتمع الإسلامي; فقد أدّت إلى تفرّق وتباعد في صفوف المسلمين، بانتشار العداء بين الطوائف، وإثارة القلق من جراء الخلافات التي كونتها تلك الظروف القاسية، عندما أصبح للآراء والأفكار عصبية تشبه العصبية الجاهلية، وكلّ يحسب أنّ مذهبه هو الإسلام، وأنّ ماعداه انحراف لا يؤخذ به وضلال لا يلتفت إليه، وقد نهجوا نهجاً أبعدهم عن روح الإسلام، حتى بالغ بعضهم في طعنه لمن خالف مذهبه، كقول بعض الحنابلة: من لم يكن حنبلياً ليس بمسلم[٧] وقول الآخر: لو كان لي من الأمر شيء لأخذت من الشافعية الجزية[٨] ويقول آخر: لو كان لي من الأمر شيء لوضعت على الحنابلة الجزية[٩]. وكلّ هذه الأمور ترجع إلى عوامل سياسية، تحاول تفريق الصف وجعل المسلمين فرقاً واحزاباً، يشتم بعضهم بعضاً، وقد تحكّم التعصّب الطائفي فألقى على العيون غشاوة التمويه والخداع. وبهذا فقد توالت الحوادث وتعدّدت الفتن. حتى أدّى ذلك التعصّب أن يجهل بعض الخطباء واجبهم الملقى على عواتقهم، من الدعوة إلى الاصلاح، والإلفة والمحبة، واجتثاث جذور العداء والتشاحن، عندما سلكوا طريق الفرقة، ونشر الشغب وبثّ روح العداء، بقيامهم على المنابر يلعنون من خالفهم في مذهبهم، ممّا أثّر في نفوس العامة تأثيراً دفعهم إلى النهب والتخريب،

(٧) رسالة الإنصاف للدهلوي ص ١٧.
(٨) البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٨٧.
(٩) شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٢٤.

وحرق المساجد والأسواق، كما حدث في كثير من البلدان الإسلامية في سنة (٥٥٤ هـ) وغيرها، وقد اشرنا لذلك بإلمامة موجزة في أبحاثنا السابقة.

إنّ هذه الأمور المؤلمة هي التي فتحت باب التدخل لأعداء الإسلام في صفوف الأمة ليحاولوا القضاء عليه والوقيعة بأهله. وبمزيد الأسف أنّنا نتوارث ذلك الخلاف الذي أوجد الانقسام بيننا، والفرقة في صفوفنا، فأفقدنا تلك القوّة، وسلبنا ذلك السلطان الذي انتشر في ارجاء المعمورة، عندما خفق علم التوحيد فحطّم هياكل الشرك ومعابد الوثنية، ونشر العدل على وجه البسيطة، وانبثق نور المحمدية يبدّد سحب الظلام، وينير للإنسانية طريقها. فأشرق وسط حلك الدياجير المظلمة; يزيح حواجز الطريق التي تعترض سير قافلة الإنسانية الصاعد، رامياً إيصالها إلى ربوع الخير وشاطئ النجاة، ليمرح المسلمون بذلك النعيم، فترفرف السعادة بدنياهم ويعمّ الرفاه في أرضهم. والمسلمون وسط هذا الرخاء صف متماسك.

فهل ندرك أثر ذلك الاختلاف؟ وهل يمكننا أن نعمل لإزالة ما خلفه من أثر سيّء في المجتمع الإسلامي؟ فلنطو صفحات ذلك التأريخ الأسود ونتمسك بتعاليم ديننا، ونسر على منهاجه تاركين وراءنا خرافات سلف مخدوع، وجيل طائش وترسّبات طائفية قذرة.

ولا بدّ أن تعلو كلمة الله ويظهر دين الإسلام على الدين كلّه ولو كره المشركون. بهذا وعدنا الله، وأنّ الله لا يخلف الميعاد.

التحامل على مذهب أهل البيت (عليهم السلام)

ولقد ذكرت في مقدمة الجزء الأول من هذا الكتاب، أنّ أهم الأسباب التي دعت إلى تأليفه وتحمّل عناء البحث ومشقة التنقيب عن المذاهب هو: تطرق البعض بل تعصّبه على مذهب أهل البيت(عليهم السلام)، فوصفهم بالشذوذ ومذهبهم بالبدعة. وهذا أمر لا مبرر له ولا يذهب إليه عاقل. ولكنّ مؤثرات التعصّب وعوامل السياسة العمياء قد وجهت الواقع إلى الوجهة المعاكسة، ودفعت المخدوعين وذوي الأطماع لمعاداة أهل البيت(عليهم السلام)، ورمي أتباعهم بكلّ ما يروق لهم أن يتقولوه.

قال الرياشي: سمعت محمد بن عبد الحميد قال: قلت لابن أبي حفصة ما أغراك ببني علي؟

قال: ما أحد أحبّ إليّ منهم، ولكنّ لم أجد شيئاً أنفع عند القوم منه :أي من بغضهم والتحامل عليهم .[١٠]

(١٠) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٨٧.

كان ابن أبي حفصة يتحامل على آل علي ويكثر هجاءهم طمعاً بجوائز العباسيين; لأنّهم شجعوا الناس على التحامل والبغض لأهل البيت(عليهم السلام)، وقد أنشد ابن أبي حفصة قصيدةً أمامَ المهدي يتعرّض فيها لآل علي، فتزاحف المهدي من صدر مصلاّه حتى صار على البساط، إعجاباً بما سمع، وقال له: كم بيتاً هي ؟

قال: مائة بيت. فأمر له بمائة ألف درهم[١١].

وهذا النهج الذي سار بنو العباس عليه كان بنو أُمية ينتهجونه، وهو إثارة الشعور ضد آل علي، ومعاقبة المعروفين بالولاء لهم، ولو كان أقرب الناس إليهم.

يقول العبلي :

شردوا بي عند امتداحي علياً *** ورأوا ذاك فيّ داءً دويّا

فوربيّ لا أبرح الدهر حتى *** تختلي مهجتي بحبّي عليّا

وبنيه لحبّ أحمد إنّي *** كنت أحببتهم لحبّ النبيّا

حبّ دين لا حبّ دنيا وشرّ الـ *** حبّ يكون دنياويا

صاغني الله في الذؤابة منهم *** لا ذميماً ولا سنيداً دعيّا[١٢]

وهذا الشاعر هو من بني أُمية، ولكنه كان يحبّ أهل البيت(عليهم السلام)، فشرّدوه وطاردوه، ونفوه من البلاد.

وما أكثر الشواهد التي احتفظ بها التاريخ من تلك الأساليب التي استعملها حكّام تلك العصور. لتوجيه الناس في طريق رغباتهم، وإثارة الشعور ضد أهل البيت(عليهم السلام)، ونصب العداء لهم.

ولم يكن من الصعب على قوّة الحكم وشدة الدعاية أن تزرع بذور العداء، وتنشر الكراهة لأهل البيت(عليهم السلام)،ووصف اتّباعهم بما يخالف الحقيقة والواقع.

فليس من الغريب إذا تجنّى ذوو الاطماع والسائرين في ركاب الدولة أن يوصف مذهب أهل البيت بالبدعة.

وليس من الغريب أن يجعل التشيّع عنوان الزندقة والشذوذ عن الدين، لأنّ الحقد لهم قام في نفوس الكثيرين وانتشر بطريقة لا شعورية، وقد صوّروا التشيّع بصورة لاتقع العين منه إلا على منظر يثير الحقد والكراهة، عندما شوهته الدعاية الكاذبة، وأسدلت على محاسن هذا المبدأ أبراداً من نسيج الخيال، وفسّروا تاريخ الشيعة بتفسير خاطئ لا يتصل بالحقيقة.

إنّهم فسّروا حبّ الشيعة لأهل البيت(عليهم السلام)اعتقاداً بالتأليه، وأقاموا على ذلك شواهد من الأساطير المضحكة، كأسطورة ابن سبأ[١٣]، وأضافوا إليها قضايا

(١١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج١٣ ص١٤٦، رقم ٧١٢٧، وضوء النبي للشهرستاني ج١ ص٤٥٧ .

(١٢) تاريخ الشعر العربي ج ١ ص ١١٣.

المتدخلين في صفوف المسلمين من أعداء الدين، ليثيروا بينهم العداء، ولم يهتموا بالخطر الذي ينجم من وراء ذلك. لأنّ حكام ذلك العصر لايهمّهم شيء سوى نشر سلطانهم بكلّ وسيلة.

كما أنّهم فسّروا اعتماد الشيعة على أحاديث أهل البيت(عليهم السلام)وأخذ الأحكام عنهم: بأنّ الشيعة تدّعي نزول الوحي عليهم. وأقاموا شواهد وادعاءات باطلة، إلى غير ذلك من الأمور التي أخذها الكتّاب المعاندون، أو المقلّدون الذين يسيرون في طريق وعر يتعثرون بالأوهام، فكتبوا بما شاءت الدعاية لا بما شاء الحقّ والواقع.

نعم ليس من الغريب أن نقف على آلاف الغرائب، ولكنّ الغريب تجاهل أسباب وجودها، وبواعث انتشارها، على أيدي فئة مخرّبة عابثة.

إنّ تلك الأيدي قد رسمت للشيعة صورة مشوّهة، ووصفوهم بصفات بعيدة عن الواقع، وما ذلك إلاّ خضوعاً للعاطفة وطمعاً لما في أيدي خصوم الشيعة من الحكّام. وإني أبقى على منهجي في شجب هذه الفرقة والدعوة الى تحكيم العقل والتنزّه عن الاستسلام والخضوع لتلك الأسباب التي باد دعاتها من الحكّام الذين انحرفوا بالخلافة واتخذوها ستاراً لمصالحهم وأغراضهم، وظهر اليوم حكّام لكل منّا عندهم نصيب من الظلم والاضطهاد دون تمييز، فقد استخذى منهم من استخذى للقوى المعادية للإسلام، وقد استكبر منهم من استكبر، فبات فرعون هذا العصر. ولن تهدأ مني صرخة الاستنكار أو لهجة النقمة على كلّ من أيّد وأسهم على مدى تاريخنا ودعم الحكام في سياساتهم الرامية الى تمزيق وحدة الصف وزرع الفتنة. كما أنّي آمل أن تتعدد البحوث وتكثر الكتابات التي تدعو الى النزول عند حكم العقل والتزام المنطق في معرفة أسباب العداء المتأصّل في نفوس العتاة والجبارين لأهل البيت وشيعتهم ومن يقبل من أبناءعصرنا أن يكون تبعاً لهم في المنهج، فقد خان الأمانة الملقاة على عاتقه، ويكفي طرح هذا التساؤل كلّ مرة ليكون الجواب مقنعاً.

البحث والزوائد

وبدراستي هذه عن المذاهب أخذت نفسي بالابتعاد عن الزوائد قدر الامكان، فلا أتعرّض إلاّ لما فيه صلة بالبحث، وعلاقة بالموضوع، كما أهملت جانب الهزل والمجون، الحاصل من جراء التعصّب المذهبي، فهناك أشعار كثيرة، وقضايا

(١٣) لقد ظهرت مسرحية عبدالله بن سبأ على مسرح الأوهام، لينظر إليها ضعفاء النفوس كأنّها حقيقة لا تقبل النقاش، وما هي إلاّ من مهازل التاريخ، وعجائب الزمن، وخرافة يكذبها الوجدان، ويندى منها جبين الإنسانية.
إنّها أسطورة مضحكة رتبتها أقلام مأجورة، وأخرجها إلى الوجود أبطال فتنة ودعاة شغب، ولقد تصدّى الأستاذ الكبير السيد مرتضى العسكري لكشف حقيقة عبد الله بن سبأ فألّف كتاباً قيماً صدر إلى الوجود منه جزء واحد، وهو يواصل نشر ما تبقى من بحثه القيّم.

متعددة، ولذلك اشرت لصلاة القفال [١٤] في الجزء الأول التي ذكرها بعض المؤرخين، وأنها هي صلاة أبي حنيفة بالصورة الصحيحة، كما تركت استقصاء أقوال الناقمين عليه، والناقدين له، وقد ذكرها الخطيب البغدادي [١٥] وغيره.

وإني لم أستوف تاريخ حياة الإمام الصادق (عليه السلام)، ولم أتعرّض لترجمة الآباء والأجداد والأبناء والأحفاد، لأنّ ذلك يستدعي تعداد أجزاء هذا الكتاب زيادة على ما أعددناه[١٦]، وقد أفردت مجلداً ضخماً يتضمّن ذلك تحت عنوان (حياة الإمام جعر بن محمد (عليه السلام)) وقد قضيت فيه وقتاً من الزمن، فكان هو أحد الأسباب التي أدّت أن تطول الفترة بين صدور هذا الجزء وسابقه.

وكذلك لم أستوف جميع حكمياته ومواعظه، لأنّي قد جمعتها في جزئين على حدة تحت عنوان «الأسس التربوية» لتكون في متناول الجميع وسأنشر منها فصولاً في هذا الجزء، لأنّي لا أحبّ خلوه من تلك المآثر العظيمة والفكر الخوالد، ولا أقول بأنّي قد أحطت بجميع تراثه الفكري، فقد تعمّدت ترك الكثير منها اختصاراً، وقد بقي الشيء الكثير مبعثراً في بطون الكتب هنا وهناك، ومن الله نسأل أن يهيئ لهذه الآثار القيّمة من يجهد نفسه في جمعها من مظانها، ويتناولها بالشرح اللائق بها، والكاشف عن حقائقها، فإنّ ذلك أكبر خدمة للأمة، وإحياء أعظم أثر من تراثها الفكري.

وإذا أمدّنا الله بمعونته، ووفقنا بعنايته، ووهب لنا فسحة في الأمل، وتأخيراً في الأجل; فسنقوم بهذه الخدمة ونحقق ما نطلب تحقيقه ومن الله نطلب القوّة، وبه نستعين وبيده التيسير.

كما نسأله تعالى أن يجمع كلمة المسلمين ويوفقهم لاتّباع أوامره، وأن يهب لهم اليقظة والحذر ممّا يدبّره لهم أعداء الدين، لإيجاد المشاكل والاختلاف فيما بينهم، واتّساع الثغرة التي ينفذون منها إلى مآربهم الخبيثة، وغاياتهم الدنيئة، إذ لا أمل لهم بذلك مع جمع الكلمة ووحدة الصف.

(١٤) لم أذكر هذه القضية بالتفصيل لما فيها من الأمور المخالفة للإسلام، وقد ذكرها ابن خلكان، وهو شافعي المذهب، ويقصد بذكرها الطعن على الحنفية في تجوزهم السجود على العذرة، والصلاة بجلد كلب وغير ذلك. كما نقلها كثير من المؤرخين(*).

(١٥) وفيات الأعيان ج ٥ ص ١٨٠، أعلام الموقعين ج ٢ ص ٢٢٢.

(١٦) أدخلنا في الجزء الثامن نبذاً قصيرة من تراجم أبناء الإمام(عليه السلام) لم نتوسع فيها كما يجب، لأنّ الغرض من ذكرهم في سياق البحث وتسلسل الكتاب هو الإشارة إليهم والتنويه بمكانتهم.

(*) تلك الصلاة التي صلاها فقال المروزي بحضرة السلطان محمود بن ناصر الذي كان حنفياً وتحول شافعياً. راجع وفيات الأعيان لابن خلكان ج٢ ص٨٦، والطبقات ج٤ ص١٤ .

فلنطوِ صحائف التاريخ الأسود، وننسى مآسي الماضي، ونزيل من نفوسنا آثار التعصّب الطائفي، وترك الخصومة في الدين فإنّنا أمام خصوم قد تفاقم خطرهم، واستفحل أمرهم.

(يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَـفِرُونَ* هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ).[١٧]

الإمام الصادق (عليه السلام)

لمحات من تاريخ حياته

(١٧) التوبة: ٣٢ و ٣٣.

الإمام الصادق(عليه السلام) **لمحات من تاريخ حياته**

لمحات من تاريخ حياته

بعد ثلاثة أجزاء مضت من كتابنا «الإمام الصادق والمذاهب الأربعة» وقد تضمن كلّ جزء جانباً من حياة الإمام الصادق، ونحن لم نوف شخصية الإمام حقّها في أيّ جانب تناولناه، وهنا نحاول أن نستعرض بعجالة كيفية تميّز الإمام الصادق بهذه الشخصية العظيمة. وبكلّ اطمئنان فإنّ التاريخ احتفظ بصورة مجردة من آثار السلطان ونتائج سياسات الحكام، فلم تنجح تلك الحملات في دفع الناس عن أهل البيت وعميدهم، وفشلت في الاساءة إليه. وإنّ رجلاً يعاصر تلك المرحلة وعهودها وأحداثها السياسية وقد تباينت فيها واتّسعت واختلفت المجريات والنتائج، ويخرج منها بمبادئه نقيّة وبأهدافه نزيهة لهو من أعظم الرجال الذين يعجز القلم عن إيفائه حقّه من البيان والتقدير.

وببساطة، فإنّ صورة الحال أنّه كان مع أبيه الباقر(عليه السلام) غاية بني أُمية، ثم هدم الله ملكهم وثل عرشهم. وبدأت فترة اتجهت فيها الأنظار إليه، فاجتازها، فهو يعلم ماذا ستسفر عنه الأحداث وكيف ستكون السلطة، إذ علم من بني العباس ما جهله غيره، ولمّا قام حكمهم واستقرّ، لقي منهم بلاءً ومحناً حتى كتب الله له النجاة وحفظه. فهو ما بين حماية نفسه وأصحابه وبين رسالته الدينية وواجبه تجاه مجتمعه وأبناء دينه يشيد صرحاً دينياً وثقافياً خالداً ويشقّ طريقه بما يشقّ على غيره ويعجزه، لكنّها خصائص أهل البيت سلام الله عليهم، فكم لأبي عبدالله الصادق من أعداء؟ وكم جهد الحكّام في الإساءة إليه والى أهله وشيعته؟ ولكنّ تلك الإساءات وذلك العداء فشلت جميعها، واحتفظ التاريخ بصورة متألقة لشخصية الإمام الصادق هي مصداق الأعلمية والأفضلية.

ولادته

الإمام أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين - سبط رسول الله - بن علي بن أبي طالب(عليهم السلام).

ولد بالمدينة المنورة يوم الجمعة، أو الإثنين عند طلوع الفجر ١٧ ربيع الاول سنة (٨٣ هـ) وقيل سنة (٨٠ هـ)، وقيل غرة رجب أو منتصفه، وقيل يوم الثلاثاء قبل طلوع الفجر، غرة شهر رمضان، والمعتمد الأول وهو يوم ١٧ ربيع الأول يوم ولادة جدّه رسول الله (صلى الله عليه وآله) كما عليه عمل كثير من المسلمين.

وأمّه أم فروة، وقيل أم القاسم واسمها قريبة، أو فاطمة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق. أمّها أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، وكانت أم فروة قد ولدت للإمام الباقر ولدين هما: الإمام الصادق (عليه السلام) وعبد الله أو عبيد الله، وقد قال الإمام الصادق فيها: إنّها ممّن آمنت واتقت وأحسنت، والله يحب المحسنين.

وقد روت عن الإمام الباقر أحاديث كثيرة، وكانت لها مكانة علمية، وقد استقت العلم من ينبوع الوحي، ومعدن الرسالة، وممّا يدلنا على مكانتها العلمية مارواه عبد الأعلى قال: رأيت أم فروة تطوف بالكعبة عليها كساء متنكرة، فاستلمت الحجر بيدها اليسرى، فقال لها رجل ممّن يطوفون: يا أمة الله، أخطأت السُنة. فقالت إنّا لأغنياء عن علمك.

وكان أبوها القاسم بن محمد بن أبي بكر من أعلام الأمة وكبار المحدثين عن أهل البيت(عليهم السلام)، وروى عن عمّته عائشة وكثير من الصحابة، وكان من الفقهاء السبعة ومن رواة الحديث، وقد روى حديثه أصحاب الصحاح الستة.

وقد استوفينا ترجمة أم فروة وأبيها القاسم وأبيه محمد، في كتابنا الذي أفردناه في ترجمة الإمام جعفر بن محمد الصادق، ولذلك اكتفينا بهذه الإشارة الموجزة.

نشأتـه

نشأ أبو عبد الله (عليه السلام) بالمدينة المنورة وقد تولّى جدّه الإمام زين العابدين تربيته في عهد طفولته، ودرج تحت كنفه ورعايته وكان هو معلّمه الأول.

قضى مع جدّه زين العابدين ما يقارب ١٨ سنة من عمره، وبعد وفاة جدّه سنة (٩٤ هـ) تولى أبوه الباقر تربيته، واستقل بتعليمه، وكان الإمام الصادق (عليه السلام)مقدّماً عند أبيه وملازماً له في حلّه وترحاله، ودخل معه الشام ومكة المكرمة، وقد شاهد هناك ازدحام الفقهاء من مختلف الأقطار على أبيه الباقر لاستماع حديثه والسؤال منه، وكانت حلقة درسه تعقد بالمسجد فتكون هي الحلقة الوحيدة لطلاب العلم، ورجال الفكر، ورواة الحديث، فلا تعقد حلقة هناك إلا بعد انتهاء الإمام الباقر من إلقاء دروسه.

وكان الإمام الصادق (عليه السلام) في طليعة تلامذة أبيه في مدرسته بالمدينة، وهي تضمّ عدداً وافراً من أعلام عصره: كعمر بن دينار الجمحي، وعبد الرحمن الأوزاعي، وابن جريح، ومحمد بن المنكدر، ويحيى بن كثير وغيرهم من رجال الحديث، وهم يسألونه عن أهمّ المسائل وأعظم المشاكل، ولم يحضر الإمام الصادق حلقة أحد من فقهاء عصره، فهو غنيّ عن ذلك وما يدّعى أنّه روى عن عروة بن الزبير والزهري وغيرهما فإنّه ادعاء فارغ لايدعمه دليل، لأنّه (عليه السلام)استقى العلم من جدّه زين العابدين ومن أبيه الإمام محمد الباقر(عليهما السلام). حتى نشأ تلك النشأة الصالحة، ونال تلك الدرجة السامية، وعظم في أعين كبار الفقهاء، لما تحلّى به من الخصال الحميدة، والأخلاق الفاضلة، والإحاطة التامة بشتّى العلوم، وظهرت عليه علائم الفضل، وشرف المحتد، وعزة النفس، وصدق اللهجة. قال عمر بن المقدام: إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أنّه من سلالة النبيين.[١٨]

وهكذا بقي مع أبيه (عليه السلام) بعد جدّه زين العابدين (عليه السلام) تسع عشرة سنة.

ولمّا توفي أبوه الباقر سنة (١١٤ هـ) تفرّد بالزعامة، وقام بأعباء الإمامة، بوصية من أبيه الباقر (عليه السلام) وكانت مدة إمامته ٣٤ سنة.

معاصرته للحكم الأموي

أدرك الإمام الصادق (عليه السلام) طرفاً كبيراً من العهد الأموي، وعاصر كثيراً من خلفائهم. فقد ولد (عليه السلام) في عهد عبد الملك بن مروان، وأدرك خلافته ثلاث سنين أو ستّاً أي من سنة (٨٠ هـ) أو (٨٣ هـ) الى سنة (٨٦ هـ)، وهي السنة التي توفّي فيها عبد الملك بن مروان. ومدة خلافته ثلاث عشرة سنة وأشهر.

ثم ملك الوليد بن عبد الملك سنة (٨٦ هـ) وتوفي سنة (٩٦ هـ). وكانت مدة خلافته تسع سنين وثمانية أشهر.

ثم ملك أخوه سليمان بن عبد الملك وتوفي سنة (٩٩ هـ). وكانت مدة خلافته سنتين وثمانية أشهر.

ثم ملك بعده عمر بن عبد العزيز بن مروان المتوفى سنة (١٠١ هـ) ومدة خلافته سنتان وستة أشهر.

وملك بعده يزيد بن عبد الملك بن مروان المتوفى سنة (١٠٥ هـ) وكانت مدة خلافته أربع سنين وشهراً.

(١٨) تذكرة الخواص ص ٣٤٢.

وملك بعده هشام بن عبد الملك المتوفى سنة (١٢٥ هـ) وكانت مدة خلافته عشرين سنة إلا شهراً.

وملك بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك المتوفى سنة (١٢٦ هـ) ومدة خلافته سنة وثلاثة أشهر.

وملك من بعده يزيد بن الوليد بن عبد الملك المتوفى سنة (١٢٦ هـ).

وملك بعده أخوه إبراهيم ولم تطل أيامه، وتنازل لمروان الحمار بن محمد ابن مروان بن الحكم سنة (١٢٧ هـ)، وكان مروان آخر خلفاء بني أمية، وقتل سنة (١٣٢ هـ). وكانت مدته خمس سنين وعشرة أشهر. ولم تكن مدة خلافة أو سلطان، بل أيّام حروب متوالية، وثورات متتابعة، وبموته انتهى العهد الأموي، وانهارت دولتهم، وقامت على أطلالها الدولة العباسية.

كانت هذه المدة التي لا تقل عن ثمان وأربعين سنة قضاها الإمام الصادق (عليه السلام)في عهد الحكم الأموي، مليئة بأحداث تبعث آلاماً تنكد عليه عيشه، لما فيها من المحن وويلاتها.

إنّه (عليه السلام) كان يرى المضطهدين من خيار الأمة، وصلحائها، وتملأ بهم السجون، ويساقون إلى الموت زرافات ووحداناً، كما يرى بين آونة وأخرى رجال الطالبيين وأعيانهم مطاردين، ومشرّدين يلاقون حتفهم شهيداً بعد شهيد، فكانت مقاتلهم مآسي التاريخ الدامية، وكان كلّ من ملك الأمر من أولئك الحكام يراقب حركاتهم بعين ساهرة، وأذن سامعة، فإذا ضاقت عليهم الأرض وأنفوا الذل خرجوا بالسيف، وهم يأملون مناصرة الأمة ومؤازرتهم، ولكنّ لم تسعد الأمة بذلك، فكانت الشهادة وسامهم، والقتل نهايتهم.

ولقد عاصر الإمام الصادق (عليه السلام) ملوكاً استفحل ضررهم على جميع الطبقات، وقد انحطوا إلى مهاوي الرذيلة، فارتكبوا المنكرات التي يندى منها الجبين، ويتصدّع لها قلب ذوي الأنفة والحمية على الدين، وهم يدّعون الخلافة للمسلمين ولا يتّصفون بأيّ صفة من صفاتها; فليس منهم أحد إلا وهو ظالم في حكم، جائر على الرعية، مستبدّ بأموال الأمة ينفقها في شهواته، اللّهمّ إلاّ إذا استثنينا عمر بن عبد العزيز فهو نجيبهم، إذ أظهر الزهد والابتعاد عن الظلم. وبادر إلى محو السُنة الأموية، ومنع سبّ عليّ(عليه السلام) بعد أن أدخل في مناهج التعليم، وأعلنوا به على المنابر، وفي الأندية والمجتمعات، لينشئوا جيلاً قد تركّزت فيه فكرة البغض لعلي وأولاده، فكان سبّ عليّ هو علامة الولاء للدولة، والبراءة منه، دليلاً على الإخلاص وعدم الخيانة، حتى

تركّزت في مخيلة كثير من الناس صور معاكسة للحقيقة، ونشأوا على التقليد الأعمى في اتّباع ولاة أُمورهم، وتصديق ما صدر عنهم.

قال أبو يحيى السكري: دخلت مسجد دمشق فقلت: هذا بلد دخله جماعة من الصحابة. فملت إلى حلقة فيها شيخ جالس. فجلست إليه، فقال له رجل جالس أمامه: من هو علي بن أبي طالب؟ فقال الشيخ: خفاق ـ يعني ضعيفاً ـ كان بالعراق اجتمعت عليه جماعة. فقصد أمير المؤمنين - يعني معاوية - أن يحاربه فنصره الله عليه.

قال يحيى: فاستعظمت ذلك وقمت، فرأيت في جانب المسجد شيخاً يصلي الى سارية، وهو حسن السمت والصلاة والهيئة، فقلت له: ياشيخ أنا رجل من أهل العراق، جلست إلى تلك الحلقة، ثم قصصت عليه القصة.

فقال الشيخ: في هذا المسجد عجائب، بلغني أنّ بعضهم يطعن على أبي محمد الحجاج بن يوسف، فعلي بن أبي طالب من هو؟![١٩]

هكذا أثّرت قوّة الدعاية في مجتمع يتقبل تلك الأباطيل والمفتريات، لضعف الإيمان. وكم للدعاية من أثر في توجيه الناس الى ما تهدف إليه السياسة، من تحقيق أهداف وبلوغ مآرب، حتى حملوا السدّج على الاعتقاد بكلّ ما يُوحى إليهم، حتى ارتبطت في نفوس بعض الناس ارتباطاً وثيقاً، فهي لا تقبل الرد والمعارضة. أمّا البعض الآخر فقد خضعوا لتلك الأوهام تحت ضغط الإرهاب وقوّة الحكم الغاشم.

ولولا إسهام علماء القصور وفقهاء الملوك في هذه الحملة لكان أمرها سياسياً يتصل بمصالح السلطة وشؤون الحكم، لكنّ المؤلم أنّ الظلمة تحكّموا بالناس بوسائل القوة الغاشمة من جهة، وبوسائل الدين من جهة أُخرى.

يقول الشعبي: ماذا لقينا من آل علي إن أحببناهم قتلنا، وإن عاديناهم دخلنا النار.[٢٠]

وقد مرت الإشارة إجمالاً - في الأجزاء السابقة - إلى تلك الدعايات وأساليبها، ومدى تأثر المجتمع فيها.

وعلى أيّ حال فإنّ الإمام الصادق (عليه السلام) قضى من عمره في الحكم الأموي ما يقارب نصف قرن، وقد شهد انتقال الدولة منهم الى بني العباس، وشاهد ذلك النشاط السياسي الذي عصف بتلك الدولة فهدم أركانها، ومحاها من صفحة الوجود، كما عصف بأرواح الناس وأموالهم، وقد اتّضح لنا رأيه وموقفه وسط ذلك المعترك،

(١٩) المدخل الى مذهب أحمد بن حنبل ص ٥ نقلاً عن تاريخ ابن عساكر.
(٢٠) عيون الأخبار لابن قتيبة ج ١ ص ٢٤٣.

وسنرى فيما بعد رأيه في معالجة المشاكل وموقفه في اصلاح الوضع.

وخلاصة القول أنّ الإمام الصادق (عليه السلام) قد شاهد في عصر أولئك الحكام أنواع الظلم وضروب المحن، من سوء السيرة في الأمة، وجور الحكم في الرعية.

وقد تراكمت المصائب على أهل البيت(عليهم السلام)، وتوالت عليهم الحوادث من قتل وتشريد، وفرض مراقبة شديدة، ومنع الأمة من الاتصال بهم، والانتهال من نمير تعاليمهم. وشاهد جدّه الإمام زين العابدين (عليه السلام)على فراش الموت، متأثراً من السمّ الذي دسّه الأمويون له، فقضى نحبه صلوات الله عليه سنة (٩٤ هـ).

وكذلك شاهد أباه الإمام الباقر(عليه السلام) على فراش الموت، ولفظ أنفاسه مسموماً بيد أولئك الطغاة، الذين صعب عليهم انتشار ذكره واتّساع آفاق دعوته، ونشاط مدرسته وذلك في سنة (١١٤ هـ).

ووافاه نبأ مقتل عمّه زيد بن علي (عليه السلام) الثائر على الظلم والمنتصر للعدالة الضائعة، في ظلّ حكم أولئك الطغاة في سنة (١٢٤ هـ).

وحينما أخبر الإمام الصادق (عليه السلام) عن مقتله وما جرى عليه بكى بكاء شديداً، وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، عند الله أحتسب عمّي، ثم قال: مضى والله شهيداً، كشهداء استشهدوا مع رسول الله وعلي والحسين.(٢١)

وقال (عليه السلام): فلعن الله قاتله وخاذله، والى الله أشكو ما نزل بأهل بيت نبيّه(عليهم السلام)بعد موته، ونستعين الله على عدوّنا وهو المستعان.

ولم تمض على قتل زيد بن علي (عليه السلام) مدة من الزمن حتى وافته الأنباء بقتل ابن عمّه يحيى بالجوزجان، وذلك في سنة (١٢٦ هـ). وصلب على باب المدينة إلى أن ظهر أبو مسلم الخراساني فأنزله ودفنه.

وهكذا كان في كلّ آونة يقرع سمعه نبأ مفجع في أهل بيته وشيعته، فقد ملأوا بهم السجون، وصبغوا من دمائهم الأرض، واهتزّت بأجسادهم المشانق، وقد تلقى تلك الفجائع بصبر وثبات، وعزيمة صادقة.

ولا يغيب عن الأذهان عظيم استياء الإمام ومحنته من جراء الانحراف العقائدي والسياسي، وبعد الأمة الاسلامية عن واقع الدين، وابتعادهم من الناحية العملية عن الإسلام، وهو المسؤول الأول عن التوجيه، وهداية الأمة.

(٢١) زيد الشهيد للسيد محسن الأمين ص ١٨.

وماذا يصنع وهو المحاط برقابة شديدة، والدولة لا تنفك عن مقابلته بالشدة، ومحاولة الفتك به بين آونة وأخرى؟ وقد نظر (عليه السلام) إلى واقع الأمر نظرة دقيقة، وسار على خطّة محكمة وطريق سويّ في معالجة الأوضاع، وإصلاح المجتمع.

أمّا بقيّة حياته التي قضاها في العهد العباسي، وهي من سنة (١٣٢ هـ) إلى سنة (١٤٨ هـ) وهي سنة وفاته، وتكاد هذه المدّة أن تكون في بدايتها خير عهد يشهده الإمام من حيث الحرية الكاملة، ورفع الرقابة المشددة، ولكن لم يطل الزمن حتى اشتدّ المنصور في معاملته، وعامله بقسوة لا مزيد عليها، حتى اغتاله بالسمّ في الخامس والعشرين من شهر شوال سنة (١٤٨ هـ).

وخلاصة القول: أنّ الإمام عاش هذه المدة وسط معترك سياسي وفكري، وقد قام بواجبه الإصلاحي، ووجّه الأمة إلى ما فيه سعادتها، ولم يخضع لتلك السلطات فيترك عمله، أو يتخلّى عن المسؤولية في أداء الرسالة، فلم يتزلّف لملوك عصره فيسايرهم، أو يبرر أعمالهم، بل كان دائماً يسلك منهج آبائه في محاربة الظالمين، مظهراً سخطه عليهم، معلناً غضبه على أعمالهم، داعياً لمقاطعتهم، وكانت عليه من الله جنّة واقية، فهو متسلّح بإيمانه بالله، متحمّل الأذى في سبيل الدعوة إلى الله.

ولا بدّ لنا هنا - إتماماً للبحث عن حياته - من ذكر شيء من سيرته وبعض تعاليمه التي تتجلّى فيها روح الصلاح، وهو يضع في كلّ منها حجراً لأعظم **الإمام الصادق**(عليه السلام) **قبس من سيرته وتعاليمه**

الأسس التربوية.

الإمام الصادق (عليه السلام)
قبس من سيرته وتعاليمه

تمهيد

لقد كان الإمام الصادق (عليه السلام) مثالاً كاملاً لدعاة الاصلاح، وعلماً من أعلام الصلاح، يأمر بالأخلاق الفاضلة والسجايا الحميدة، واكتساب الفضائل والابتعاد عن الرذائل، لا يدّخر النصح عن أحد .

كان يدعو الناس بلين ورفق، ويجادلهم بالتي هي أحسن، ولا يتشدّد على الشاك في الدين، بل كان يوضّح له ما أشكل، ويبيّن له ما أبهم، حتى يظهر له الحقّ ويجلو له السبيل .

وفي خضمّ عداوة الحكام لأهل البيت، وموجات الارهاب التي يتعرض لها الشيعة من قبل أصحاب السلطان وأذنابهم، كان الإمام(عليه السلام) حريصاً على إبعاد المؤمنين عن مواقع سيوف الظلمة، وكان من نتائج انحراف الحكام عن الدين وبعدهم عن روح الإسلام أن يصرّح في المجتمع بالنصب والعداء لأهل البيت، فسئل الإمام عن رجل سبّابة للإمام(عليه السلام) فقال(عليه السلام): «**حلال الدم والله، لولا أن تعمّ به بريئاً**» قال السائل: لأي شيء يعمّ به بريئا؟ قال: «**يقتل مؤمن بكافر**».

وسئل(عليه السلام) في قتل الناصبي؟ فقال: «**حلال الدم، ولكني أتقي عليك، فإن قدرت أن تقلب عليه حائطاً أو تغرقه في ماء لكي لا يشهد به عليك فافعل**» .

وكان يتشدّد على أصحابه المتشدّدين في معاملة المنحرفين عن الحقّ، ويأمرهم بأن يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة ويقول لهم: «**لأحملنّ ذنوب سفهائكم على علمائكم، ما يمنعكم إذا بلغكم عن الرجل منكم ما تكرهون، وما يدخل به الأذى علينا، أن تأتوه فتؤنبوه وتعذلوه وتقولوا له قولاً بليغاً**».

فقال له بعض أصحابه: إذاً لا يقبلون منا.

قال: **اهجروهم واجتنبوا مجالسهم** .[٢٢]

فهو يوجب على العالِم أن لايتخلّى عن تعليم الجاهل الذي يتردّى بجهالته، فيرتكب ما يخالف الدين، ويدخل به الأذى على دعاة الاصلاح وحماة المسلمين، ولا يصحّ لهم هجره إلا بعد اليأس من اصلاحه، وإزالة الغشاوة التي أعمت بصره، ففي هذه الحالة تكون مواصلته تشجيعاً، ومجالسته إغراء.

(٢٢) الكافي ج ٨ ص ١٦٢ ح ١٦٩.

وكان (عليه السلام) يبذل جهده في توجيه الناس وتقويم أخلاقهم، و إصلاح شؤونهم ما استطاع، ويريد منهم أن يلتزموا الجوهر ويتركوا العرض، ويأمرهم بالعمل، ويدعو ذوي اليسر إلى الانفاق على ذوي العسرة، وأن يوسّعوا على المضيق منهم حتى يمنعوهم من ذلّ السؤال، وكان ينفق حتى لا يبقي شيئاً لعياله [٢٣]كما يحدّث عنه الهياج بن بسطام.

يقول شعيب بن ميثم: قال لي الصادق: ياشعيب أحسن إلى نفسك وصل قرابتك، وتعاهد إخوانك، ولا تستبد بالشيء فتقول: ذا لنفسي وعيالي، إنّ الذي خلقهم هو يرزقهم.[٢٤]

إلى غير ذلك من أقواله وأفعاله، التي كان يبعث فيها الشعور لسامعيه على لزوم التخلّق بالسجايا الحسنة اقتداء به، لأنّه (عليه السلام) كان حريصاً على توجيه المجتمع، والتحلّي بآداب الإسلام، فهو يدعو الأغنياء لمواساة الفقراء والإحسان إليهم، لتزول عوامل العداء والحسد والبغضاء، ويكون الجميع اخوة، كلّ يحبّ الخير لأخيه، فلا أثرة ولا بخل، ولا إهانة بعض لبعض، ولا خصومة ولا مشاحنة، إلى غير ذلك ممّا دعا الإسلام كلّ مسلم أن يتّصف به.

ولحرصه (عليه السلام) على تأليف القلوب وإزالة الشحناء، وإطفاء نار العداوة والبغضاء; كان يدفع إلى بعض أصحابه من ماله ليصلح به بين المتخاصمين على شيء من حطام الدنيا تسوية للخلاف، ودفعاً للتقاطع والتهاجر. ومنعاً من الترافع لحكام الجور.

نهيه عن المنازعات وفضّ الخصومة لدى حكّام الجور

قال أبو حنيفة واسمه سعيد بن بيان: مرّ بنا المفضل بن عمر وأنا وختن لي نتشاجر في ميراث، فوقف علينا ساعة، ثم قال لنا: تعالوا إلى المنزل، فأتيناه واصلح بيننا بأربعمائة درهم، فدفعها الينا حتى إذا استوثق كلّ واحد منا صاحبه قال المفضل: أما أنّها ليست من مالي، ولكنّ أبا عبد الله الصادق أمرني: إذا تنازع رجلان من أصحابنا أن أصلح بينهما، وأفتديهما من ماله فهذا مال أبي عبد الله الصادق .[٢٥]

(٢٣) القرماني ص ١٢٨، وكشف الغمة للأربلي ج ١ ص ٢٢٣.
(٢٤) مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ٢٤٣.
(٢٥) مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ٢٩٥.

وهكذا يكشف لنا عظيم اهتمامه بجمع الكلمة، وعدم الفرقة أولاً، وإنهاء الخصومات على يد من أقامه من قبله لذلك ثانياً .

لأنّه (عليه السلام) منع عن المرافعة الى حكّام الجور، وأمر بمقاطعتهم، وقد أقام جماعة من كبار أصحابه حكّاماً من قبله، ينظرون في الخصومات، ويحكمون بحكم الله عز وجل، وقد أمر الإمام الصادق بالرجوع إليهم، والمرافعة عندهم وقال :

أيّما رجل كانت بينه وبين أخ له مماراة في حقّ، فدعاه إلى رجل من اخوانكم ليحكم بينه وبينه، فأبى إلاّ أن يرفعه الى هؤلاء، كان بمنزلة الذين قال الله عز وجل فيهم: **(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّـهُمْ آمَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَنْ يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا)**[٢٦] .

وكان يعلن (عليه السلام) بأنّ المرافعة الى اولئك الحكام إثم، وأنّ حكمهم غير نافذ، لأنّ الحكومة للإمام العادل بالحكم، العالم بالقضاء، كنبيّ أو وصيّ نبيّ; وهو (عليه السلام)أحقّ بالحكم، وأمر بالرجوع لمن جعله من قبله للحكم بين المتنازعين .

وقد ورد عنه (عليه السلام) أنّه قال :

إيّاكم أن يخاصم بعضكم بعضاً إلى أهل الجور، وأيّما مؤمن قدم مؤمناً في خصومة الى قاض أو سلطان جائر فقضى عليه بغير حكم الله فقد شركه في الإثم.[٢٧]

والمراد بقوله(عليه السلام): بغير حكم الله مطلق ما يحكمون به، سواء كان الحكم بالحقّ أم بالباطل، لأنّهم حكّام جور، وليس لهم حقّ الحكومة بأحكام الله، فحكمهم غير حكم الله.

وكما كان ينهى عن المرافعة اليهم، كان ينهى عن معاونتهم والعمل لهم، حتى في البناء وكراية الأنهر، وقال في جواب من سأله عن ذلك: ما أحبّ أن أعقد لهم عقدة، أو وكيت لهم وكاء، إنّ الظلمة وأعوان الظلمة في سرادق من نار، حتى يحكم الله بين العباد.[٢٨]

نهيه عن الولاية للظالمين

وطلب منه مولى من موال جدّه علي بن الحسين (عليه السلام) أن يكلّم والي المدينة ـ وهو داود بن علي ـ أن يدخل في بعض الولايات.

فقال (عليه السلام): ماكنت لأفعل .

(٢٦) الكافي ج ٧ ص ٤١١ ح ٢. والآية ٦٠ من سورة النساء.

(٢٧) التهذيب ج ٦ ص ٢١٨ ح ٥١٥.

(٢٨) الكافي ج ٥ ص ١٠٧ ح ٧.

فظنّ الرجل أنّ امتناع الإمام (عليه السلام) كان خوفاً من أن يظلم أحداً، فحلف له بالأيمان المغلظة أنّه يعدل ولا يجور، فكان جواب الإمام (عليه السلام) أن قال له: تناول السماء أيسر عليك من ذلك [٢٩] .

وقد أشرنا من قبل إلى مواقفه ضد الحكّام وأحكامهم، وإعلانه المقاطعة لهم. وعلى هذا النهج سار أتباعه، وطبعت مدرسته بهذا الطابع.

فكانت عرضة للخطر من قبل حكام الجور، ولكنّها واصلت كفاحها في سبيل ترسيخ مبادئها وإعلاء كلمة الحقّ. وكان يحرص الحرص الشديد على إزالة الشحناء من القلوب، وبثّ روح الأخوة، فهو ينهى عن التهاجر والمقاطعة.

قال المفضل: سمعت أبا عبد الله الصادق (عليه السلام) يقول:

لا يفترق رجلان على الهجران إلاّ استوجب أحدهما البراءة واللعنة، وربّما استوجب ذلك كلاهما.

فقال له معتب: جعلت فداك هذا حال الظالم، فما بال المظلوم؟

قال (عليه السلام): لأنّه لا يدعو أخاه الى صلته، ولا يتغافل عن كلامه. سمعت أبي يقول: إذا تنازع إثنان فعاد أحدهما الآخر فليرجع المظلوم الى صاحبه حتى يقول له: أي أخي أنا الظالم. حتى يقطع الهجران بينه وبين صاحبه، فإنّ الله حكم وعدل يأخذ للمظلوم من الظالم.[٣٠]

وقال جابر بن عون : إنّ رجلاً قال لجعفر بن محمد الصادق (عليه السلام): إنّ بيني وبين قوم منازعة في أمر ، وإنّي أريد أن أتركه ، فيقال لي: إنّ تركك له ذلّة .

فقال (عليه السلام) : **إن الذليل هو الظالم .**[٣١]

حثّه على صلة الرحم

فهو (عليه السلام) يحاول أن يزيل من القلوب ضغائن الأحقاد التي تبعث على الكراهة والفرقة، وكان هو (عليه السلام) من حسن سيرته ومكارم أخلاقه انّه يصل من قطعه، ويعفو عمن أساء إليه، كما ورد أنّه وقع بينه وبين عبد الله بن الحسن كلام، فأغلظ عبد الله في القول، ثم افترقا وذهبا إلى المسجد، فالتقيا على الباب، قال الصادق (عليه السلام) لعبد الله بن الحسن: كيف أمسيت يا أبا محمد؟.

(٢٩) الكافي ج ٥ ص ١٠٧ ح ٩.
(٣٠) الكافي ج ٢ ص ٣٤٤ ح ١.
(٣١) بحار الأنوار ج ٧٥ ص ٢٠٣ ح ١.

فقال عبد الله: بخير - كما يقول المغضب - .

قال الصادق (عليه السلام): يا أبا محمد أما علمت أنّ صلة الرحم تخفف الحساب؟ ثم تلى قوله تعالى: **(وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ)**.[٣٢]

فقال عبد الله: فلا تراني بعدها قاطعاً رحماً.

وكان يقول: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): **لا تقطع رحمك وإن قطعك.**

وجاء إليه رجل فشكا أقاربه، فقال (عليه السلام): **إكظم غيظهم.** فقال الرجل إنّهم يفعلون ويفعلون. فقال (عليه السلام): **أتريد أن تكون مثلهم فلا ينظر الله إليكم!**

وقال (عليه السلام): **إنّ رجلاً أتى النبي** (صلى الله عليه وآله) **فقال: يارسول الله، إنّ لي أهلاً قد كنت أصلهم وهم يؤذوني، وقد أردت رفضهم، فقال له رسول الله** (صلى الله عليه وآله): **إنّ الله يرفضكم جميعاً.**

قل الرجل: وكيف أصنع ؟

قال (صلى الله عليه وآله): **تعطي من حرمك، وتصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك، فإذا فعلت ذلك كان الله عز وجل لك عليهم ظهيراً.**[٣٣]

فكان (عليه السلام) يصل رحمه ويبذل لهم النصح، ويدعوهم إلى ما فيه صلاح أنفسهم، وإصلاح الأوضاع التي اضطرب حبل استقامتها في عصرهم، وكان يصل فقراءهم بالليل سراً وهم لا يعرفونه، كما كان (عليه السلام) يبذل النصح لجميع المسلمين، ويدعوهم الى الالتزام بأوامر الدين.

وكان يحثّ في كثير من تعاليمه على مساعدة الضعفاء ومعاونة المعوزين، وصلة الفقراء والمساكين، ويقوم هو بنفسه بصلتهم ومعاونتهم، ويوزّع عليهم من ماله. وإذا جنّ الليل قام بصدقة السر، يطوف على بيوت الفقراء.

قال هشام بن الحكم (رحمه الله): كان أبو عبد الله الصادق (عليه السلام) إذا اعتمّ وذهب من الليل شطره، أخذ جراباً فيه خبز ولحم ودراهم فيحمله، ثم يذهب فيه إلى أهل الحاجة من أهل المدينة، فيقسمه فيهم، وهم لا يعرفونه، فلما مضى أبو عبد الله فقدوا ذلك فعلموا أنّه كان هو أبا عبد الله الصادق (عليه السلام) .[٣٤]

(٣٢) الرعد: ٢١.
(٣٣) الكافي ج ٣ ص ١٥٠ ح ٢ .
(٣٤) بحار الأنوار ج ٤٧ ص ٢٨.

حثّه على مساعدة الضعفاء وأبناء السبيل

وقال له رجل من أصحابه: جعلت فداك، بلغني أنّك تفعل في عين زياد ـ اسم ضيعة له ـ شيئاً أحبّ أن أسمعه منك.

فقال (عليه السلام): نعم كنت آمر إذا أدركت الثمرة أن يثلم في حيطانها الثلم، ليدخل الناس ويأكلوا، وكنت آمر أن يوضع عشر بنيات يقعد على كلّ بنية عشرة، كلما أكل عشرة جاء عشرة أُخرى، يلقى لكل نفس منهم مد من رطب، وكنت آمر لجيران الضيعة كلّهم : الشيخ والعجوز والمريض والصبي والمرأة، ومن لا يقدر، أن يجيء فيكون لكلّ إنسان مدٌّ، فإذا أوفيت القوّام والوكلاء أجرتهم أحمل الباقي إلى المدينة، ففرّقت في أهل البيوت والمستحقّين على قدر استحقاقهم، وحصل لي بعد ذلك أربعمائة دينار ، وكانت غلتها أربعة آلاف.[٣٥]

وقال مصادف: كنت مع أبي عبد الله (عليه السلام) ما بين مكة والمدينة فمررنا على رجل في أصل شجرة، وقد ألقى بنفسه، فقال (عليه السلام): مل بنا إلى هذا الرجل، فإنّي أخاف أن يكون قد أصابه العطش، فملنا إليه فإذا هو رجل من النصارى طويل الشعر، فسأله الإمام: **أعطشان أنت؟** فقال: نعم.

فقال الإمام: **إنزل يا مصادف فاسقه**. فنزلت وسقيته ثم ركب وسرنا.

فقلت له: هذا نصراني، أفتتصدق على نصراني؟

فقال: **نعم. إذا كانوا بمثل هذه الحالة.**[٣٦]

ولشدّة اهتمامه بمساعدة الضعفاء، وقضاء حوائج المؤمنين، كان يرى (عليه السلام)أنّ الإعراض عن المؤمن المحتاج للمساعدة استخفاف به، والاستخفاف بالمؤمن استخفاف بهم(عليهم السلام). وجاء ذلك موضّحاً في قوله، وقد كان عنده جماعة من اصحابه: مالكم تستخفون بنا؟ فقام إليه رجل من أهل خراسان فقال: معاذ الله أن نستخفّ بك أو بشيء من أمرك.

فقال (عليه السلام): **إنّك أحد من استخف بي.**

فقال الرجل: معاذ الله أن أستخفّ بك.

(٣٥) الكافي ج ٣ ص ٥٦٩ ح ٢ .

(٣٦) الكافي ج ٤ ص ٥٧ ح ٤.

فقال له (عليه السلام): **ويحك ألم تسمع فلاناً ونحن بقرب الجحفة، وهو يقول لك: احملني قدر ميل فقد والله أعييت، فو الله ما رفعت له رأساً، لقد استخففت به، ومن استخف بمؤمن فبنا استخف، وضيّع حرمة الله عز وجل .**[٣٧]

وقال صفوان الجمال: دخلت على ابي عبد الله الصادق (عليه السلام) فدخل عليه رجل من أهل مكة - يقال له ميمون - فشكى إليه تعذر الكراء عليه.

فقال (عليه السلام): **قم فأعن أخاك**. فقمت معه فيسّر الله كراه، فرجعت إلى مجلسي، فقال أبو عبد الله: **ما صنعت في حاجة أخيك؟**

فقلت: قضاها الله: بأبي أنت وأمي.

فقال (عليه السلام): **أما إنّك إن تُعِن أخاك المسلم أحبّ إلي من طواف أسبوع في البيت.**[٣٨]

ودخل عليه عمار الساباطي، فقال له: **ياعمار، إنّك ربّ مال كثير فتؤدي ما افترض الله عليك من الزكاة؟**

قال: نعم .

قال (عليه السلام): **فتخرج الحقّ المعلوم من مالك ؟**

قال: نعم .

قال (عليه السلام): **فتصل قرابتك؟**

قال: نعم .

قال: **فتصل اخوانك؟**

قال: نعم.

قال (عليه السلام): **ياعمار، إنّ المال يفنى، والبدن يبلى، والعمل يبقى والديّان حي لا يموت.**

ياعمار، ما قدمت فلم يسبقك، وما أخرت فلن يلحقك.[٣٩]

وقال المفضل بن قيس: دخلت على أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) فشكوت إليه بعض حالي، وسألته الدعاء فقال: **يا جارية هاتي الكيس**، فجاءت بكيس فقال: **هذا كيس فيه اربعمائة دينار فاستعن به.**

قال المفضل: فقلت لا والله ما أردت هذا ولكن أردت الدعاء لي.

فقال لي (عليه السلام): **ولا أدع الدعاء ولكنّ لا تخبر الناس بكل ما أنت فيه فتهون عليهم.**[٤٠]

(٣٧) وسائل الشيعة ج ١٢ ص ٢٧٢، أبواب أحكام العشرة ب ١٤٨ ح ١.
(٣٨) الكافي ج ٢ ص ١٩٨ ح ٩.
(٣٩) الكافي ج ٤ ص ٢٧ ح ٧ .
(٤٠) الكشيص ١٢١.

وقال الشقراني - مولى رسول الله -: خرج العطاء أيام المنصور، فوقفت على الباب متحيراً، وإذا بجعفر بن محمد قد أقبل، فذكرت له حاجتي، فدخل ثم خرج وإذا بعطائي في كمّه وناولني إياه وقال: **إنّ الحسن من كلّ أحد حسن وإنّه منك أحسن، وإنّ القبيح من كلّ أحد قبيح، وإنه منك أقبح لمكانك منا**[٤١].

قال ابن الجوزي: وإنّما قال له جعفر ذلك لأنّ الشقراني كان يشرب الشراب، فمن مكارم أخلاق جعفر أنّه رحّب به وقضى حاجته، مع علمه بحاله ووعظه على وجه التعريض، وهذا من أخلاق الأنبياء.[٤٢]

وقال يوماً لبعض أصحابه: **ما بال أخيك يشكوك؟!**

فقال: يشكوني إذ استقصيت عليه حقّي.

فجلس الإمام مغضباً وقال: **كأنّك إذا استقصيت عليه حقّك لم تسيء؟ أرأيت ما حكى الله عن قوم يخافون سوء الحساب؟ أخافوا أن يجور عليهم؟ لا. ولكنّ خافوا الاستقصاء فسمّاه الله سوء الحساب فمن استقصى فقد أساء.**[٤٣]

قال زرارة: قلت لأبي عبد الله: إنّ لي على رجل ديناً وقد أراد أن يبيع داره فيعطيني.

فقال الصادق (عليه السلام): **أعيذك بالله أن تخرجه من ظلّ رأسه، أعيذك بالله أن تخرجه من ظلّ رأسه.**[٤٤]

وكان يسأل القادمين عليه من أصحابه عن معاونة بعضهم بعضاً. قال محمد بن زيد الشحام : رآني أبو عبد الله وأنا أُصلّي فأرسل ودعاني، فقال لي: **من أين أنت؟** قلت: من الكوفة، فقال: **من تعرف من الكوفة**. فذكرت له رجلين.

قال: وكيف صنيعهما إليك. قلت: وما أحسن صنيعهما إليّ. فقال (عليه السلام): **خير المسلمين من وصل وأعان ونفع. ما بتّ ليلة قط وفي مالي حقّ يسألنيه الله تعالى ثم قال: أيّ شيء معك من النفقة؟** قلت: عندي مائتا درهم. قال: **أرنيها**. فأتيته، فزاد فيها ثلاثين درهماً ودينارين، ثم قال (عليه السلام) **تعشّ عندي**. فتعشيت عنده.

قال زيد: فلما كان من السنة القابلة لم أذهب إليه، فأرسل إليّ فدعاني، فقال (عليه السلام): **ما لك لم تأتني البارحة؟**

قلت: **لم يأتني رسولك**. فقال (عليه السلام) **فأنا رسول نفسي إليك ما دمت مقيماً في هذه المدة.**

(٤١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٨ ص٢٠٥ .
(٤٢) تذكرة الخواص ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .
(٤٣) الكافي ج ٥ ص ١٠٠ ح ١.
(٤٤) الكافي ج ٥ ص ٩٧ ح ٨.

قال زيد: فقلت له علمني دعاء. قال: **أكتب. بسم الله الرحمن الرحيم. يامن أرجوه لكلّ خير، وآمن سخطه عند كلّ عثرة، يامن يعطي الكثير بالقليل، ويامن يعطي من سأله تحنناً منه ورحمة، ويامن أعطى من لم يسأله ومن لم يعرفه، صَلِّ على محمد وأهل بيته، واعطني بمسألتي إياك خير الدنيا وجميع خير الآخرة، فإنه غير منقوص ما أعطيت وزدني من سعة فضلك ياكريم.**

ثم رفع يده فقال: **يا ذا المن والطول، يا ذا الجلال والاكرام، يا ذا النعماء والجود، إرحم شيبتي من النار.**

ثم وضع يديه على لحيته، ولم يرفعهما، حتى امتلأ كفه دموعاً.(٤٥)

وقال مصادف : كنت عند أبي عبد الله الصادق فدخل رجل فسلّم عليه، فسأله الإمام: **كيف من خلفت من اخوانك؟** فأجاب الرجل وأحسن الثناء وأطراهم. فسأله الإمام: **كيف عيادة أغنيائهم على فقرائهم؟**

فقال الرجل : قليلة.

قال الإمام : **كيف مساعدة أغنيائهم لفقرائهم؟**

فقال الرجل: قليلة.

قال الإمام: **كيف صلة أغنيائهم لفقرائهم في ذات أيديهم؟**

فقال الرجل: إنّك تذكر أخلاقاً قلّ ماهي فيمن عندنا.

قال الإمام: **فكيف يزعم هؤلاء أنّهم شيعتنا؟** (٤٦)

قال إسحاق بن عمار: دخلت على أبي عبد الله الصادق. فنظر إليّ بوجه قاطب، فقلت: ماالذي غيّرك لي؟

قال (عليه السلام): **الذي غيّرك لإخوانك، بلغني يا إسحاق أنّك أقعدت ببابك بواباً يرد عنك الفقراء.**

فقلت: جعلت فداك إنّي خفت الشهرة.

فقال (عليه السلام): **ألا خفت البلية.**(٤٧)

قال إسحاق بن إبراهيم: كنت عند أبي عبد الله الصادق (عليه السلام)، إذ دخل عليه رجل من خراسان فقال: يا ابن رسول الله، أنا من مواليكم، وبيني وبينكم شقّة بعيدة، وقد قلّ ذات يدي، ولا أقدر أن أتوجّه إلى أهلي الا أن تعينوني، فنظر أبو عبد الله وقال: **أما تسمعون ما يقول أخوكم ؟**

إنّما المعروف ابتداء، فأمّا ما أعطيت بعد ما سأل إنّما هو مكافأة لما بذل من ماء وجهه، أفيبيت ليلته متأرقاً متململاً بين اليأس والرجاء، لا يدري أين يتوجه بحاجته، فيعزم على القصد إليك، فأتاك

(٤٥) بحار الأنوار ج ٤٧ ص ٣٦ ح٣٥.
(٤٦) الكافي ج ٢ ص ١٧٣ ح ١٠.
(٤٧) الكافي ج ٢ ص ١٨١ ح ١٤.

وقلبه يجب، وفرائصه ترتعد، وقد نزل دمه في وجهه، وبعد هذا فلا يدري أينصرف من عندك بكآبة الرد، أم بسرور النجح، فإن أعطيته رأيت أنك قد وصلته، وقد قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) :

«والذي فلق الحبّ، وبرأ النسمة، وبعثني بالحقّ نبياً، لما يتجشم من مسألته إياك أعظم ممّا ناله من معروفك».

قال اسحاق: فجمعوا له خمسمائة درهم ودفعوها إليه.(٤٨)

وكان (عليه السلام) يوجّه المجتمع بتعاليمه إلى جميع مهمات الحياة، ويحثّ الإنسان على عزّة النفس وعدم الإهانة لها فيقول: **إنّ الله فوّض إلى المؤمن أموره كلّها، ولم يفوّض إليه أن يكون ذليلاً، أما تسمع قول الله تعالى (وَلِلَّهِ ا لْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)(٤٩)فالمؤمن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلاً، إنّ المؤمن أعزّ من الجبل، الجبل يستقلّ منه بالمعاول، والمؤمن لا يستقلّ من دينه شيء.**

حثّه على العمل وطلب الرزق الحلال

وقد حثّ (عليه السلام) في جملة من تعاليمه على طلب المال من حلّه، ويدعو أصحابه إلى التكسّب في الأسواق، ويجعل ذلك عزّاً للإنسان.

يقول المعلى بن خنيس: رآني أبو عبد الله (عليه السلام) وقد تأخرت عن السوق، فقال لي: **أغدُ إلى عزك .**(٥٠)

وقال لآخر - وقد ترك غدوه إلى السوق - : **ما لي أراك وقد تركت غدوك إلى عزك؟**(٥١)

فهو (عليه السلام) يدعو لكسب المال من حلّه لينال المرء عزّة في نفسه، ولا يكون كَلاً على الناس فيهان.

ولقد أخبر عن رجل قال: لأقعدنّ ولأصلينّ، ولأصومنّ ولأعبدنّ الله، فأمّا رزقي فيأتيني.

قال (عليه السلام): **هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم.**

وقال له رجل: إنّا لنطلب الدنيا ونحبّ أن نؤتاها.

قال (عليه السلام): **ماذا تحبّ أن تصنع بها.**

(٤٨) بحار الأنوار ج ٤٧ ص٦١ - ٦٢ / ١١٨.
(٤٩) المنافقون : ٨.
(٥٠) وسائل الشيعة ج ١٧ ص ١٠، ب ١ من أبواب مقدمات التجارة ح ٢.
(٥١) التهذيب ج ٧ ص ٤ ح ١٢.

فقال الرجل: أوسّع بها على نفسي وعيالي، وأصل بها قرابتي، وأتصدّق وأحج، و أعتمر.

فقال أبو عبد الله (عليه السلام): **ليس هذا طلب الدنيا، هذا طلب الآخرة .**[٥٢]

وكان هو بنفسه يطلب الرزق الحلال.

قال أبو عمر الشيباني: رأيت أبا عبد الله الصادق وبيده مسحاة يعمل في حائط له والعرق يتصبّب، فقلت: جعلت فداك أعطني أكفك.

فقال لي: **إني أحبّ أن يتأذّى الرجل بحر الشمس في طلب المعيشة.**[٥٣]

وقال المفضل بن قرة: دخلنا على أبي عبد الله في حائط له - أي بستان - وبيده مسحاة يفتح بها الماء وعليه قميص، وكان يقول: **إنّي لأعمل في بعض ضياعي، وإن لي من يكفيني ليعلم الله أنّي أطلب الرزق الحلال .**[٥٤]

وخرج (عليه السلام) في يوم صائف شديد الحرّ، فاستقبله عبد الأعلى - مولى آل سام - في بعض طرق المدينة، فقال له: يابن رسول الله، حالك عند الله عزّ وجلّ وقرابتك من رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأنت تجهد نفسك في مثل هذا اليوم!

فقال (عليه السلام): **يا عبد الأعلى خرجت في طلب الرزق لأستغني عن مثلك.**[٥٥]

نبذ من أعماله وأقواله

فهو (عليه السلام) يعلّم الناس قولاً وعملاً; لأنّه ناصح مرشد بأقواله وأفعاله يدعو الى الخير ويهدي إلى سبيل الرشاد. بلغه عن رجل من أصحابه أنّه وقع بينه وبين أمّه كلام، فأغلظ لها، فلما دخل عليه من الغد ابتدأه قائلاً :

يامهزم مالك وخالدة - اسم أمّه - **أغلظت في كلامها البارحة، أما علمت أنّ بطنها منزل قد سكنته، وأنّ حجرها مهد قد عمرته، وأنّ ثديها وعاء قد شربته؟** فقال. بلى، قال(عليه السلام) **فلا تغلظ لها .**[٥٦]

ودخل عليه صالح بن سهل - وكان يذهب مذهب الغلاة - فلما نظر إليه «قال: **ياصالح، إنّا والله عبيد مخلوقون لنا ربّ نعبده. وإن لم نعبده عذبنا.** فترك صالح ما كان يذهب إليه .[٥٧]

(٥٢) الكافي ج ٥ ص ٧٢ ح ١٠ .
(٥٣) الكافي ج ٥ ص ٧٦ ح ١٣.
(٥٤) الكافي ج ٥ ص ٧٧ ح ١٥.
(٥٥) الكافي ج ٥ ص ٧٤ ح ٣.
(٥٦) بصائر الدرجات ص ٢٤٣ ح ٣.
(٥٧) بحار الأنوار ج ٤٧ ص ١٢٥.

وكان عبد العزيز القزّار ممّن يذهب لهذا المذهب، فلمّا دخل على الإمام(عليه السلام)قال له: **يا عبد العزيز ضع لي ماء أتوضأ به.**

قال عبد العزيز: ففعلت. فلما دخل قلت في نفسي : هذا الذي قلت فيه ما قلت!

فلمّا خرج قال (عليه السلام): **يا عبد العزيز، لا تحمل البناء فوق ما لا يطيق. إنّا عبيد مخلوقون.**[٥٨]

وهكذا كان (عليه السلام) يرشد للحقّ ويدعو الى سبيل الرشاد ويعظ جلساءه. ويوجه بأقواله وأعماله من شدّ عن الطريق السويّ، ويعلن براءته ممّا يدعى فيهم من الغلوّ، ويقول أمام الملأ: إنّا عبيد مخلوقون لربّ إن عصيناه عذبنا.

وكان مجلسه يكتظّ بمختلف الطبقات، من علماء الفرق وأهل الآراء فهو يلقي عليهم دروساً توجيهية بأقواله وأفعاله.

قال سدير الصيرفي: كنت أنا وأبو بصير ويحيى البزاز في مجلس أبي عبد الله، إذ خرج إلينا وهو مغضب فلما أخذ مجلسه، قال :

ياعجباً لأقوام يزعمون أنا نعلم الغيب، ما يعلم الغيب إلاّ الله عزّ وجل، لقد هممت بضرب جاريتي فلانة، فهربت مني فما علمت في أيّ بيت من الدار هي.[٥٩]

فهو بهذا يرد مزاعم أولئك المنحرفين عن منهج أهل البيت(عليهم السلام)ويدّعون حبّهم، ويزعمون أنّهم يُوحى إليهم، وأنّهم يعلمون الغيب الذي هو لله وحده، فأوضح (عليه السلام) لجلسائه بطلان هذه المزاعم ليحملوا ذلك عنه، وينشروه في البلاد النائية، لأنه شديد الاهتمام بأمر الغلاة، وإعلان الحرب عليهم، وهم ليسوا من شعيته، وإنّما هم أعداء له، يريدون الإساءة له والوقيعة في أتباعه.

وسأله رجل من جلسائه فقال: إنّ قوماً من مواليكم يلمون بالمعاصي ويقولون: نرجو.

فقال (عليه السلام): **كذبوا ليسوا لنا بموال، أولئك قوم ترجّحت بهم الأماني. من رجا شيئاً عمل له، ومن خاف شيئاً هرب منه .**[٦٠]

وكما قلنا إنّ مجلسه كان مكتظّاً بمختلف الطبقات، من روّاد العلم وحملة الحديث، وكان سفيان الثوري - وهو أحد أعلام الأمة ومن رؤساء المذاهب البائدة يكثر التردد عليه ويطلب منه الموعظة والتوجيه.

(٥٨) بحار الأنوار ج ٤٧ ص ١٠٧ ح١٣٦.
(٥٩) الكافي ج ١ ص ٢٥٧ ح ٣.
(٦٠) الكافي ج ٢ ص ٦٨ ح ٥ .

ويحدثنا سفيان: أنّه دخل على الإمام الصادق (عليه السلام) وكان عليه جبّة خز دكناء قال سفيان: فجعلت أنظر إليها متعجباً.

فقال لي: **ياثوري، ما لك تنظر إلينا، لعلّك ممّا رأيت؟**

قال فقلت: يابن رسول الله، ليس هذا من لباسك ولا لباس آبائك. فقال لي: **ياثوري، كان ذلك الزمان مقفراً مقتراً**، ثم حسر عن ردن جبّته، وإذا تحتها جبّة صوف بيضاء، وقال: **ياثوري لبسنا هذا لله** - وأشار إلى جبّة الصوف - **وهذا لكم** - وأشار الى الخز - **فما كان لله أخفيناه، وما كان لكم أبديناه.**(٦١)

وكان (عليه السلام) يؤوي الضيف ويدعو الغرباء إلى ضيافته ويكرمهم، ومن حسن أخلاقه لا يودّ أن يسارع الضيف في رحلته، ويمنع خدمه من المعاونة لهم في رحلتهم، وهذا من مفاخر العرب، ولهم فيه أشعار كثيرة، وعندما يسأله ضيوفه عن سبب ذلك يقول: **إنّا أهل بيت لا نعين أضيافنا على الرحلة من عندنا.**

كما أنّه يبذل الطعام ويدعو إلى بذله. وسأله محمد بن قيس فقال: إنّي لا أتغدّى ولا أتعشّى إلاّ ومعي إثنان أو ثلاثة أو أكثر.

فقال (عليه السلام): **فضلهم عليك أكثر من فضلك عليهم.**

فقال محمد: جعلت فداك كيف ! وأنا أطعمهم طعامي، وأنفق عليهم، ويخدمهم خادمي.

فقال (عليه السلام): **إذا دخلوا عليك دخلوا بالرزق الكثير، وإذا خرجوا خرجوا بالمغفرة.**

وقال رجل من الجالسين عنده: إنّ المنصور مذ صارت الخلافة إليه لا يلبس إلا الخشن، ولا يأكلّ إلا الجشب.

فقال (عليه السلام): **ياويحه! مع ما مكن الله له من سلطان.**

فقيل: إنّما يفعل ذلك بخلاً وجمعاً للأموال.

فقال (عليه السلام): **الحمد لله الذي حرمه من دنياه ماله مع دينه.** ولمّا أحضره المنصور في مجلسه وقع الذباب على وجه المنصور حتى ضجر، فقال المنصور: يا أبا عبد الله، لم خلق الله الذباب ؟

فقال (عليه السلام): **ليذلّ به الجبارين.** فوجم لقوله .(٦٢)

وقد أدب أصحابه بآداب الإسلام، في جمع الكلمة وعدم الفرقة، وحسن الصحبة لمن يصحبونه.

(٦١) حلية الأولياء ج ٣ ص ١٩٣.

(٦٢) تذكرة الخواص ص ٣٤٣ .

قال أبو بصير: سمعت أبا عبد الله الصادق (عليه السلام) يقول: **اتقوا الله وعليكم بالطاعة لأئمتكم، قولوا ما يقولون، واصمتوا عمّا صمتوا فإنّكم في سلطان من قال الله تعالى (وإن كانَ مكرُهُم لِتزُولَ مِنه الجبالُ). فاتقوا الله فإنّكم في هدنة، صلّوا في عشائرهم، واشهدوا جنائزهم، وأدوا الأمانة إليهم، وعليكم بحجّ البيت، فإنّ في إدمانكم الحج دفع مكاره الدنيا عنكم، وأهوال يوم القيامة.**(٦٣)

وقال أبو ربيع الشامي: دخلت على أبي عبد الله (عليه السلام) والبيت غاص، فيه الخراساني والشامي ومن أهل الآفاق، فلم أجد موضعاً أقعد فيه، فجلس أبو عبد الله وكان متّكئاً ثم قال: **ياشيعة آل محمد، إنّه ليس منا من لم يملك نفسه عند غضبه، ومن لم يحسن صحبة من صحبه، ومخالقة من خالقه، ومرافقة من رافقه، ياشيعة آل محمد، اتقوا الله ما استطعتم، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العظيم.**(٦٤)

وقال (عليه السلام) للمفضل: **من صحبك؟** قال رجل من اخواني قال (عليه السلام) **فما فعل؟** قال المفضل منذ دخلت المدينة لم أعرف مكانه، فقال لي: **أما علمت أنّ من صحب مؤمناً أربعين خطوة سأله الله عنه يوم القيامة.**(٦٥)

وبعث الإمام الصادق (عليه السلام) غلاماً له في حاجة، فأبطأ الغلام، فخرج على أثره فوجده نائماً، فجلس عند رأسه يروحه فانتبه، فقال له الإمام (عليه السلام): **والله ماذلك لك، تنام الليل والنهار! لك الليل ولنا منك النهار .**(٦٦)

ودخل عليه رجل فقال: يابن رسول الله أخبرني بمكارم الأخلاق. فقال (عليه السلام): **هي العفو عمّن ظلمك، وصلة من قطعك، وإعطاء من حرمك.**(٦٧)

وقال يوماً لأصحابه: إنّا لنحبّ من كان عاقلاً، فهماً، حليماً، مداريا صبوراً، صدوقاً، وفيّاً. إن الله بأن خصّ الأنبياء بمكارم الأخلاق، فمن كانت فيه فليحمد الله على ذلك، ومن لم تكن فيه فليتضرّع إلى الله عزّ وجل، وليسأله إياها.

فقال له ابن بكير: جعلت فداك وما هن؟

قال (عليه السلام): **هن الورع والقناعة والصبر والشكر والحلم والحياء والسخاء والشجاعة والغيرة، والبر وأداء الأمانة.**(٦٨)

وهكذا كان (عليه السلام)، يلقي على الناس نصائحه ويغتنم الفرص في التوجيه والإرشاد، لما فيه صلاح أنفسهم، وبذلك يصلح المجتمع، فهو (عليه السلام)طول حياته

(٦٣) بحار الأنوار ج ٧١ ص ١٦٧ / ٣٣ .
(٦٤) الكافي ج ٢ ص ٤٦٥ ح ٢.
(٦٥) أمالي الطوسي ج ٢ ص ٢٧ .
(٦٦) الكافي ج ٨ ص ٨٧.
(٦٧) الكافي ج ٢ ص ١٠٧ ح ٢ .
(٦٨) بحار الأنوار ج ٧٥ ص ٢٤٥ ح ٥٦ .

يهدي إلى الخير، ويدعو الى سبيل الرشاد، في امتثال أوامر الله، والوقوف عند نواهيه.

وقد بذل جهده (عليه السلام) في بذل النصح لجميع المسلمين لينتصر المجتمع الاسلامي على ميوله ونزعاته، عندما تهذّب النفوس من أدران الرذائل، وتتحوّل عن شهواتها.

ولم يترك طريقا للنصح إلاّ سلكه في أقواله وأفعاله، ولم يدع باباً للتوجيه إلاّ سلكه، ويدفع بالناس الى التحلّي بفضائل الأعمال، ويحثّ على الورع والتقوى، والاجتهاد في الطاعة، والألفة والمحبّة والتعاون، ومناصرة المظلوم والوقوف في وجه الظالم، وأخذ الحقّ للضعيف من القوي، وقال غير مرة: **ما قدّست أمة لم تأخذ لضعيفها من قويّها بحقّه**.[٦٩]

كما أنّه (عليه السلام) كان يوصي من يريد السفر من أصحابه، أو الوفود القادمين عليه من البلاد النائية بالمروة، ثم يشرحها لهم بقوله : **هي كثرة الزاد وطيبه، وبذله لمن كان معك، وكتمانك على القوم بعد مفارقتك إياهم، وكثرة المزاح في غير ما يسخط الله**، ثم يقول: **والذي بعث جدي رسول الله**(صلى الله عليه وآله) **بالحقّ نبياً، إنّ الله عز وجل يرزق العبد على قدر المروة، وإن المعونة تنزل على قدر المؤونة، وإنّ الصبر ينزل على قدر شدّة البلاء**[٧٠].

ويوصيهم بعد ذلك بما أوصى لقمان ابنه اذ يقول: «**إذا سافرت مع قوم فأكثر استشارتهم في أمرك وأمورهم، وأكثر التبسّم في وجوههم، وكن كريماً على زادك بينهم، وإذا دعوك فأجبهم، وإذا استعانوا بك فأعنهم، واستعمل طول الصمت، وكثرة الصلاة وسخاء النفس بما معك من دابة أو ماء او زاد، واذا استشهدت على الحقّ فاشهد لهم، وأجهد رأيك إذا استشاروك ولا تجب في مشورة حتى تقوم بها، فإن من لم يمحض النصيحة لمن استشاره; سلبه الله رأيه ونزع عنه الأمانة.**

وإذا رأيت أصحابك يمشون فامش معهم، وإذا رأيتهم يعملون فاعمل معهم، وإن تصدقوا أو اعطوا قرضاً فاعط معهم، واسمع لمن هو أكبر منك سناً، وإذا أمروك بأمر أو سألوك شيئاً فقل نعم ولا تقل لا، فإن لا عيٌّ ولؤم، وإذا تحيرتم في الطريق فانزلوا، وإذا شككتم في الأمر فقفوا وتوامروا، وإذا رأيتم شخصاً واحداً فلا تسألوه ولا تسترشدوه، فإنّ الشخص الواحد في الفلاة مريب، لعلّه أن يكون عين اللصوص»... الخ .[٧١]

حول أخطاء بعض الكتاب

(٦٩) انظر بحار الأنوار ج ٧٢ ص ٣٥٣ .

(٧٠) بحار الأنوار ج ٧٣ ص ٢٧٣ ح٢٧٤، مكارم الأخلاق ص ٢٩١.

(٧١) المحاسن ص ٣١٠ ح ١٤٥.

هذه لمحة موجزة ونظرة خاطفة لبعض سيرته في حياته التي قضاها في الدعوة الى سبيل الخير، قائداً روحياً يوجه المجتمع الى مايسعده، وقد رأينا كيف كان في منهجه مع ولاة عصره، فهو لم يكن مسالماً لهم، ولا مبرراً أعمالهم. ومن الخطأ في الرأي ما يذهب إليه بعض الكتاب من أنّ الصادق (عليه السلام)كان مسالماً يقعد عن نصرة أبناء عمّه، كما يقول الأستاذ أمين الخولي :

«إنّ الصادق - كما تشهد حياته - مسالم أو مسرف في المسالمة، يقعد عن نصرة أبناء عمّه، فقد خرج ابن عمّه محمد بن عبد الله بن حسين بالمدينة، فهرب هو حتى قتل محمد، فلمّا قتل واطمأنّ الناس وأمنوا رجع الى المدينة، وذلك أقصى المسالمة، أو هو يصل إلى شيء وراء المسالمة قد ينتقد».(٧٢)

هذا ما يقوله الأستاذ الخولي. ولم يكن هو أول من يسهم في تجاهل الحقائق والحكم على الشيء قبل معرفته، فهناك الكثير ممّن حاولوا أن يلصقوا بأهل البيت وصمات الانتقاد نتيجة للتعصّب، أو لضيق أفق المعرفة أمامهم، فتاهوا في بيداء التخبّط والتعثر، عندما ركضوا في طريق الانحراف عن الواقع.

وأنّ مثل هذا القول يرينا الى أيّ حد بلغ التأثر بأفكار المنحرفين عن الواقع، فلم يتجاوزوا في كتاباتهم عن أهل البيت(عليهم السلام)حدود الخطّة التي رسمتها لهم أقلام منحرفة، وآراء شاذّة.

الدعوة العباسية

أشرنا سابقاً الى سوء معاملة الأمويين، واجحافهم بحقّ الرعية، وظلمهم الذي لم يسلم منه أحد حتى الشيخ في محرابه، والطفل في مهده، فعمّ الاستياء جميع الطبقات، وساد الاضطراب جميع أنحاء المملكة، وقد وصف الشاعر الجعدي تلك الحالة السيئة بقوله :

والناس في كربة يكاد لها *** تنبذ أولادها حواملها

فكان الوضع السيّء يفسح المجال للثورة، وأيّ دعوة الى الخلاص من تلك المحن وويلاتها تلقى قبولاً، وقد قامت الجمعيات السرية للدعوة الى الرضا من آل محمد (صلى الله عليه وآله) ونالت النجاح بسرعة مدهشة حتى قضي على الدولة الأموية، وقامت على أطلالها الدولة العباسية.

(٧٢) مالك بن أنس لأمين الخولي ص ٩٢.

وإذا أردنا أن نستنطق الحوادث، ونبحث عن العوامل التي أدّت الى نجاحهم، فإنّا لم نجد لهم في أول الأمر أيّ نشاط يذكر، ولا يؤمل لهم النجاح بالدعوة والفوز في ميدان الكفاح السياسي.

إذن كيف بدأت الدعوة وماهي أسباب طمعهم بالخلافة؟ وأيّ أسلوب أتّخذوه لجلب القلوب؟ هذه أسئلة تجيب عليها الحوادث، فلنعرض ذلك بموجز من البيان.

كان محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية[٧٣] يعتقد بعض الناس فيه أنّه هو الإمام بعد أخيه الحسين بن علي (عليه السلام)، وأنّه صاحب الدولة المبشّر بها.

فلمّا مات محمد بن علي أوصى إلى ابنه أبي هاشم، وكان أبو هاشم، واسمه عبدالله، من رجالات أهل البيت البارزين، فاتّفق أنّه قصد هشام بن عبد الملك وافداً فوصله هشام، ثم رأى من فصاحته ورئاسته ماحسده عليه، وخاف منه، فبعث إليه من سمّه في الطريق، فلما علم أبو هاشم بذلك، عدل إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، فأعلمه أنّه ميت، وأوصى إليه، وكان معه جماعة من أصحابه فأوصاه فيهم، وذلك سنة (٩٩ هـ).

وكانت هذه الوصية بذرة طمع وبارقة أمل، فهوس محمد بن علي بن عبد الله منذ يؤمئذ بالخلافة، وشرع في بثّ الدعاة سراً، ومازال الأمر كذلك حتى مات سنة (١٢٥ هـ) وخلف أولاده وهم جماعة، منهم: إبراهيم المعروف بالإمام والسفاح والمنصور.[٧٤]

فقام إبراهيم بالدعوة، وأخذ يتحدّث مع المنكوبين في آلامهم، ويشاركهم في التأثر ويعطف على المظلومين، ويلعن الظالمين، والناس يندفعون وراء من يشاركهم آلامهم، ويميلون لمن يأملون الخلاص على يده من الظالمين.

انتشر دعاة ابراهيم في بلاد خراسان، وهم من الرجال الذين لهم الأثر هناك، منهم زياد مولى همدان، وحرب بن قيس، وسليمان بن كثير ومالك بن الهيثم وغيرهم، فبعضهم قتلوا في سبيل الدعوة، ومثل ببعضهم وحبس البعض الآخر [٧٥] ومازال الأمر يتفاقم والناس تتقبل هذه الدعوة.

(٧٣) هو أبو القاسم محمد بن علي بن أبي طالب، كان من سادات قريش وشجعانهم المشهورين وأقويائهم المعروفين، أمه خولة بنت جعفر بن قيس من بني حنيفة، روى الحديث عن أبيه علي، وخرّج حديثه أصحاب الصحاح الستة، توفي سنة (٨٠ هـ) أو (٨١ هـ)، ودفن بالبقيع.

(٧٤) الآداب السلطانية ص ١٢٧.

(٧٥) تاريخ ابن الساعي ص ٣ .

والجدير بالذكر أنّ الدعوة كانت على جانب كبير من الغموض والتكتّم باسم الخليفة، وأنّ الشخص الذي يبايعه الناس لايعرفه إلاّ الدعاة، والعامة تبايع الى الرضا من آل محمد.

وكان في طليعة الدعاة نشاطاً وقوّة ودهاء أبو مسلم الخراساني، وقد ولاه ابراهيم الإمام على خراسان وجعله قائداً لتلك الحركة وذلك سنة (١٢٨ هـ).

وقد عرف أبو مسلم الخراساني بالدهاء والمهارة الحربية، وكان يبذر بذور الشقاق بين جنود الأمويين، ليحصل الانقسام بينهم، وقد استفاد بذلك ونجح في مهمته، فقد انجفل الناس من هراة، والطالقان، ومرو، وبلخ، وتوافروا جميعاً مسودين الثياب، وأنصاف الخشب التي كانت معهم.(٧٦)

وكان السواد هو شعار الدعوة العباسية جعلوه علامة حزن لما نال أهل البيت (عليهم السلام) في العهد الأموي من القتل والتشريد.

أساليب الدعوة

تولّى الدعاة نشر الدعوة بكلّ نشاط، وتجاوب الناس لقبولها، وكانت الأساليب تستهوي النفوس، وتثير الشعور، وأهمّها أنّ الثورة إنّما تقوم على التنظيم ورعاية مصالح الأمة، والانتصار للعدالة المفقودة والحقّ الضائع، وأنّ الخليفة هو من أهل البيت(عليهم السلام)ومن عترة محمد وورثته، وناهيك ما لأهل البيت من أثر في النفوس، ووقع في القلوب، لأنّهم أهل العدل وحماة الدين.

كان الدعاة يلقون على الناس العبارات التالية :

هل فيكم أحد يشكّ أنّ الله عز وجل بعث محمداً واصطفاه؟ قالوا: لا. أفتشكون أنّ الله أنزل عليه كتابه فيه حلاله وحرامه وشرائعه؟ قالوا: لا.

أفتظنونه خلفه عند غير عترته وأهل بيته؟ قالوا: لا .

أفتشكون أنّ أهل البيت معدن العلم وأصحاب ميراث رسول الله؟ الذي علمه الله. قالوا: لا .(٧٧)

وعندما يسمع الناس هذه العبارات المعبّرة عن أمانيهم في تحقيق سعادتهم تحت ظلّ دولة تكفل لهم القضاء على آلامهم، وتضمن تحقيق آمالهم بالعمل على إزالة كابوس ذلك الحكم الجائر. يزداد نشاطهم ويكثر حماسهم.

(٧٦) الدينوري ص ٣٦٠.

(٧٧) الكامل لابن الأثير ج ٥ ص ١٧.

ومن الأساليب التي أتخذت لنجاح الدعوة هو الشعار الأسود الذي يعبّر عن محاربة الضلالة، أو إظهار الحزن والحداد على أهل البيت(عليهم السلام)، الذين قامت الدعوة باسمهم للانتقام من الأمويين على ما إرتكبوه منهم، بدون مراقبة لله ولا احترام لرسوله. وقد أرسل إبراهيم الإمام لواء يدعى الظل أو السحاب على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعاً، وكتب إلى أبي مسلم إنّي قد بعثت إليك براية النصر(٧٨). وقد تأوّلوا الظل أو السحاب: أنّ السحاب يطبق الأرض وكما أنّ الأرض لا تخلو من الظل كذلك لا تخلو من خليفة عبّاسي(٧٩). وإنّ ذلك اللواء يمثّل لواء رسول الله، لأنّهم ذكروا أنّ لواءه في حروبه وغزواته كان أسود.

على أنّ للتنبؤات وكشف حجب الغيب عن المستقبل أثراً في نشاط الدعوة، واندفاع المنظمين إليها، وقد جرى على الألسن من تلك النبوءات:«ع» بن «ع» بن «ع» سيقتل «م» بن «م» بن «م» وتأولوا أنّ المراد بالأول هو عبد الله بن على بن عبد الله بن العباس، والثاني هو مروان بن محمدبن مروان، كما ادعوا أيضاً أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) كان يبشّر بدولة هاشمية، وزعموا أنّه قال لعمّه العباس: إنّها تكون في ولدك.

قال محمد بن الأسود: بينما عبد الله بن علي، يساير أخاه داود بن علي ومعهما عبد الله بن الحسن، فقال داود لعبد الله: لم لم تأمر ابنيك بالظهور؟

فقال عبد الله بن الحسن: هيهات، لم يأن لهما بعد. فالتفت إليه عبد الله بن علي فقال: كأنّك تحسب أنّ ابنيك هما قاتلا مروان .

فقال عبد الله: إنّ ذلك كذلك. فقال عبد الله: هيهات وتمثّل :

سيكفيك المقالة مستميت *** خفيف اللحم من أولاد حام

أنا والله قاتله.(٨٠)

وغير ذلك من التنبؤات التي كان يروّج لها بنو العباس، ويدخلونها في أذهان الأفراد الذين اعتمدوهم في التنظيم، وبثّوهم في الأقطار للدعوة ولكنّ تحت شعار: الرضا من آل محمد .

ولما اتّصل أبو مسلم الخراساني بإبراهيم الإمام فسأله عن اسمه. فقال: اسمي إبراهيم بن عثمان. فقال له الإمام: غيّر اسمك فإنّه لا يتم لنا الأمر إلاّ بتغيير اسمك. على ما وجدته في الكتب. فسمّى نفسه عبد الرحمن بن مسلم، وكنيته أبو مسلم.

(٧٨) تاريخ الطبري ج ٩ ص ٨٢ .

(٧٩) الكامل لابن الأثير ج ٥ ص ١٧٠، والطبري ج ٩ ص ٨٥.

(٨٠) المسعودي ج ٣ ص ١٨٨، مقاتل الطالبيين ص١٦٧ .

وهذا يكشف لنا أنّ الدعوة كانت محفوفة بدعايات غيبية، ويدعى وجود كتب تنطق بانتقال الخلافة الى بني العباس، ولكنّهم تكتّموا في إظهار ذلك للناس ولم يطلعوا عليها إلاّ النقباء من خواصهم، وكان التكتّم باسم الخليفة هو عامل جوهري في نجاح الدعوة، حتى يتمّ الأمر، وينتهي كلّ شيء، عندما يزول سلطان الأمويين، وهناك يعلن باسم الخليفة الذي يعرفه القواد والنقباء. وقد احتفظوا لأنفسهم بتنازل أبي هاشم بن محمد بن الحنفية عن الإمامة لهم، وهي دعوى غير معتبرة، لأنّ الإمامة لم تكن ولن تكون بغير أصحابها والقائمين بها بالحقّ.

وعلى أيّ حال فإنّ الدعوة كانت تدعو الى تحريك الشعور الديني بالانتصار لأهل البيت، الذين اريقت دماؤهم في سبيل الانتصار للحقّ، وقدّموا أنفسهم الى الجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا. ولم يجرؤا على كشف مخططهم ونواياهم.

وبهذه الآمال انبعث في نفوس المسلمين الأمل بانبثاق فجر العدل الإسلامي الذي يضمن للناس سعادتهم، على يد رجل من أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله)وهم أئمة العدل وهداة الخلق، ولاسيّما في الولايات التي كان الولاة والعمال يستغلّونها لأنفسهم، مدفوعين بعوامل الجشع، وقد أذاقوا الناس أنواع الأذى وضروب المحن، فاستأثروا بالأموال وضاعفوا الضرائب، وأخذوا الجزية على المسلمين.

وكذلك انبعث الأمل في نفوس غير المسلمين ممّن لم يعرفوا عن الاسلام في العهد الأموي سوى الاضطهاد، ودفع الجزية، وجباية الضرائب على اختلاف أنواعها، فاندفع كثير من الدهاقين من المجوس الى اتباع أبي مسلم وأظهروا الاسلام .

كما استجاب كثير من أهل الآراء والعقائد الخارجة عن الإسلام، وغرضهم التخلّص من الحكم الأموي، عندما رأوا العطف من أبي مسلم على مذاهبهم وعقائدهم، وكان الكثير منهم يعتبرونه وحده الإمام، واعتقدوا فيه أنّه أحد أعقاب زرادشت الذي ينتظر المجوس ظهوره، حتى أنّهم لم يعتقدوا بموت أبي مسلم، بل كانوا ينتظرون رجعته.

وصفوة القول أنّ العباسيين قد وجدوا الفرصة سانحة للقيام بدعوة الناس الى الثورة ضد الأمويين، لوجود العوامل الكثيرة التي يأملون بها نجاح دعوتهم لأنفسهم، وقد تستّروا بالدعوة لآل بيت النبي (صلى الله عليه وآله) وعترته، وهم يخفون من ورائها الآمال والمطامع لأنفسهم.

ولهذا التجأوا إلى مجاراة أبناء علي (عليه السلام)، ليهيئوا جوّاً تسوده مشاعر المحبة والوئام، حتى يتمّ لهم مايريدونه، بدون عرقلة من جانب أهل البيت(عليهم السلام)الذين

هتفت الجماهير بالانتصار لهم; لذلك عقدوا في بادئ الأمر مؤتمراً بالأبواء يضمّ العلويين، والعباسيين، ليبايعوا رجلاً منهم، يكون هو الخليفة عندما يفتح الله عليهم في نجاح الثورة، وأرسلوا الى الإمام الصادق (عليه السلام) وقد علموا إباءه في قبول البيعة من قبل.

وانتهى المؤتمر بعد مداولة فيما بينهم الى مبايعة محمد بن عبدالله بن الحسن، وقد جاء في كلام المنصور يخاطب به الحاضرين :

لأيّ شيء تخدعون أنفسكم؟ والله لقد علمتم ما الناس الى أحد أسرع إجابة منهم الى هذا الفتى - يعني محمد بن عبد الله بن الحسن - .

فقالوا: قد والله صدقت، فبايعوا جميعاً محمداً، ومسحوا على يده، وبعد ذلك حضر الإمام الصادق (عليه السلام) وقال لعبد الله بن الحسن: والله ما هي إليك (أي الخلافة) ولا لابنيك، وانّهما لمقتولان. ثم نهض .[٨١]

ويمكننا أن نعتبر هذا المؤتمر من أهمّ الوسائل التي اتخذها العباسيون لإيقاف أيّ عرقلة تقف في طريق سريان الدعوة من جانب أهل البيت(عليهم السلام)، وأنصارهم المدفوعين بدافع الولاء، والانتصار للحقّ والعدالة، لأنّ أهل البيت لهم فضيلة السبق الى الإيمان، وقوّة التمسك بالدين، والتضحية في سبيل الله، وهم أعدل الناس في الحكم وأولاهم برعاية المصالح العامة في تطبيق نظام الإسلام.

ولا يعزب عن البال ما حاوله العباسيون ايضاً في زجّ أبناء علي في ذلك المعترك السياسي، وهم يعلمون بالخطة التي اختطها الإمام الصادق لنفسه،ولأبناء عمومته، من الانعزال عن تلك الاتجاهات والاحتفاظ بمركزهم الديني، لأنّ الظروف غير مواتية للثورة، وكلّ شيء يقع قبل أوانه فنتيجته الفشل.

ولكنّ العباسيين استطاعوا صدع الصف العلويّ بجلب البعض اليهم من بني الحسن في مبايعة محمد بن عبدالله المحض.

والخلاصة: أنّ الدعوة استمرت في طريقها، وقام دعاة العباسيين بنشاطهم، وأظهروا حماساً شديداً في الولايات الإسلامية، فكانوا يجوبون بلاد خراسان لبثّها، ولا يدعون لشخص معين، وإنما يذيعون بين الناس أنّه لا خلاص لكم إلاّ إذا ولي أمركم آل البيت(عليهم السلام).

وهكذا سار كلّ ما دبره العباسيون بنجاح مدهش، فقد غلب أبو مسلم على خراسان ، واستولى على كورها، وقامت الحروب هناك، وتجمّعت الجنود يقاتلون ويبذلون

(٨١) مقاتل الطالبيين ص ١٤٤.

نفوسهم وأموالهم في سبيل الانتصار، وهم يمتثلون الأوامر من قواد يدعون لخليفة لا يعرفه الناس، ولم ينفق عليهم مالاً ولم يعطِ أحدهم دابة، ولا سلاحاً، بل كانوا هم يجبون إليه الأموال، ويحملون إليه الخراج في كلّ سنة، وهو متستر بعبادته، وإصلاح شأنه حتى ظهر أمره لمروان فقبض عليه سنة (١٣١ هـ) وحبسه بحران ثم قتله، فخاف أخواه السفاح والمنصور وجماعة من بني العباس، وقصدوا الكوفة ولهم بها شيعة ودعاة، وفي طليعتهم أبو سلمة الخلال المعروف بوزير آل محمد، فأخلى لهم داراً، وتولّى خدمتهم بنفسه، وكتم أمرهم، لأنّه أراد صرف الخلافة عنهم لآل علي (عليه السلام) .

ولكنه غلب على أمره، ووصلت جند أبي مسلم الى الكوفة وظهر أمر بني العباس، فأخرجوا السفاح الى المسجد وبايعوه ولقّبوه المهدي، وخطب في الناس أوّل يوم من خلافته بخطبة استهلها بالتنويه عن الآمال التي بعثها الدعاة في النفوس بتلك الأساليب الخداعة، أو الكذب المنظم.

وعلى أيّ حال: فقد فاز العباسيون واعتلى أبو العباس السفاح عرش الخلافة، وتمّ لهم ما أرادوا، وقد خابت آمال المندفعين بدافع الإيمان الصحيح والولاء لأهل البيت في إسناد الحكم إليهم لتحقيق العدل الإسلامي، والتكافل الاجتماعي، وتطهير الأرض من آلام الظلم وويلات الحروب، كما خابت آمال أبي سلمة الخلال في تحويل الأمر لآل علي، وعدوله عن الدعوة للعباسيين، وقد احتجزهم بالكوفة مدة من الزمن، ليكشف رأي العلويين في قبول البيعة لأنفسهم، ولكنّه غلب على أمره، وانتهى كلّ شيء ببيعة السفاح.

ومهما تكن البواعث التي دعت أبا سلمة الخلال الى تحويله عن فكرة الدعوة لبني العباس إلى آل علي، كما نصّ عليه كثير من المؤرخين.[٨٢] فلا يهمنّا البحث عن ذلك، ولكنّ المهمّ هو الرد من قبل الإمام الصادق (عليه السلام) وعدم إجابته له، ففي ذلك دلالة واضحة على نظره الصائب وحدسه الثاقب، وعلمه بما وراء الحوادث. فلم يخدع بتلك المغريات، فيعرض نفسه وأهل بيته بل المجتمع الإسلامي كلّه لخطر لا قبل لهم على دفعه.

دعوة الإمام الصادق (عليه السلام) **للخلافة**

(٨٢) تاريخ الطبري ج ٩ ص ١٢٤، وابن قتيبة ص ١٢٨، والطقطقي ص ١٢٧ وغيرهم.

ذكر كثير من المؤرخين أنّ أبا سلمة[٨٣] كاتب ثلاثة من أعيان العلويين وهم: جعفر بن محمد الصادق، وعمر الأشرف بن زين العابدين، وعبد الله المحض[٨٤]، وأرسل الكتب مع رجل من مواليهم يسمى محمد بن عبد الرحمن بن أسلم مولى لرسول الله (صلى الله عليه وآله)، وقال أبو سلمة للرسول: العجل العجل فلا تكونّن كوافد عاد، وقال له: اقصد أولاً جعفر بن محمد الصادق فإن أجاب فابطل الكتابين الآخرين، وان لم يجب فالق عبد الله المحض، فإن أجاب فأبطل كتاب عمر، وإن لم يجب فالق عمر.

فذهب الرسول إلى جعفر بن محمد أولاً، ودفع إليه كتاب أبي سلمة، فقال الإمام (عليه السلام): مالي ولأبي سلمة؟ وهو شيعة لغيري. فقال له الرجل: إقرأ الكتاب. فقال (عليه السلام) لخادمه: ادن السراج مني فأدناه. فوضع الكتاب على النار حتى احترق. فقال الرسول: ألا تجيبه؟ قال (عليه السلام): قد رأيت الجواب. عرّف صاحبك بما رأيت.

فخرج الرسول من عنده وأتى عبد الله بن الحسن، ودفع إليه الكتاب، وقرأه وابتهج، فلما كان غد ذلك اليوم الذي وصل إليه فيه الكتاب، ركب عبد الله حتى أتى منزل أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام)، فلمّا رآه أبو عبد الله أكبر مجيئه، وقال: يا أبا محمد - كنية عبد الله المحض - أمر ما أتى بك؟ قال: نعم، هو أجلّ من أن يوصف، فقال له: وما هو يا أبا محمد؟ قال: هذا كتاب أبي سلمة يدعوني الى الخلافة، وقد قدمت عليه شعيتنا من أهل خراسان، فقال له أبو عبد الله: يا أبا محمد، ومتى كان أهل خراسان شيعة لك؟ أنت بعثت أبا مسلم إلى خراسان وأنت أمرتهم بلبس السواد، وهؤلاء الذين قدموا العراق أنت كنت سبب قدومهم، أو وجهت فيهم، وهل تعرف منهم أحداً؟ فنازعه عبدالله بن الحسن الكلام، الى أن قال : إنّما يريد القوم ابني محمد، لأنّه مهدي هذه الأمة، فقال أبو عبد الله جعفر الصادق: ماهو مهدي هذه الأمة، ولئن شهر سيفه ليقتلنّ.

(٨٣) أبو سلمة: حفص بن سليمان، كان مولى بني الحارث بن كعب، وقد نشأ بالكوفة، ولعب دوراً هاماً في الدعوة العباسية لما اتصف به من فصاحة وعلم بالأخبار والسير وقوّة البديهة وحضور الحجة، وكان ذا ثروة طائلة ينفق من ماله على رجال الدعوة، وقد اتصل بإبراهيم الإمام بواسطة بكر بن ماهان، أحد أبطال الدعوة المختصين بإبراهيم الإمام، فلما ادركته الوفاة قال لإبراهيم الإمام: إنّ لي صهراً بالكوفة يقال له أبو سلمة الخلال قد جعلته عوضي في القيام بأمر دعوتكم، فلما مات كتب إبراهيم الى أبي سلمة يأمره بالقيام بالدعوة، فقام بها خير قيام وتركزت في الكوفة بجهوده، وقتله السفاح لعلمه بانحرافه وميله للعلويين بعد أن استوزره مدة.

(٨٤) هو أبو محمد عبدالله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وأمه فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب. لقب بالمحض لأنه أوّل من جمع ولادة الحسن والحسين من الحسنية، مات في حبس المنصور سنة (١٤٥ هـ) وقد تجرّع الآلام والويلات هو وأهله كما أشرنا.

فقال عبد الله: كان هذا الكلام منك لشيء. فقال الصادق: قد علم الله أنّي أوجب النصح على نفسي لكلّ مسلم، فكيف أدّخره عنك؟ فلا تمنّ نفسك الأباطيل، فإنّ هذه الدولة ستتم لهؤلاء، وقد جاءني مثل الكتاب الذي جاءك[٨٥]

وعلى ضوء ما تقدّم نستطيع أن نكشف كثيراً من الحقائق الناصعة، فإنّ امتناع الإمام عن اجابة أبي سلمة دليل قاطع على أنّ خطّته الحكيمة ومنهجه السديد في عدم امتزاجه بذلك المعترك الذي لا يؤمل من ورائه نجاح تلك المهمة، قد أصاب كبد الحقيقة بتلك النظرة الصائبة والحدس الثاقب وعلمه بما وراء الحوادث، فقد فشل أبو سلمة فشلاً ذريعاً، في تلك المحاولة التي جاءت متأخرة عن وقتها.

ولقد ابتعد الإمام الصادق عن ذلك المعترك، وبذل لأبناء عمّه النصح بأنّ لايزجّوا أنفسهم في ذلك الصراع، وحذرهم عاقبة الأمر التي لاتعود عليهم إلاّ بالخيبة، وقد لقي منهم استنكاراً وربّما اتّهموه، ولكنّه يرى مالا يرونه ويعلم ما لا يعلمون. إذ الأمر جاء قبل أوانه، وهو (عليه السلام) يرى التريث الى إعداد العدّة وإحكام الأمور وحلول الوقت المناسب.

ولم يكن أبو سلمة وحده يتحول عن رأيه في الدعوة لبني العباس، فقد سبقه أبو مسلم الخراساني لذلك، فإنّه تحول عن رأيه، وحاول أن يستميل الإمام الصادق في إسناد الحكم إليه. فكتب إلى الإمام الصادق(عليه السلام)كتاباً يقول فيه:

إنّي قد أظهرت الكلمة، ودعوت الناس عن موالاة بني أمية الى مولاة أهل البيت فإن رغبت فلا مزيد عليك.

فكتب إليه الإمام (عليه السلام): **ما أنت من رجالي، ولا الزمان زماني.**[٨٦]

وها نحن أولاء نترك تقدير هذا الجواب الى القارئ النبيه، ليلمس فيه الحقائق التي تدل على الروح المشبعة بالإيمان، والشخصية المستعصمة بالفكر الثاقب، والنظر الدقيق لعواقب الأمور، ومراعاة المصلحة العامة، والسير على الخطط المحكمة والآراء السديدة، في تقدير الظروف ومناسباتها، فلم يندفع وراء تيار الأقوال البرّاقة، ولم يجر في ميدان السياسة عندما حاول الكثيرون إثارة حفيظته، وتحريك عواطفه نحو الثورة وإعلان الحرب على أولئك الحكام الذين استشرى داؤهم وعظم خطرهم.

(٨٥) مروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ والآداب السلطانية ص ١٣٧.

(٨٦) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٢٤١.

ولقد أراد بعض أصحابه حمله على الخروج وإعلان الثورة لما يعرفونه من كثرة محبيه وأنصاره، ولكنّهم كانوا ينظرون إلى الأمور نظرة سطحية، فتغلب عليهم سلامة الصدر، وسرعة التصديق.

دخل عليه سهل بن الحسن الخراساني فسلّم عليه وقال له: يا ابن رسول الله، لكم الرأفة والرحمة، وأنتم أهل بيت الإمامة، ما الذي يمنعك أن يكون لك حقّ تقعد عنه؟! وأنت تجد من شيعتك مائة ألف يضربون بين يديك بالسيف.

ودخل عليه سدير الصيرفي، فقال: يا أبا عبد الله، ما يسعك القعود؟ فقال(عليه السلام): ولِم يا سدير؟ قال لكثرة مواليك وشيعتك وأنصارك. فقال: يا سدير وكم عسى أن يكونوا؟ قال: مائة ألف. فقال الصادق (عليه السلام): مائة ألف؟ قال نعم.[٨٧]

فأجابه (عليه السلام) بما حاصله: أنّ تلك الكثرة المزعومة، وذلك العدد الكبير لا يوجد فيهم من الرجال المخلصين الذين تمكنت العقيدة في نفوسهم إلا نفر قليل، فلا يمكنه أن يخوض معركة كما يريد سدير وغيره، مع عدم العدّة الكافية من المخلصين الذين يمكنه الركون إليهم والتعويل عليهم، فإنّ التسرّع في مثل تلك الظروف عديم النفع، وإن أنجع وسيلة أن يواصل دعوته لإيجاد التكامل الخلقي، والتكافل الذي يربط اجزاء المجتمع، ويصل الأفراد الى نقطة الادراك لكيفية الانتفاضة ضد الحكم القائم، ويحصل وعي عام من جرّاء أعمال ولاة الأمر المخالفة لنظم الإسلام; فتكون الثورة للعدالة الضائعة ولتحقيق نظم الدين، ولا جدال بأنّ الإمام الصادق كان يفكّر ويقلّب وجوه الرأي، ليجد المدخل الذي يدخل منه لإصلاح ما فسد من أمور المسلمين، ويحاول أن يسلك أقرب الطرق للوصول الى حلّ تلك المشاكل، وانقاذ المجتمع من براثن الظلم ونير الاستعباد، عند ما ولي الحكم أناس انحدروا مع شهواتهم انحدار البهائم، وتناحروا تناحر الوحوش، وتهافت الناس لاتباعهم كتهافت الفراش على النار، فلا يمكنه أن يخوض ذلك المعترك المضطرب الهائج، لأنّ في ذلك ضياع المصلحة التي يحرص عليها، وإهدار للدماء من غير نتيجة مرضية. ولقد عاش (عليه السلام)وهو غير بعيد عن مجتمعه الذي يعيش فيه، وقد عرف مقدرتهم الحربية فلا يمكنه الركون إليهم والاعتماد عليهم، لأنّهم لا ينتصر بهم في حرب، ولا يثبتون في شدّة. وأهل الثبات والصدق قلة في مواجهة قوّة الحكام الغاشمة، ولكلّ دم من آل بيت محمد(عليهم السلام) رسالة، فلولا دم الحسين(عليه السلام) جدّه لتمكنت أُميّة من تحقيق ردّتها وتغليب جاهليتها، وهاهم آل الرسول يحامون عن وجودهم من دون اعلان للثورة،

(٨٧) الكافي ج ٢ ص ٢٤٣ .

فلماذا يقدّم نفسه وشيعتهم طعمة سهلة ولقمة سائغة، وسعي الناس الى الرضا من آل محمد لا يكف وثرواتهم لا تتوقف، ولكنّ ما وهبه الله عن محبّة في النفوس وانقياد إليه لا يبرر التعرّض لأهل القوة والسلطان، كما لا يكفي الهياج في الأحاسيس والمشاعر وحدها خطة الاصلاح والدعوة الى التمسّك بأهداف الإسلام هي التي تكفل للمؤمنين النجاح والبقاء.

ولم يكن أبو سلمة معروفاً بولائه الصحيح، وعقيدته الصادقة فيكون محل ثقة الإمام ليستجيب له، ولو استجاب لكانت العاقبة أدهى وأمر، كما اتّضحت الحالة وظهرت الحقائق .

وصفوة القول أنّ الإمام الصادق (عليه السلام) قد اعتزل ذلك المعترك السياسي، لا عن خضوع وتسليم، بل كان انعزال ثورة وتصميم، فقرّر أن يدعو الى الله، لتوجيه الوعي الإسلامي بالقوة الروحية التي جعلها الاسلام هي الأساس الوحيد للحياة الدنيا، وهو أقوى أثراً في اندفاع الانسان الى العمل، والشعور بالمسؤولية، وأن يقوم المصلحون بالدعوة الصامتة، فهي أنجح الوسائل في التبليغ، وأقرب الطرق لهداية الناس.

إذاً ماهي الدعوة الصامتة؟..

الإمام الصادق(عليه السلام)
الـدعوة الصامتـة

الدعوة الصامتة

قال الإمام الصادق (عليه السلام) لأصحابه :

«أوصيكم بتقوى الله واجتناب معاصيه، وأداء الأمانة لمن ائتمنكم، وحسن الصحابة لمن صحبتموه، وأن تكونوا لنا دعاة صامتين »

موقف الإمام الصادق (عليه السلام) **واتّجاهه للإصلاح**

تقدّمت الإشارة في الأبحاث السابقة عن موقف الإمام الصادق (عليه السلام) وسط ذلك المعترك السياسي المائج بالفتن والهائج بالأهواء، فلم يساهم (عليه السلام) في تلك الحوادث أو يمدّ أنملة للاشتراك فيها، لعلمه بعواقب الأمر، وأنّ الدعاة لهم أهداف وغايات، فاختطّ لنفسه ولأهل بيته خطّة الاعتزال عن تلك التيارات والأعاصير السياسية، واتّجه إلى الاحتفاظ بمركزه العلمي، لأداء رسالة الإسلام على أكمل وجه، فذلك وحده كفيل بسعادة المجتمع. فابتعد عن المغامرة رغم إلحاح الكثيرين ممّن ينظرون الى الأُمور نظراً سطحياً، ولا يعلمون بعواقب الأُمور. فهم يظنّون أنّ الزمن قد حان لإقامة حكومة عادلة تسير على نظام الإسلام وقوانينه، وهو المؤهّل لتلك المنزلة; لأنّه زعيم أهل البيت وسيدهم، وله المكانة المرموقة في المجتمع بشخصيّته الفذّة، التي كانت تزعج الفئة الحاكمة، وتثير كلّ مخاوفها، الأمر الذي جعل الكثير من الناس يرمقونه بعين الإكبار، ويعدّونه الرجل المنقذ الذي تتحقق بشخصه آمالهم بالقضاء على ذلك الحكم الذي أذاق الناس أنواع المحن والظلم.

فكان (عليه السلام) على جانب كبير من رصانة التفكير، وبُعد النظر في العواقب، وخبرة فائقة بأحوال الناس ونزعاتهم وميولهم، وعلماً بالظروف ومقتضيات الزمن، فلم يستجب لتلك المحاولات، ولم يتحول عن منهجه; فيغامر بنفسه وبأهل بيته مغامرة عقيمة النتائج، تعود على المجتمع بأخطار جسيمة. لذلك كان ينهى ابناء عمّه عن القيام بكلّ نشاط ثوري، لثقته بفشل كلّ محاولة في ذلك الوقت. فلم يتجاوز في نشاطه الحدّ الذي يهدم جهوده التعليمية، أو يحول دون متابعة دعوته الاصلاحية، ولو أنّه أجاب أبا سلمة أو أبا مسلم لما ندباه إليه كما تقدم; لكان عرضةً لتلك الأخطار التي حلّت بغيره ممّن عرف بنشاطه الثوري. فكان لتلك الاحداث أثر سيّئ في نفوس الناس.

ولابد لداعي الاصلاح من أنصار ينصهرون بمبادئ الدعوة وأهدافها يشاركونه بذلك الشعور عن نيّة صادقة وعزيمة ثابتة، لينتصر بهم ويركن إليهم، ويكونوا أعواناً مخلصين يأمنهم في كلّ خطوة يخطوها بطريق الإصلاح. وكم من إنسان يأمل النصر من أناس، ولكنّهم يخذلونه عند حاجته الى النصر; لعدم اختباره لهم وعدم علمه بأحوالهم، لذلك كان من الحزم تحسّس ذلك النوع من الأنصار كما فعل الإمام الصادق (عليه السلام)، ويظهر أثره في جوابه لأبي مسلم[٨٨] بقوله: **ما أنت من رجالي ولا الزمان زماني**. وكذلك قوله لرسول أبي سلمة: **ما أنا ولأبي سلمة وهو شيعة لغيري**[٨٩]، فلا يمكنه القيام بثورة دموية وقد عرف عواقبها واتضح للجميع نتائج القيام بها مع علمه بذلك المجتمع الذي أنهكت قواه الحروب المتتالية والثورات المتتابعة.

وقد وجد (عليه السلام) أنّ الأمر يدعو الى الحزم والتريّث، وأن يتحيّن الفرص المؤاتية; إذ القيام بأمر في غير أوانه لا بد وأن يفشل وينهار، فصمّم على الاحتفاظ بالاتجاه العلمي، والوقوف موقف المصلح المتسلح بالإيمان بالله، ونشر تعاليمه، وبعث الوعي الإسلامي بالقوة الروحية، التي هي أقوى العوامل لتوجيه الإسلام نحو الخير، وقد جعلها الإسلام هي الأساس الوحيد للحياة الدنيا، لأنّ المجتمع الإسلامي حسب تعاليمه ونظمه لا يقوم إلاّ على الإيمان بالله بعقيدة راسخة، ومنه تنبعث القوة الروحية، لأداء الواجب والشعور بالمسؤولية والتضامن بين الأفراد والتكافل الاجتماعي، وبذلك يسعد المجتمع وينعم أفراده.

فكان الإمام الصادق (عليه السلام) خير داعية للاصلاح لما اتصف به من صدق القول ومثابرة العمل، ولم يقعد به عن ذلك ما لقيه من الأذى وما نزل به من مصائب، فلم تهن عزيمته ولم تفتر همّته، بل ثبت في نشر دعوته، وواصل أداء رسالته بالدعوة الى العمل الصالح وهو دليل رسوخ العقيدة والإيمان بالله. وكلّما ازداد الإيمان بالله

(٨٨) أبو مسلم الخراساني: هو عبد الرحمن بن مسلم. اتصل بإبراهيم الإمام وهو غلام، فنشأ في خدمته وتربى في نعمته، وكان ذكياً فطناً قوي النفس، فأرسله إبراهيم الى خراسان داعياً للدولة وهو ابن ثمان وعشرين سنة، وقال لهم: إنّه منا أهل البيت، فكان يسمى أمين آل رسول الله وقام بدوره في الدعوة حتى اظهرها سنة (١٢٩ هـ) وكان شديد البطش سفاكاً للدماء حتى أُحصي من قتلهم في أيّامه فكانوا ستمائة الف.

ذكر ابن عساكر أن رجلاً قام لأبي مسلم وهو يخطب، فقال له: ماهذا السواد الذي عليك؟ قال: حدثني أبو الزبير عن جابر أن رسول الله دخل مكة وعليه عمامة سوداء، ياغلام أضرب عنقه، فضربت عنق الرجل السائل.

وقد استقل أبو مسلم بالحكم والناس له تبع حتى قال بعضهم بإمامته، ولما خشي المنصور من بطشه احتال عليه فقتله سنة (١٣٧ هـ) فلم تصدق طائفة من تابعيه بموته، وقالوا: انّه حي، وذهبت أُخرى الى التصديق بموته، وقالوا بإمامة ابنه من بعده. وأنّ التاريخ حافل بأخباره وسيرته من بطش وفتك وتقلب في الرأي وفساد في العقيدة.

سأل بعضهم عبد الله بن المبارك عن أبي مسلم: أهو خير أم الحجاج؟ فقال: لا أقول أن أبا مسلم خير من أحد; ولكنّ الحجاج شر منه.

(٨٩) الفرج بعد الشدة ص ٣٤٧.

ازداد العمل الصالح، وبذلك تهون المخاطر التي تحوط دعوة المصلح وتهدّدها، ويكسبها قوّة الصمود، واجتياز العراقيل والعقبات .

وكيف ينجو المصلح من مجابهة الشدائد، ومهمته أن يحول بين نفوس الناس وشهواتها، ويباعد بينها وبين ما ألفته من العادات؟ فمن العسير أن يخلعوا أنفسهم ممّا هم فيه وأن يمدّوا أعناقهم للحقّ الذي ابتعدوا عنه.

والمصلح يحتاج الى ثبات; فلا يتسرّب اليأس الى نفسه، ولا تهن عزيمته عندما يصطدم بعقبة تعترض سبيل دعوته. ولا يحصل ذلك الثبات إلاّ بقوّة الإيمان بالله. وهناك يستطيع أن يوجد اُمة تصرخ بوجه الطغاة الذين استبدوا بالحكم، وظلموا العباد وخربوا البلاد، **(وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)**[٩٠] فالذين آمنوا بالله حقّ الإيمان يجاهدون في الله حقّ جهاده، لتكون كلمة الله هي العليا، ولا تأخذهم في الحقّ لومة لائم.

أسس الدعوة الى الاصلاح

اتّجه (عليه السلام) منذ تفرّده بالزعامة واستقلاله بمهمة الإمامة إلى الدعوة لله، وقد ألزم دعاة الخير وقادة الصلاح بأن يدعوا الناس بأعمالهم قبل الدعوة لهم بأقوالهم، لأنّ الناس من شأنهم أن ينظروا في أعمال من يدعونهم الى الخير، فإن رأوا منهم العمل بما يدعونهم إليه والوقوف عند حدوده اتبعوهم، وإن رأوا عملهم يخالف قولهم نبذوهم. ولذلك قالوا: إنّ تأثير العمل على الناس فوق تأثير القول.

وإنّ أمثل قاعدة يسترشد بها في اصطفاء من يتّخذه الناس زعيماً لهم وقدوة هي أعماله، فهي التي تجعله أهلاً لأن يسلّم إليه الناس قيادهم، ويأتمنوه على عقولهم يثقّفها ويغذّيها، وعلى أخلاقهم يقوّمها ويزكّيها، وإنّ أثر الحكمة الخلقية تسمع من أفواه الوعّاظ أو الدعاة الى الخير ليس بأكثر منها وهي مسطورة في الكتب، أو منقوشة في الجدار، إذ الأقوال الخالية عن العمل من قبل قائلها تدعو الناس الى عدم الاعتداد بها، لأنّهم لا يرون أثراً منها على من يأمر بامتثالها. فلهم الحقّ إذا نفروا عنه. وكان ذلك من جملة العوامل التى دعت الإمام الى تقرير القيام بالدعوة الصامتة كما جاء في وصيّته لأصحابه بقوله: **«أوصيكم بتقوى الله وأداء الأمانة لمن ائتمنكم، وحسن الصحابة لمن صحبتموه وأنّ تكونوا لنا دعاة صامتين»** .[٩١]

(٩٠) المائدة: ٤٧.

(٩١) الإمام جعفر الصادق لعبد الحليم الجنديس ٣٢٧.

فوقع هذا القول عندهم موقع الاستغراب. أجل، كيف يكون الداعي للخير صامتاً؟ وكيف يقومون بهذه المهمة وهم لا يتكلّمون؟ فطلبوا منه إيضاح الأمر وإزالة الاشتباه ليزول الاستغراب فقالوا: يا ابن رسول الله وكيف ندعو ونحن صامتون؟

قال (عليه السلام): **تعملون بما أمرناكم به من العمل بطاعة الله، وتعاملون الناس بالصدق والعدل، وتؤدّون الأمانة، وتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، ولا يطلع الناس منكم إلا على خير، فإذا رأوا ما أنتم عليه علموا فضل ما عندنا فتنازعوا إليه.** وبذلك أراد أن تكون الواسطة بينه وبين المجتمع تعكس واقع تعاليمه، وتحبّذ منهجه ومبادئه، فركز على أن ينهج أصحابه منهج العمل الصحيح والقول الصادق.

ولم يزل يكرر هذه القاعدة ويلزم أصحابه بالالتزام بها، ويحثّهم على العمل بما أمرهم به، وقد ورد عنه كثير من الأقوال بهذا المضمون .

قال أبو أسامة: سمعت أبا عبد الله الصادق (عليه السلام) يقول: **عليكم بتقوى الله والورع والاجتهاد، وصدق الحديث، وأداء الأمانة وحسن الخلق، وحسن الجوار، وكونوا دعاة لانفسكم بغير السنتكم وكونوا زيناً، و لا تكونوا شيناً.**(٩٢)

وقال ابن أبي يعفور: سمعت الصادق (عليه السلام) يقول: **كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم. ليروا منكم الاجتهاد، والصدق، والورع .**(٩٣)

فالإمام الصادق (عليه السلام) كان يحاول أن تكون الدعوة أساسها العمل الصالح والخلق الطيب، فهي انجع وسيلة لخوض معركة صامتة، تكافح المظالم بكافة أنواعها، وتقف الى جنب المظلومين، ليظهر بذلك خطأ أولئك الذين اغتصبوا حقوق الأمة وترأسوا على المسلمين، وقد انحرفوا كلّ الانحراف عن مبادئ الإسلام وتعاليمه.

فالمسلم الذي يتحلّى بصفات الإسلام لا يمكنه النفاق ولا المسايرة لذلك الركب المنحرف عن طريق الحقّ والرشاد.

نعم، إنّه (عليه السلام) يرى أنّ الدعوة الاصلاحية بالأقوال والمواعظ الخلقية والاجتماعية لا يتحقق أثرها إلاّ إذا كانت الأعمال مظاهر لها، وأنّ الاتصاف بتقوى الله واجتناب معاصيه، ومعاملة الناس بعاطفة نبيلة وخلق رفيع، وأداء الأمانة وحسن الصحبة والجوار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكلّ صفة من صفات الخير والصلاح كما جاء في وصيته، لجدير بأن يكون صاحبها مقبولاً قوله، مؤثراً بدعوته، لأنّه يملك مشاعر أبناء جنسه، فهم يحبّونه ويخلصون له بالمودّة، وناهيك بما وراء الحبّ من أثر في تغيير الطباع لاتّباع المحبوب .

(٩٢) وسائل الشيعة ج ١٢ ص ٨ أبواب أحكام العشرة ب ١ ح ٨ .
(٩٣) الكافي ج ٢ ص ١٠٥ ح ١٠.

وقد قرر علماء الاجتماع: أنّه لا يتمّ اصلاح لأمّة من الأمم أو لشعب من الشعوب إلاّ إذا أفعمت القلوب حبّاً للمصلح وطاعة لأوامره.

وإنّ الاتصاف بالأخلاق الفاضلة والانتصار على النفس ما هو إلاّ خطوة نحو الثورة الشاملة لجلب قلوب الناس، لمن اتصف بتلك الصفات، وإنّ المرء إذا استطاع ضبط نفسه وتنظيمها لجدير بأن تنقاد الناس الى دعوته.

مهمّة الداعي

إنّ مهمة الداعي الى الله مهمة عظيمة وعليه مسؤولية كبرى، ولا يستطيع أن يقوم بهذه المهمة من ترمي بهم المصادفات، لأنّه ليس كلّ فرد صالحاً لهذا العمل الشاق، ولا كلّ فرد قادراً على تحمّل أعبائه، فيجب أن تتوفر في الداعي صفات عقلية وأخلاقية تخوّله أداء واجبه على الوجه المطلوب، إذاً فلا بد لمن يقوم بالنصح أن يتصف بالصبر ومحامده، ويتحمّل الاذى وشدائده، فلا يبالي بما يلاقيه من أذى في سبيل أداء رسالته ونشر عقيدته، وأن تكون له برسول الله أسوة حسنة، وكل هذا إنّما يتفرع عن الإيمان بالله والعمل بطاعته.

وقد تضمّنت فقرات تلك الوصية المتضمنة لهذه القاعدة الاصلاحية - الدعوة الصامتة - كلّ نواحي الخير في الإنسان الدالة على كماله النفساني وهي ثلاث :

١ - الناحية الاعتقادية التى تكمن وراءها القوة الروحية، وعليها تبتني صحّة أعماله، وهي تتمثل في ادراكه بصلته بالله، وامتثال أوامره، و تلك القوة هي أعظم أثراً في قيام الإنسان بالعمل، وهذا الادراك العقلي، أو الشعور الوجداني بصلة الإنسان بالله يجعل الإنسان مدفوعاً الى العمل بطاعته.

٢ - ناحية خلقه الفردي وتهذيب نفسه بالأخلاق الفاضلة والخصال الحميدة، لأنّ بناء المجتمع الصالح إنما هو بصلاح أفراده، وإعدادهم لأن يكونوا أعضاء صالحين، وتزويد كلّ فرد منهم بما يجب عليه للأسرة وللمجتمع، فإذا صلح الفرد وتهذبت الأسرة صلحت الأمة، و اتّجهت لسبيل الصلاح.

٣ - الناحية الاجتماعية التي تنشأ عن مخالطة الناس ومعاشرته لهم من حسن الصحبة، وحسن الجوار، وأداء الأمانة وغيرها ، فإذا كملت في الشخص هذه النواحي الثلاثة، كان هو الإنسان الذي يصلح لأن يدعو الى الخير وسواء السبيل. وعلى هذا فليست العبرة بالصلاح هي المظاهر التي يكون مرجعها القلب، وما قد

نواه في ذلك، ولكلّ امرء ما نوى، فربّما يكون الداعي مظهراً للدعوى بطول السجود وكثرة التسبيح، ولكنّ باطنه غير ظاهره، بل العبرة بالاستقامة ظاهراً وباطناً، وإتيان الأعمال الصالحة التي تنبعث عن النية الصادقة والإيمان، بما يعود على المجتمع بالسعادة في حسن المعاملة مع الناس، ولذلك يقول الإمام الصادق (عليه السلام) :

لا تنظروا الى طول ركوع الرجل وسجوده فإنّ ذلك شيء قد اعتاده، ولكن انظروا الى صدق حديثه وأداء الامانة.(٩٤)

والغرض أنّه (عليه السلام) كان حريصا على توجيه الأمة توجيهاً صحيحاً لتسير الى المثل الأعلى في الحياة، وأن تسعى ما أمكنها السعي الى تطبيق نظم الإسلام وتعاليمه. ففي ذلك صلاح المجتمع وسعادته، وأيّ إصلاح أعظم من نشر دين يهدي الناس الى المحبة والتعاون والأخوة الصادقة؟

الإسلام هو دين الله الذي أنزله رحمة بالإنسانية المعذّبة، فهو دين شامل بتعاليمه، يأمر بالعدل والاحسان، وينهى عن الظلم والفحشاء، ويجعل المجتمع كنفس واحدة; لأنّه يبعث في نفوس كلّ فرد شعوراً يلزمه احترام جميع الأفراد، كما يشعر بأضرار أبناء جنسه وآلامهم، كشعوره بأضرار نفسه وآلامها، ويحسّ بمنافع أبناء مجتمعه كإحساسه بمنافع نفسه، طبقاً للتعاليم التي جاءت بها الشريعة الإسلامية ومنها: «**أحب لأخيك المسلم ما تحبّ لنفسك**»(٩٥).

ويقول الإمام الصادق: «**المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد إذا اشتكى شيئاً منه وجد ذلك في سائر جسده، إنّ المؤمن أخو المؤمن هو عينه ودليله، لايخونه ولا يظلمه ولا يغشّه ولا يعدّه عدة فيخلفه**».(٩٦)

الإسلام يتناول الحياة كلّها بجميع ما تشتمل عليه من تنظيم، وهو يرسم للبشر صورة كاملة لما ينبغي أن تكون عليه حياتهم في هذه الأرض.

الإسلام يتناول الإنسان فرداً في جميع أحواله يوجّهه ويهذّبه، ويتناوله وهو يعيش في مجتمعه مع غيره من الأفراد فأعطى للمجتمع دروساً يبيّن له كيف تكون الصلات بين أفراده، وكيف تكون العلاقات وتنشأ المودة والإخاء والحبّ والتكافل والتعاون، ولو نفذ المسلمون دستور دينهم، وساروا على منهاجه وتعاليمه; لكانوا المثل الأعلى للإنسانية الراقية، ولسادوا العالم بأسره ولأصبح كلّ فرد منهم مثالاً للفضيلة ورمزاً للكمال.

(٩٤) الكافي : ج ٢ ص ١٠٥، ح ١٢.
(٩٥) الكافي ج ٢ ص ١٧٠ ح ٥ .
(٩٦) الكافي ج ٢ ص ١٦٦ ح ٣.

شخصية الداعي

وصفوة القول أنّه (عليه السلام) اتّجه الى الاصلاح بالدعوة للعمل الصالح، لأنّ العمل الصالح من شأنه أن يحول بين الناس وبين ظلمهم بعضهم بعضاً، وهو أعظم حاجز بينهم وبين الشرور، ومن شأنه أن يهذّب النفوس ويطهّرها من الخبث، لأنّه يربط الإنسان بربّه بصلة الإيمان به، فهو يخشاه في سره وعلانيته، ومن كان كذلك فلا يخشى ضرره، ولا يقع منه ظلم، ولايصبح أسير شهواته، وصريع أهوائه، ومن كان يدعو الناس الى دعوة هذا أساسها، فجدير به أن يتحمّل الأذى ويصبر على ما يلاقيه من أعداء الحقّ وأنصار الباطل، فلا يهون لشدّة، ولا يضعف لاضطهاد، بل يقابلها بالحزم والعزم، وبقلب لا يعرف الضعف إليه سبيلاً، ولا يجد الخوف من الناس فيه مكاناً.

فلقد كان (عليه السلام) قويّاً في دينه لا يهن لشدة، ولا يضعف عند النكبة، بل يتلقّى كلّ ذلك بقلب لا يتسرّب إليه الضعف، وفؤاد لا يتزلزل عند النوازل، وهو قويّ الثقة بربّه وخالقه، كثير الرجوع إليه في حاجاته ومهماته، يلجأ إليه في كلّ شدة، وينتصر به على اعدائه، ويردّ بالالتجاء إليه كيدهم، وما يريدونه به من سوء وما يدبرون له من مكائد.

ولقد مرّت عليه أيام مختلفة تبدّلت فيها سياسات، وتقلّبت فيها أُمور، وشاهد أنواعاً من الحكم وكانت الأيام تبسم له مرةً وتعبس أُخرى، ويقسو عليه الحكم تارة، ويلين تارةً أُخرى، وهو يتحمّل الأذى ويصبر على المحن، وكيف لا يكون كذلك وهو يحمل رسالة الاصلاح وهو أعظم مصلح عرفه التاريخ في عصره وبعد عصره؟ كان هدفه تقويم المعوج وإرشاد الضال وتوجيه الشاذ، ليسير بالقافلة في طريق الخير مرحلة إثر مرحلة، ولا تحول دونه ودون عزيمته المخاطر والأهوال، ولا يخشى انفجار مشاعر اعدائه المكبوتة. وغيظهم المتوقد، وقد مر غير مرة محاولة أعدائه للفتك به، والقضاء عليه، وترويج التهم حوله، ولكنّ الله عصمه وردّ كيدهم عنه، ولمّا حلّ قضاؤه ولا راد لقضائه نفذ ما أرادوه، وتمّ ما حاولوه من المكيدة. فمضى بعد أن ترك للأجيال دروساً وعبراً لم تكن مقصورة على أتباعه فحسب، بل كانت عامة لجميع الأُمة.

ملاحظات حول دعوته الإصلاحية

١ - إنّ قوله (عليه السلام): **كونوا دعاة صامتين**. لم يكن المقصود منه كون الداعي للعمل الصالح صامتاً مطلقاً، لأنّ ذلك ينافي قوله (عليه السلام): **تأمرون بالمعروف وتنهون عن**

المنكر، لأنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يكونان مع الصمت ، ولكنّ المقصود بأن يكون القول مقروناً بالعمل، إذ هو بدونه لغو كما تقدّم بيانه، فجعل (عليه السلام) الدعوة بالعمل الصالح قبل الدعوة بالقول.

٢ - إنّه كان يأمر بالإقدام على النصح، وأن لا يحول بين الداعي وبين نشر دعوته خوف ظالم; لأنّ الأمر بالمعروف من أهمّ فروض الإسلام وأكبر واجباته، إذ هو أساس نشر الحقّ، وإعلان المبادئ السامية. فيقول في الحثّ عليه: مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، فإنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يقربا أجلاً ولم يبعدا رزقاً. ويقول: **ويل لقوم لا يدينون الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.**(٩٧)

٣ - يتجلّى لنا أنّ هذه الدعوة قد وقفت في طريقها عقبات وحواجز، لأنّ في انتشارها انتشاراً لمبادئ الإسلام ونظمه وتعاليمه، ولم يبق من وراء ذلك لظالم طمع بالحكم، ولا لمعادي الإسلام من وسيلة يحاربه بها انتصاراً لمبادئه، لذلك فقد أحست العناصر المعادية للإسلام بخطر هذه الدعوة، وإنّها بدون شك ستقضي على مآربهم التي من أجلها اندسوا في صفوف المسلمين، وبدون شك أنّها تهدم آمالهم المعقودة على ذلك التدخّل، من إثارة الفتنة وتشويه محاسن الإسلام، عندما يغيرون الحقائق ويقلّبون الأوضاع، ولهذا أطلقوا دعاتهم ضد تحقيق هذه الدعوة الاصلاحية، فانتحلوا لأنفسهم حبّ أهل البيت وأظهروا ولاءهم للإمام الصادق (عليه السلام)، الذي انفرد بزعامة ذلك البيت الطاهر. وقد تبرأ منهم وأمر بهجرهم. لأنّ تلك الفئة المعادية للإسلام انطلقت بكل قوّة، فاستغلت جهالة العامة ممن لم تساعدهم ظروفهم على الاتصال بأهل البيت(عليهم السلام)، فصدقوا بما ادعاه أولئك المندسون في صفوف الأمة من الغلوّ في أهل البيت.

٤ - إن الناس في مقابلة الدعوة الإصلاحية ثلاث طوائف : فطائفة تتقبل الدعوة وتناصرها ظاهراً وباطناً ويضحّون في سبيل مناصرتها، وهم ذوو العقول الراجحة الذين لم تستطع العاطفة أن تسيطر على عقولهم، بل غايتهم اتّباع الحقّ والحقّ أحقّ أن يتبع.

وطائفة أخرى تعادي تلك الدعوة ظاهراً وباطناً، مع اتّضاح صدق الداعي وظهور حجّته، ووضوح برهانه، وهم المعاندون، والمعاند لا يقنع بشيء; لأنّه لا يطلب حقّاً ولا يحيد عن باطل، وإنّما هو متعنّت يخالف الواقع، ويبعد عن سنن الطريق لخبث في نفسه وفساد في طويته.

(٩٧) التهذيب ج ٦ ص ١٧٦ ح ٣٥٣ .

وطائفة ثالثة تعادي في الباطن وتناصر في الظاهر وهم المنافقون[٩٨]وهؤلاء أشدّ ضرراً على الدعوى من الفئة الثانية، وهم المعادون لها ظاهراً وباطناً، لأنّهم شاركوهم بتلك الصفات الخبيثة، وقد امتازوا عليهم بالجبن والخور وضعف القلب، فلا يستطيعون أن يصارحوا المصلح بأنّهم أعداء له، إذ ليست لهم قابلية الجرأة الأدبية، ولا تسمح نفوسهم بأنّ يظهروا بالمظهر الواقعي، ويتقبّلوا تلك الدعوة بقبول حسن عندما يصطدمون بالواقع، لخبث نفوسهم وفساد نيّتهم.

٥ ـ نظراً لأهمية هذا الموضوع وما يتعلّق به; فإنّ المجال لا يتّسع للإحاطة بجميع أطراف البحث، وإنّ للإمام الصادق (عليه السلام) أقوالاً كثيرة ومواقف متعددة حول الدعوة بالعمل الصالح، فلذلك اخترنا الوقوف عند هذا الحدّ من البحث حول الدعوة الصامتة التي قام بها (عليه السلام) في عصر انطلاق الفكر، وازدهار العلم، وهو رئيس أعظم مدرسة إسلامية، وزعيم تلك الحركة العلمية، وكان خير قدوة صالحة في العلم والعمل الصالح، لايفتر عن تعليم الناس وتوجيههم الى الخير والفضيلة، كما لا يفتر عن عبادة الله والعمل بطاعته ويخشاه في سرّه وعلنه.

وقد أشرنا سابقاً الى موقفه تجاه حكام الجور ومقاطعته لهم، وقد أمر الناس بالابتعاد عنهم، كما أبعد عنه المتقرّب منهم إليه ، وحرّم الولاية لهم، لأنّه (عليه السلام)يرى أنّ ولاية الجائر دروس الحقّ كلّه واحياء الباطل كله.

وكان يحرّم معاونتهم حتى في بناء المساجد، لأنّهم لا يملكون هذه الأموال; فلا يقبل منهم العمل فيها حتى في وجوه الخير، والإمام (عليه السلام) يهدف بهذه المقاطعة وعدم التعاون مع حكام الجور، الذين ادّعوا الخلافة الإسلامية أن يضيق دائرة نفوذهم، ويوقظ الناس من غفلة اتباع اُناس لا يليق بهم هذا المنصب، لأنّ المقاطعة لحكام الجور ترغمهم على الاعتدال، أو التخلي عن الحكم بدون إراقة دماء، وقد أمر الله تعالى بقوله: **(وَلاَتَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ).**[٩٩]

فكانت مهمة الإمام الصادق (عليه السلام) تطبيق هذا الأمر، لأنّه أنجع وسيلة تنتصر بها الأمم على حكام الجور، الذين يسيرون بغير صواب ويحكمون بغير العدل.

(٩٨) المنافق مشتق من النافقاء، وهو جحر الضبأ أو اليربوع، فالمنافق هو مثل ذلك الحيوان الخبيث يعمل له جحراً في الأرض يسمى النافقاء، له بابان إذا اراد أن يدخل اليه من أحد البابين لوح له بذنبه انه مقبل عليه ليُطمعه، ثم يخرج من الباب الآخر، أو هو كحجرة اليربوع الذي يعملها في الأرض ظاهرة يراها الناس، فإذا ذهبوا إليها إذا به قد أعد جحراً آخر قد أخفاها عن الناس ونافق اليربوع إذا أتى النافقاء.

(٩٩) هود: ١١٣.

الإمام الصادق(عليه السلام)

انطباعات عن شخصيّته

الإمام الصادق(عليه السلام) **انطباعات عن شخصيّته**

تمهيد

للإمام الصادق (عليه السلام) شخصية قوية، ومكانة مرموقة، ومركز ملحوظ عند سائر الطوائف وجميع الفرق، شخصية أقر لها العدو بالفضل. شخصية هي مثال للصفات الكاملة والمزايا الحميدة، فهو الصادق في لهجته، والمنزّه عما لايليق بمنزلته، وهو زعيم أهل البيت(عليهم السلام)وسيدهم في عصره.

لقّب بالصادق لأنّه عرف بصدق الحديث حتى أصبح مضرب المثل في عصره وبعد عصره. قال ابن الحجاج وهو الشاعر المشهور :

يا سيّداً أروي أحاديثه *** رواية المستبصر الحاذق

كأنني أروي حديث النبي *** محمد عن جعفر الصادق(١٠٠)

لقد كان (عليه السلام) مفخرة من مفاخر المسلمين لم تذهب قط، وإنّما بقي منها حتى القيامة صوت صارخ يعلم الزهاد زهداً، ويكسب العلماء علماً.

لقد كانت له هيبة يخضع لها جليسه، وصدق لهجة يطمئنّ إليه من يحدّثه، وحسن بيان ينفذ الى قلوب سامعيه، وقد أعطي من قوّة البيان ووضوح الحجة ما جعل المعاندين يصغون لحسن بيانه، ويخضعون لبرهانه.

وكان من السابقين بالخيرات رغبة بما وعد الله، ومن دعاة الخير الذين لا يدّخرون نصحاً عن المسلمين، حتى انطبع في قلوب معاصريه من العلماء تعظيمه وتبجيله. فكانوا يقصدونه من كلّ الاطراف لاستماع مواعظه والاستفادة من علومه، وكان مجلسه مكتظاً بوجوه الناس من أطراف البلاد النائية، يغتنمون فرصة الاتصال به والانتهال من نمير تعاليمه، ويطلبون المزيد من وصاياه وحكمه النافعة.

وهنا نورد بعض الأقوال المجموعة من رجال عصره، وهي تبيّن انطباعاتهم عنه، لا على سبيل الحصر، لأنّ حصر الأقوال وجمع الانطباعات ممّا يضيق به وسع الكتاب، وقد تقدّم في ثنايا الأجزاء المتقدمة شيء منها أيضاً.

والغرض أنّه كان وحيد زمانه، لا يلحق أثره ولا يبلغ شأوه، وهو المصلح الذي عرف الناس عنه حبّه للإصلاح وبذله النصح لعباد الله، لذلك قصده رجال العلم في عصره من الأقطار النائية، للانتفاع بوفير علمه ومواعظه وحكمه، وقد كان أبو

(١٠٠) مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ٢٩٣ .

حنيفة يغتنم الحضور عنده للاستماع منه عندما دخل الإمام الكوفة كما نصّت على ذلك كتب مناقب أبي حنيفة وسيرته، وكذلك حضر عنده في المدينة سنتين حتى اشتهر عنه قوله: لولا السنتان لهلك النعمان.

انطباعات مالك بن أنس

وكان مالك بن أنس يحضر عند الإمام الصادق ويتأدّب بآدابه ويهتدي بهديه، فكانت له انطباعات في نفسه يحدّثنا عنه بقوله: ما رأت عين ولا سمعت أُذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق علماً وعبادة وورعاً.[١٠١]

انطباعات سفيان الثوري

قال سفيان الثوري: دخلت على الصادق فقلت له: أوصني بوصية أحفظها من بعدك. قال: **وتحفظ ياسفيان؟** قلت: أجل يا ابن رسول الله. قال: **يا سفيان لا مروة لكذوب، ولا راحة لحسود، ولا أخاً لملول، ولا سؤدد لسيّئ الخلق،** ثم أمسك. فقلت يا ابن رسول الله، زدني. فقال: **يا سفيان ثق بالله تكن عارفاً مؤمناً، وارض بما قسمه لك تكن غنياً، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً، وصاحب بمثل ما يصاحبونك به تزدد إيماناً، ولا تصاحب الفاجر فيعلّمك من فجوره، وشاور في أمرك الذين يخشون الله.** قال سفيان: ثم أمسك الإمام فقلت:

يا ابن رسول الله، زدني. فقال: **يا سفيان من أراد عزاً بلا عشيرة، وغنى بلا مال، وهيبة بلا سلطان، فلينتقل من ذل معاصي الله الى عزّ طاعته،** ثم أمسك. فقلت: يا ابن رسول الله، زدني.

فقال: **يا سفيان أدّبني أبي بثلاث ونهاني عن ثلاث، فأمّا اللواتي أدّبني بهن فإنّه قال لي: يابني من يصحب صاحب السوء لا يسلم، ومن لا يملك لسانه يندم، ومن يدخل مداخل السوء يتّهم.** قلت: يا ابن رسول الله، فما الثلاث اللواتي نهاك عنهنّ؟

قال: نهاني أن لا أُصاحب حاسد نعمة، و شامتاً بمصيبة، وحامل نميمة ثم أنشد:

عوّد لسانك قول الخير تحظ به * إنّ اللسان لما عودت معتاد**

موكل بتقاضي ما سننت له * في الخير والشر فانظر كيف تعتاد**[١٠٢]

ودخل عليه مرة أُخرى يطلب المزيد من تعاليمه ووصاياه فقال (عليه السلام): **ياسفيان، الوقوف عند كلّ شبهة خير من الاقتحام في الهلكة، وترك حديث لم تروه أفضل من روايتك حديثاً لم**

(١٠١) شرح الأخبار للقاضي النعمان المغربي ج٣ ص ٢٩٣.
(١٠٢) الخصال ص ١٦٩ ح ٢٢٢.

تحصه، إنّ على كلّ حقّ حقيقة وعلى كلّ صواب نوراً، ما وافق كتاب الله فخذوه وما خالفه فدعوه.[١٠٣]

وقال نصر بن كثير: دخلت أنا وسفيان الثوري على جعفر بن محمد الصادق فقلت له: يا ابن رسول الله، إنّي أريد البيت فعلمني شيئاً أدعو به، فقال(عليه السلام): **إذا بلغت البيت فضع يدك على الحائط ثم قل: يا سابق الفوت، يا سامع الصوت، ياكاسي العظام لحماً بعد الموت،** ثم ادع بما شئت فقال سفيان شيئاً لم أفهمه.

فالتفت إليه (عليه السلام) فقال: **يا سفيان، إذا جاءك ما تحبّ فأكثر من الحمد لله، وإذا جاءك ما تكره فأكثر من لا حول ولا قوّة إلا بالله، وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار.**

ودخل عليه حفص بن غياث، وهو أحد أعلام عصره، والمحدثين في وقته، فطلب منه أن يوصيه وصية ينتفع بها فقال (عليه السلام): **إن قدرتم أن لا تعرفوا فافعلوا، وما عليك إن لم يثن الناس عليك** ـ إلى أن قال ـ : **إن قدرت أن لا تخرج من بيتك فافعل فإن عليك في خروجك أن لاتغتاب، ولا تكذب ولا تحسد، ولا ترائي، ولا تداهن**[١٠٤].

انطباعات زيد بن علي(عليه السلام)

قال زيد بن علي: في كلّ زمان رجل منّا أهل البيت يحتجّ الله به على خلقه، وحجة زماننا ابن أخي جعفر لا يضلّ من تبعه ولا يهتدي من خالفه.[١٠٥]

هذا قول رجل من سادات بني هاشم، وعلم من أعلام الأُمة وفقيه من فقهاء الإسلام، وبطل من أبطال الثورة على الظلم، ومن أباة الضيم، إنّه يكشف عن منزلة الإمام في نفسه، واعتقاده فيه، وهو معاصره، وأكبر منه سناً، وكذلك يكشف للناس ويبيّن لهم منزلة الإمام الصادق (عليه السلام)، فهو يرى أنّه حجة الله في ذلك الزمان، وأنّ الهداية في اتّباعه والضلال في خلافه، وأنّ الله لا يحتجّ إلاّ بمن بلغ درجة الكمال النفساني، وارتقى أعلى منزلة من طاعة الله وامتثال أوامره، فابتعد عن الدنيا وزينتها، وصدف عن زخارفها، وأخلص لله فاستخلصه وطهّره من دنس العيوب وكدر الذنوب.

انطباعات مالك بن أنس

ويقول مالك بن أنس: اختلفت الى جعفر بن محمد زماناً فما كنت أراه إلاّ على إحدى ثلاث خصال: إمّا مصلّياً وإمّا صامتاً وإما يقرأ القرآن، وما رأيته قط يحدّث

(١٠٣) الكافي ج ١ ص ٥٥ ح ١.

(١٠٤) الكافي ج٨ ص١٢٨، تحف العقول للحرّاني ص٣٥٧ .

(١٠٥) المناقب لابن شهر آشوب ج ٢ ص ١٤٧.

عن رسول الله إلاّ على طهارة، ولا يتكلّم بما لا يعنيه، وكان من العلماء العباد والزهّاد الذين يخشون الله.[١٠٦]

هذه شهادة مالك وانطباعاته عن شخصية الإمام، ومالك هو رئيس مذهب من مذاهب الإسلام المعمول بها حتى الآن، وكان معاصراً للامام الصادق (عليه السلام)ومن تلامذته. والذي يعنينا من هذه الكلمة قوله: إنّه كان من العلماء العباد والزهاد، الذين يخشون الله. فالعلم وحده غير نافع بدون عمل، فالإمام الصادق عالم عامل زاهد في الدنيا يخشى الله ويتّبع أوامره، وإنّما يخشى الله من عباده العلماء، ولم يمنعه زهده وتبتّله عن الكسب وطلب المعاش من وجوهه المشروعة مع الاجمال في الطلب والاعتدال في الإنفاق وأداء الحقوق، كما أنّه ينهى عن الكسل والبطالة، ويمقت صاحبها ويفضل رجل العمل ويشجعه عليه. كما دلّت سيرته على ذلك.

فالإمام مالك يكشف لنا انطباعاته عن الإمام الصادق (عليه السلام)، وماعرفه عنه وما اعتقده فيه، بأنّه لاينفكّ عن عبادة الله وتلاوة كتابه، ولا يتكلّم بما لا يعنيه، وكان من العلماء العباد والزهاد الذين يخشون الله، وناهيك بما وراء الخشية من الله والعمل بطاعته، فهي أعظم درجة وأرقى منزلة لدعاة الخير وأئمّة الهدى، وهو فرع من الشجرة النبوية التي طاب غرسها وزكا ثمرها، قد التقى فيه شرف النسب وشرف النفس، وعزة الإيمان وقوّة الحقّ، وهو من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهّرهم تطهيراً. نعم، إنّه من السابقين الى الخير والداعين إليه رغبة بما وعد الله، فهو لم يألُ جهداً في التوجيه الصحيح، وحرصه على هداية الأمة إلى سواء السبيل.

انطباعات أبي حنيفة

وقد كشف لنا أبو حنيفة قبله انطباعاته عن الإمام الصادق (عليه السلام)، وما عرفه عنه وأنّه ما رأى أفقه منه بقوله :

ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد، لما أقدمه المنصور بعث إليّ فقال: يا أبا حنيفة إنّ الناس قد افتتنوا بجعفر بن محمد فهيّئ له من المسائل الشداد. فهيأت له أربعين مسألة ثم بعث إليّ أبو جعفر المنصور وهو بالحيرة، فدخلت عليه وجعفر بن محمد جالس عن يمينه، فلما بصرت به دخلتني من الهيبة لجعفر ما لم يدخلني لأبي جعفر المنصور، فسلمت وأومأ فجلست، ثم التفت إليه قائلاً: يا أبا عبد الله، هذا أبو حنيفة. فقال (عليه السلام): **نعم أعرفه**. ثم التفت المنصور فقال: يا أبا حنيفة الق على أبي عبد الله

(١٠٦) مالك بن أنس، للخولي ص ٩٤، وكتاب مالك لمحمد أبو زهرة ص ٢٨، نقلاً عن المدارك للقاضي عياض ص ٢١٢.

مسائلك. فجعلت القي عليه فيجيبني فيقول: **أنتم تقولون كذا وهم يقولون كذا ونحن نقول كذا، فربما تابعنا وربما تابعهم وربما خالفنا**. حتى أتيت على الأربعين مسألة، ما أخلّ منها مسألة واحدة، ثم قال أبو حنيفة: أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس .[١٠٧]

وهذه القضية تكشف لنا انطباعات أبي حنيفة عن الإمام الصادق (عليه السلام)، وما عرفه عنه، وأنّه ما رأى أفقه منه، وهو أعلم الناس لعلمه باختلاف الناس، ونحن نستظهر من هذه القضية ثلاثة أمور :

١ - اهتمام المنصور بشأن الإمام الصادق (عليه السلام)، لأنّ الناس افتتنوا به على حدّ تعبيره، عندما اشتهر ذكره، حتى سارت به الركبان، والمنصور يعدّ هذا خطراً على دولته، لأنّه لا يريد أن يلتفّ الناس حول الإمام الصادق (عليه السلام)، فذلك يثير مخاوفه منه ويجعله حذراً، ولا يروق له تعلّقهم بالإمام الصادق (عليه السلام)، وانتشار علمه الذي بلغ كل بقعة أنارها الإسلام، كما تنبئ عنه معاملته معه وتشدّده عليه، وترقبه فرصة الفتك به والقضاء عليه.

٢ - وصف أبي حنيفة لهيبة الإمام، وما داخله منها عند رؤيته له، وهو لا سلطان له ولكنّها هيبة منحه الله إيّاها، التي تخضع لها جبابرة الأرض وتذلّ لها ملوكها.

هيبة العلم وجلالة الإمامة وعظمة التقوى، هيبة اندكت أمامها هيبة الإمرة وعظمة السلطان، ورهبة البطش.

يحدثنا ابن أبي العوجاء عندما ناظره الإمام الصادق (عليه السلام)، فسكت ابن أبي العوجاء. قال: فقال لي: **ما يمعنك من الكلام ؟**

قلت: إجلالاً لك ومهابة منك، ما ينطق لساني بين يديك، فإني شاهدت العلماء وناظرت المتكلمين، فما تداخلني من هيبة أحد منهم مثلما تداخلني من هيبتك.

ويقول المفضل بن عمر: إنّ المنصور قد همّ بقتل أبي عبد الله غير مرة فكان إذا بعث إليه ليقتله فإذا نظر إليه هابه.[١٠٨]

فالمنصور صاحب الدولة والسلطة، والجيش والحرس، ومن عرف بالشدة والتجبر، تندك هيبته أمام هيبة الإمام (عليه السلام) وعظمته، لأنّها لم تكن مصطنعة، بل هي التي يفيضها الله تعالى على من يشاء من عباده.

ولا تختلف هذه الهيبة باختلاف الناس معه; فإنّ كلّ واحد كان يشعر في نفسه بتلك الهيبة له، سواء الوليّ والعدو والموالف والمخالف.

(١٠٧) مناقب أبي حنيفة للمكي ج ١ ص ١٧٣، وجامع مسانيد أبي حنيفة ج ١ ص ٢٥٢، وتذكرة الحفاظ للذهبي ج ١ ص ١٥٧.

(١٠٨) حياة الإمام الصادق، للسبيتي ص ٢٥.

على انّه (عليه السلام) كان بين أصحابه وجلسائه كواحد منهم ينبسط لهم بالكلام ويؤانسهم بالحديث، ويجلس معهم على المائدة.

٣ - نستطيع أن نلحظ من وراء هذه الرواية أسباب تقرّب المنصور للعلماء وتظاهره بمناصرة العلم، وبالأخص من كانت له شهرة في محيطه كأبي حنيفة، وقد نوّهنا عن هذه الأسباب في الأبحاث السابقة.

انطباعات المنصور الدوانيقي

وقد شهد المنصور - وهو أشدّ الناس خصومة له، وأعظمهم عداوة وتألباً عليه - بأنّ الإمام الصادق كان من السابقين بالخيرات، ومن الذين اصطفاهم الله من عباده، وأورثهم الكتاب.

قال إسماعيل بن علي بن عبد الله بن العباس: دخلت على أبي جعفر المنصور يوماً فرأيته وقد اخضلّت لحيته بالدموع وقال لي: ما علمت ما نزل بأهلك؟

فقلت: وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟

قال : فإنّ سيدهم وعالمهم، وبقية الأخيار منهم توفي.

قلت : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟

قال : هو جعفر بن محمد .

فقلت : عظم الله أجر أمير المؤمنين وأطال لنا بقاه.

فقال لي المنصور : إن جعفر بن محمد كان ممن قال الله فيه: (**ثُمَّ أَوْرَثْنَا ا لْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**) وكان ممّن اصطفى الله وكان من السابقين بالخيرات.[١٠٩]

وللمنصور كلمة أُخرى تعبّر عن انطباعاته وما عرفه عن الإمام الصادق، وهي قوله لابن المهاجر: إعلم أنّه ليس من أهل بيت إلاّ وفيهم محدّث، وإنّ جعفر بن محمد محدثنا اليوم.[١١٠]

ولهذه الكلمة قصة: وهي أنّ المنصور قال لمحمد بن الأشعث: يامحمد، ابغ لي رجلاً له عقل يؤدي عني. فقال له محمد: إنّي قد أصبته لك هذا ابن المهاجر خالي.

قال: فأتني به، فلمّا أتاه، قال له أبو جعفر: يا ابن المهاجر، خذ هذا المال، وأتي المدينة، وأتي عبد الله بن الحسن، وجعفر بن محمد، وجماعة، وادفع إليهم هذا المال، وقل لهم: هذا من شيعتكم بخراسان، فإذا قبضوا المال فقل: إنّي رسول وأحبّ أن

(١٠٩) تاريخ ابن واضح ج ٣ ص ١٧.

(١١٠) المجالس الحسينية لمحمد علي دخيل ص ٩٣، أصول الكافي ص٢٦٠.

يكون معي خطوطكم بقبضكم ما قبضتم، فأخذ المال وأتى المدينة، ثم رجع إلى أبي جعفر المنصور فقاله له: ما وراءك؟

قال: أتيت القوم وهذه خطوطهم بقبضهم المال خلا جعفر بن محمد فإنّي أتيته وهو يصلي في مسجد النبيّ، فجلست خلفه وقلت: ينصرف فأذكر له ماذكرت لأصحابه، فتعجّل وانصرف وتبعته فالتفت إليّ. وقال: **ياهذا اتّق الله، ولا تُغري أهل بيت محمد:، فإنّهم قريبو العهد من دولة بني مروان، وكلّهم محتاج**. قلت: وما ذاك أصلحك الله؟ قال: فأدنى رأسه مني فأخبرني بما جرى بيني وبينك.

فقال المنصور: يا ابن المهاجر، إعلم أنّه ليس من أهل بيت نبوة إلاّ وفيهم محدّث وإنّ جعفر بن محمد محدثنا اليوم ، فالمنصور مع شدّة عدائه للإمام الصادق(عليه السلام)، وبغضه له فهو يقول الحقّ في عدة مناسبات، ويصرّح بما يخالف أفعاله، فمرة يصفه بأنّه من السابقين في الخيرات الذين اصطفاهم الله من عباده وبأنّه محدّث. فكأنه ثاب إليه رشده أو نزع نفسه من مقتضيات السلطان والإمارة، ومرات يهدد بقتله ويستعد لتنفيذ ما يمليه عليه حقده.

ويقول: - عندما يتحدّث الناس عن علم الصادق (عليه السلام) - هذا الشجى المعترض في حلقي، من أعلم الناس في زمانه فيجمع بين الحقيقة وبين بغيه وحقده.(١١١)

ويقول: إنّه ممن يريد الآخرة لا الدنيا .(١١٢)

ويقول مخاطباً الإمام الصادق (عليه السلام): لا نزال من بحرك نغترف وإليك نزدلف، تبصر من العمى، وتجلو بنورك الطخيا - الليلة المظلمة - فنحن نعوم في سحاب قدسك، وطامي بحرك.(١١٣)

وقال لحاجبه الربيع: وهؤلاء من بني فاطمة لا يجهل حقهم إلا جاهل، لا حظ له في الشريعة .(١١٤)

ومع هذه الاعترافات في حقّ الإمام الصادق (عليه السلام) فهو لا يستطيع أن يتغلّب على هواه أو ينتصر على نفسه، فينطلق من عقال حقده، ويعرف للإمام منزلته، ويرعى حقّه ويحفظ قرابته من رسول الله (صلى الله عليه وآله).

ولكنّ المنصور كان خصماً لا يلين، وجباراً لا يرعوي، ومتعنّت لا يخضع لحقّ، ولا يرتدع عن باطل، فقد كان يثقل عليه انتشار ذكر جعفر بن محمد في أندية العلم

(١١١) كشف الغمة ج ٢ ص ٤١٣.
(١١٢) بحار الأنوار ج ٤٧ ص ١٨٥.
(١١٣) فلاح السائل ص ٢٥ .
(١١٤) انظر بحار الأنوار ج ٤٧ ص ١٦٢ - ٢١٢.

وحلقات الدرس، والعلماء يستدلّون بروايته ويستشهدون بقوله فيكون قوله الفصل وحكمه العدل.

ولذلك فقد وقف للإمام بالمرصاد، يحاول الفتك به والقضاء عليه، مع معرفته بمنزلته، قد أخذته العزة بالإثم، والطمع في الملك، فهو دائماً مع شهواته، أسير هواه وأطماعه.

وتكاد تكون سياسة المنصور اتجاه الإمام الصادق أهم وجوه الحكم، فقد كان الإمام الصادق شغل المنصور الشاغل، وقد سلك معه كلّ السبل حتى كأنّه بات يواجه ثورة على وشك الاشتعال بفعل نشاط الإمام الصادق ومكانته، فنرى المنصور يتذرّع إمّا بالحج ليأتي المدينة، ويتحرى أخبار الإمام ويبعث إليه ليأتيه، أو يوجه إليه الى العراق، وفي كلّ مرة يفقد توازنه ويكشّر عن أنياب حقده فيهدد بقتل الإمام، أو يترك نفسه على سجيتها فيسيء الأدب معه، أو يحاول أن يوقع بالإمام الصّادق حيث يوهمه حقده أن بإمكانه أن يجد من هو أعلم من الإمام(عليه السلام) .

وسيأتيك في الأجزاء القادمة تفاصيل العلاقة بين رأس النظام المنصور وبين الإمام الصادق(عليه السلام)، وترى وجوه العناية الربانية التي حفظت الإمام من مكائد هذا الطاغية.

انطباعات ابن أبي ليلى

قال نوح بن دراج: قلت لابن أبي ليلى[١١٥]: أكنت تاركاً قولاً قلته وقضاء قضيته لقول أحد؟

قال: لا إلاّ لرجل واحد. قلت: من هو؟ قال: هو جعفر بن محمد الصادق [١١٦].

(١١٥) ابن أبي ليلى: هو عبد الرحمن بن أبي ليلى الأنصاري، المتوفى سنة (١٤٨ هـ) روى الحديث عن أخيه عيسى والشعبي وعطاء ونافع، وروى عنه شعبة والسفيانان ووكيع. والشيء الذي نريد أن نوضحه هنا هو: أن عبد الرحمن بن أبي ليلى أبا محمد، هو غير عبد الرحمن بن أبي ليلى الأوسي الكوفي المعروف بابن أبي ليلى، فإنّ هذا من أصحاب الإمام علي وشهد مشاهده كلها، وهو من التابعين، وقد ضربه الحجاج بن يوسف بالسياط حتى اسودّت كتفاه، وذلك عندما أمره أن يشتم علياً وينتقصه، فامتنع ابن أبي ليلى، فأقامه الحجاج في المسجد وأمر بضربه، وأخذ ابن أبي ليلى يحدث الناس بفضائل علي، ولم يعبأ بتعذيب الحجاج وتهديده، وقد خرج على الحجاج في وقعة دير الجماجم سنة (١٨٣ هـ) استنكاراً على الحجاج لتأخيره الصلاة حتى يفوت وقتها، وقيل إن الحجاج قبض عليه مرة أخرى وقتله، وقيل إنه غرق في النهر هو ومحمدبن الأشعث وذلك في سنة (١٨٣ هـ).

(١١٦) بحار الأنوار ج ٤٧ ص ٢٩.

هذا قول فقيه من فقهاء ذلك العصر وقاض من قضاة الدولتين الأموية والعباسية، وقد وصفوه بأنّه أفقه أهل الدنيا، كما وصفوه بأنه صاحب قرآن وسنة، وأنّه صدوق، وجائز الحديث، وخرّج حديثه الأربعة، وقد أقام قاضياً ثلاثاً وثلاثين سنة.

ومهما تكن حاله فهو بكلمته هذه يكشف لنا عن انطباعاته بعلم الإمام الصادق وعظيم منزلته، وما عرفه عنه من قدم راسخ في العلم، فهو لا يرى أحداً يترك قوله لقوله أو قضاء قضاه لأيّ أحد إلاّ لمن هو أعلم منه، ولا يعتقد بهذه المنزلة لأيّ رجل في عصره، إلا للإمام الصادق (عليه السلام) .

انطباعات عمر بن عبيد

دخل عمر بن عبيد على الإمام الصادق (عليه السلام)، فطلب من الإمام أن يعدّد له الكبائر وقال: أحبّ أن أعرفها من كتاب الله، أو سنة رسوله، لأنّ الخلاف قد تعاظم بين المسلمين، في مسألة مرتكب الكبيرة، واحتدم النزاع في ذلك العصر، وعقدت المجالس للمناظرة فيها.

فقال له الإمام: نعم يا عمر وفصلها له :

١ ـ الشرك بالله (**إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشرَكَ بِهِ**)[١١٧].

٢ ـ عقوق الوالدين: لأنّ العاق جبار شقي (**وَبَرّاً بِوالِدَتي وَلَم يَجعَلني جَبّاراً شَقِيّاً**).[١١٨]

٣ ـ قذف المحصنات (**إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**).[١١٩]

٤ ـ أكل مال اليتيم (**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ا لْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا**)[١٢٠] .

٥ ـ الفرار من الزحف (**وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئذ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرّفًا لِقِتَال أَوْ مُتَحَيّزًا إِلَى فِئَة فَقَدْ بَاءَ بِغَضَب مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**)[١٢١].

٦ ـ قتل النفس (**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا**)[١٢٢] .

(١١٧) النساء: ١١٦.
(١١٨) مريم: ٣٢.
(١١٩) النور: ٢٣ .
(١٢٠) النساء: ١٠.
(١٢١) الأنفال: ١٦.
(١٢٢) النساء: ٩٣.

٧ - نقض العهد وقطيعة الرحم (**الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَـئِكَ هُمُ ا لْخَاسِرُونَ**)(١٢٣) .

ويستمر الإمام (عليه السلام) في تعداد الكبائر بأوضح بيان، ويستشهد على كلّ واحدة منها بآية من كتاب الله أو سُنّة من رسوله، حتى أتى على آخرها، وعمر ابن عبيد يصغي لبيانه، فلما انتهى الإمام (عليه السلام) قال عمر بن عبيد: هلك من سلبكم تراثكم ونازعكم في الفضل والعلم .(١٢٤)

وهذه الكلمة من عمر بن عبيد، وهو رئيس من رؤساء المعتزلة وعالم من علماء الأمة، قالها بعد أن عرف ما عند الناس حول هذه المشكلة، وهي فعل الكبير وقد ناظر وجادل وجاء للإمام الصادق (عليه السلام) ليكون قوله الفصل وحكمه العدل، فهو يرى أنّ الإمام (عليه السلام) معدن العلم والفضل، ومن حاول أن يتقدّم عليه في هذه المنزلة فهو هالك.

وخلاصة القول في هذه الأقوال أنّها صدرت عن أناس لايتّهمون بالتحيز; فإنّ كلمة كلّ واحد منهم إنّما تنطبق على الواقع، وليس فيها ميل ولا تحيّز.

فمالك بن أنس كان لا يعرف بموالاة أهل البيت (عليهم السلام)، ولا بالدعاية لهم، ولم تكن نزعته نزعة شيعية فيتهم، بل كانت نزعته أقرب ما تكون إلى النزعة الأموية، فإنّه يميل إليهم، فانطباعاته عن شخصية الإمام بأنّه من العلماء الزهاد الذين يخشون الله، وأنّه لا يفتر عن طاعة الله، في سرّه وفي علنه، كلّ ذلك صادر عن واقع لا تحيز فيه، ولا ميل، بل هو الحقّ الذي لا شبهة فيه ولا غبار عليه، وقد لازمه مدة من الزمن، وحضر مجالس درسه ووعظه، ورافقه في سفره للحج، فلم يجد فيه إلاّ العالم الزاهد، الذي خالف هواه وعمل بما علم، واتقى الله حقّ تقاته، فكان من الصادقين الذين يهتدى بهديهم ويقتدى بهم.

وكذلك أبو حنيفة واعترافه بانّ الإمام الصادق كان أعلم الناس وأفقههم، فهو قول صادر عن واقع بل عن خبرة ودراية، فهو لايتّهم في قوله، وهو بعيد عن أسباب الاتهام، لأنّه لم يعرف بميله للتشيع.

وأمّا المنصور فناهيك به من عدوّ لدود، وخصم شديد، إذ يشهد بما تقدّم فإنّما ذلك من باب :

ومناقب شهد العدو بفضلها *** والفضل ما شهدت به الأعداء

(١٢٣) البقرة: ٢٧.

(١٢٤) كتاب الإمام الصادق للأستاذ رمضان لاوند ص ٢٠ - ٢٢ .

وكما أنّ هؤلاء لا يتهمون بتصريحهم عمّا يعتقدونه في نفوسهم عن شخصيّة الإمام، كذلك لا يتّهم عبد الله بن المبارك في مدح الإمام الصادق (عليه السلام)وتصريحه عن اعتقاده فيه عندما استقبله في بعض الأيام فقال :

أنت يا جعفر فوق الـ *** مدح والمدح عناء

إنّما الأشراف أرض *** ولهم أنت سماء

جاز حدّ المدح من *** قد ولدته الأنبياء

ويقول أيضاً :

الله أظهر دينه *** وأعزّه بمحمد

والله أكرم بالـ *** خلافة جعفر بن محمد [١٢٥]

وعلى أيّ حال، فإنّ استيفاء هذا البحث بالبيان عن جميع ما يلمّ به; من ذكر انطباعات العلماء والأدباء عن شخصية الإمام في عصره وبعد عصره أمر يطول شرحه، وقد أشرنا للبعض منه في الجزء الأول، وللمزيد من الوقوف على نواحي عظمته والسير على أضواء تعاليمه، نودّ هنا ذكر فصول من حكمه وفكره الخوالد، التي أرسلها عبر الدهور معلّماً للأجيال، وهو يضع في كلّ منها حجر الأساس لأعظم الأسس التربوية التي يتجلّى فيها روح الصلاح وحبّ الإصلاح.

(١٢٥) مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ٢٩٩.

الإمام الصّادق(عليه السلام)

فصول من حِكَمِه

الإمام الصّادق (عليه السلام) **فصول من حِكَمِهِ**

تمهيد

إنّ للحكم والأقوال التي ينطق بها كبار الرجال والمصلحون، أهميّة كبرى في حياة الأمم التي تنشد الرقي، لتمهّد لنفسها الطريق إلى السعادة، فالحكم التي يوجهها المصلحون بما يتعلق بمقتضيات الأمور الاجتماعية، والاقتصادية، وبكلّ شيء يمت إلى حياتهم التي يحيونها بصلة، إنّما هي سجل خالد تتلخص فيه الشخصية، وتتبلور فيه الأخلاق والخصائص الفردية والاجتماعية.

إنّ أولئك المصلحون والمرشدون في كلّ أمة وفي كلّ عصر يدلون بحكمهم وإرشاداتهم لا يرومون من ورائها إلاّ سعادة المجتمع الذي يعيشون فيه، فهم ينيرون الطريق بشعلة من الأفكار; ليوجّهوا الناس إلى مناهج الحياة الصحيحة، والابتعاد عن مهاوي الجهل، ومخاطر الفساد.

وقد خلدت آثارهم عبر القرون تتلقّاها الأجيال فتلقي عليهم دروساً نافعة، وتلقي أضواء تكشف عن شخصياتهم فتبعث إلى الوجود من جديد، وتمرّ العصور وهم أحياء بتلك الذكريات الخالدة.

وكان أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله) وخلفاؤه من بعده هم خير من أوجب النصح للمسلمين على أنفسهم، جاعلين نصب أعينهم خدمة الأمة في التوجيه الصحيح، والسير بهم فى طريق الهدى والرشاد، فكانت سيرتهم وحكمهم تدلّ على مدى اهتمامهم في أداء رسالتهم، وقد خاضوا غمرات المحن في سبيل تحقيق ذلك، فكانوا خير قادة للرشاد وأئمة للهدى. جرّبوا الحياة ومارسوها، وكلّ منهم واجه ظروفاً خاصة، وخاضوا معترك الحياة، فكانت أقوالهم وحكمهم خلاصة تجارب، وثمرة كفاح عانوه.

وكان للإمام الصادق (عليه السلام) تراث فكري وثروة كبيرة من الحكم الأخلاقية تعدّ فى الواقع أعظم أثر من آثار دعاة الإصلاح، وقادة الخير والرشاد فهو (عليه السلام)لا يهدأ لحظة عن الإرشاد إلى طاعة الله، ولا تفوته فرصة يرجو فيها تنظيم العلاقات الاجتماعية وتهذيب النفوس من كل مايؤدّي إلى قطع تلك الروابط بين أفراد المجتمع. فكانت أقواله(عليه السلام) في كلّ مناسبة توجيهاً، ووصاياه في كل حين إرشاداً. أما إذا استخلص التعاليم واستصفى النظرات فإنّه(عليه السلام) يأتي بموجز من البيان وينطق

بعبارات يسيرة ترقى الى أعلى مراتب الحكمة، وتسمو الى أرفع منازل الإيمان، ويتخلل منهجه(عليه السلام) في الدعوة والإرشاد بيان مشرق ويضمّه سياق التحكيم.

ولقد قدّمنا في أبحاثنا السابقة من هذا الكتاب بعض تلك الحكم، ونجد لزاماً علينا أن نزين هذا الجزء ببعض جواهر حكمه التي تضمّنت أهمّ النقاط الاجتماعية والخلقية، وكلّ مايتعلق بأُمور الفرد والمجتمع، فهو (عليه السلام) يعالج الأُمور بأسلوب يعجز القلم عن وصفه، وحكمة يتلعثم اللسان عن بيانها.

لقد عُرف (عليه السلام) بين الناس بكرم الأخلاق وصدق الحديث، وحسن المجالسة. وقد منحه الله سلامة الفطرة، وصفاء الحس، ونفاذ البصيرة وحسن البيان، فكان خير داعية للخير، ومرشد للهدى، يزدحم مجلسه بمختلف الطبقات والطوائف، وينتهلون من تعاليمه، ويتزودون من حكمه وأخلاقه، وقد وجدوا فيه المصلح الاجتماعي العظيم، والمرشد الديني الكبير.

إنّهم وجدوا فيه عالماً وإنساناً كاملاً، يهدي إلى الرشاد، ويدعو إلى سواء السبيل، وقد خرّجت مدرسته علماء أعلاماً ورجال إصلاح خدموا الإنسانية جمعاء خدمة لا تنكر.

إنّه (عليه السلام) لم يدّخر نصحاً عن أحد، ولم يألُ جهداً في توجيه النصح لكلّ أحد، فتجد له في كلّ مناسبة قولاً، وفي كلّ مجال حكمة، ولكلّ مشكلة حلاً، وإنّ منهجه القويم وطابعه الأخلاقي ليظهران على كلّ كلمة نقلت عنه، وعلى كلّ أثر نسب إليه.

إنّ تلك الفكر الخوالد تتصف بصفة الشمول لجميع نواحي الحياة الإنسانية; وتوضّح للمسلم تعاليم دينه الصحيح، وهي تمتّ إلى واقع المسلمين فى كلّ عصر، وهي الدواء لأمراض المجتمع، والحلّ الصحيح لمشكلاته.

وهانحن نذكر هنا بعض حكمه ومواعظه، في أُمور متفرقة اقتبسناها من تلك الثروة العلمية، بدون شرح وتعليق، لأنّنا عزمنا على إبراز ماجمعناه من حكمه وتراثه الفكري على حدة، مع شرح يكشف معانيها، ويبين مرادها، ومن الله نستمد العون وهو ولي التوفيق.

حِكَمه وأقواله

*** اتقوا الله واعدلوا، فإنّكم تعيبون على قوم لا يعدلون.**

*** إياكم والخصومة فإنّها تشغل القلب، وتورث النفاق، وتكسب الضغائن،** قال النبي(صلى الله عليه وآله): **ماكاد جبرائيل يأتيني إلا قال: يامحمد، اتق شحناء الرجال، وعداوتهم.**

*** أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة، وأنقص الناس عقلاً من ظلم مَن دونه، ومن لم يصفح عمن اعتذر إليه.**

*** إنّ من حقيقة الإيمان أن توثر الحقّ وإن ضرّك، على الباطل وإن نفعك.**

*** احفظ لسانك تعز، ولا تمكّن الناس من قيادك فتذل رقبتك.**

*** إياكم وسؤال الناس; فإنّه ذل في الدنيا وفقر تعجّلونه، وحساب طويل يوم القيامة.**

*** اطلبوا العلم ولو بخوض اللجج، وشقّ المهج.**

*** إذا أردت أن تختبر عقل الرجل في مجلس واحد فحدثه في خلال حديثك بما لا يكون، فإن أنكره فهو عاقل، وإن صدّقه فهو أحمق.**

*** إنّ هذا العلم عليه قفل ومفتاحه السؤال.**

*** إن يسلم الناس من ثلاثة أشياء كانت سلامة شاملة: لسان السوء، ويد السوء، وفعل السوء.**

*** العاقل من كان ذلولاً عند إجابة الحقّ، منصفاً بقوله جموحاً عند الباطل، يترك دنياه ولا يترك دينه، ودليل العاقل شيئان: صدق القول وصواب الفعل، والعاقل لا يتحدث بما ينكره العقل، ولا يتعرض للتهمة ولا يدع مداراة من ابتلي به، ويكون العلم دليله في أعماله، والحلم رفيقه في أحواله، والمعرفة تعينه في مذاهبه، والهوى عدوّ العقل ومخالف الحقّ، وقرين الباطل، وقوّة الهوى من الشهوة، وأصل علامات الشهوة أكل الحرام، والغفلة عن الفرائض والاستهانة بالسنن والخوض في الملاهي .**

*** أحسنوا النظر فيما لا يسعكم جهله، وانصحوا لأنفسكم، وجاهدوها في طلب معرفة مالا عذر لكم في جهله، فإنّ لدين الله أركاناً لا ينفع من جهلها بشدة اجتهاده في طلب ظاهر عبادته، ولا يضر من عرفها فدان بها حسن اقتصاده، ولا سبيل لأحد إلى ذلك إلاّ بعون الله عزّ وجل.**

*** إنّ السرف يورث الفقر وإنّ القصد يورث الغنى.**

*** إذا بلغك عن أخيك ماتكرهه; فاطلب له من عذر واحد إلى سبعين عذراً، فإن لم تجد له عذراً فقل: لعلّ له عذراً لا أعرفه.**

*** إنّ الله ارتضى لكم الإسلام ديناً فأحسنوا صحبته بالسخاء وحسن الخلق.**

*** إنّ العمل الدائم القليل على يقين أفضل عند الله من العمل الكثير على غير يقين.**

*** أحبّ اخواني إليّ من أهدى إليّ عيوبي.**

*** إنّ سرعة ائتلاف قلوب الأبرار إذا التقوا وإن لم يظهروا التودد بألسنتهم، كسرعة اختلاط ماء السماء بماء الأنهار، وإنّ بعد ائتلاف قلوب الفجار إذا التقوا، وإن أظهروا التودد بألسنتهم كبعد البهائم من التعاطف، وإن طال ائتلافها على مذود واحد.**

*** إياك ومخالطة السفلة فإنّ مخالطة السفلة لا تؤدي إلى خير.**

*** إنّ مثل الدنيا كمثل ماء البحر كلما شرب العطشان منه ازداد عطشاً.**

***إن عيال الرجل أسراؤه فمن أنعم عليه الله فليوسع على أسرائه، فإن لم يفعل يوشك أن تزول تلك النعمة عنه.**

*** اتقوا الله وصونوا دينكم بالورع.**

*** أنظر إلى من هو دونك في المقدرة، ولا تنظر إلى من هو فوقك، فإنّ ذلك أقنع لك بما قسم الله لك، وأحرى أن تستوجب الزيادة منه عزّ وجل، واعلم أنّ العمل الدائم القليل على اليقين أفضل عند الله من العمل الكثير على غير يقين، واعلم أنّه لا ورع أنفع من تجنب محارم الله، والكفّ عن أذى المؤمن، ولا مال أفضل من القناعة باليسير المجزي، ولا جهل أضر من العجب.**

*** إنّ الغنى والعزّ يجولان فإذا ظفرا بموضع التوكل أوطناه.**

*** ألا وإن أحبّ المؤمنين إلى الله من أعان المؤمن الفقير من الفقر في دنياه ومعاشه، ومن أعان ونفع ودفع المكروه عن المؤمنين.**

*** إن صلة الرحم والبرّ ليهوّنان الحساب، ويعصمان من الذنب، فصلوا أرحامكم، وبرّوا إخوانكم، ولو بحسن الجواب ورد السلام.**

***احذروا سطوات الله بالليل والنهار فقيل له: وماسطوات الله؟ فقال: أخذه بالمعاصي.**

*** إياك وخصلتين: الضجر والكسل، فإنك إن ضجرت لم تصبر على حقّ، وإن كسلت لم تؤد حقّه.**

*** إياك والرياء، فإنّه من عمل لغير الله وكّله الله إلى من عمل له.**

*** باشر كبار أمورك بنفسك وكل ماصغر منها لغيرك.**

*** البركة أسرع إلى البيت الذي يمتاز فيه المعروف من الشفرة إلى سنام البعير والسيل إلى منتهاه.**

*** إياكم والخصومة في الدين، فإنّها تشغل القلب عن ذكر الله وتورث النفاق، وتكسب الضغائن، وتستجيز الكذب.**

*** إنّما أعطاكم الله هذه الفضول من الأموال لتوجهوها حيث وجّهها الله عزّ وجل ولم يعطكموها لتكنزوها.**

*** إذا بلغك عن أخيك شيء فلا تغتم، فإن كان كما يقول كانت عقوبة عجلت، وإن كان على غير مايقول كانت حسنة لم تعملها.**

*** إنّ أبغض خلق الله تعالى عبد اتقى الناس لسانه.**

*** أيما أهل بيت أعطوا حظهم من الرفق فقد وسع الله عليهم في الرزق، والرفق في تقدير المعيشة خير من سعة المال، والرفق لا يعجز عن شيء والتبذير لا يبقى معه شيء، إنّ الله عز وجل رفيق يحبّ الرفق.**

*** اصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى من ليس هو أهله، فإن لم يكن هو من أهله فكن أنت من أهله.**

*** إنّ من عرف نعمة الله بقلبه; استوجب المزيد من الله قبل أن يظهر شكرها على لسانه.**

*** تدخل يدك في فم التنين إلى المرفق خير لك من طلب الحوائج إلى من لم يكن له ثم كان.**

*** ثلاثة لم يجعل الله لأحد من الناس فيهن رخصة: بر الوالدين، برين كانا أو فاجرين، والوفاء بالعهد للبر والفاجر، وأداء الأمانة للبر والفاجر.**

*** تأخير التوبة اغترار، وطول التسويف حيرة، والاعتدال على الله هلكة، والاصرار على الذنب أمن من مكر الله، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.**

*** ثلاثة من لم تكن فيه فلا يرجى خيره أبداً: من لم يخش الله في الغيب، ولم يرعو عند الشيب، ولم يستح من العيب.**

*** تحتاج الأخوة فيما بينكم إلى ثلاثة أشياء فإن استعملتموها وإلا تباينتم وهي: التناصف، والتراحم، ونفي الحسد.**

*** ثلاثة من استعملها أفسد دينه ودنياه: من أساء ظنه، وأمكن من سمعه وأعطى قياده حليلته.**

*** ثلاثة تجب على السلطان للخاصة والعامة: مكافأة المحسن بالإحسان ليزدادوا رغبة فيه، وتغمد ذنوب المسيئين ليتوب ويرجع عن غيّه، وتألفهم جميعاً بالإحسان والإنصاف.**

*** ثلاثة تدل على كرم المرء: حسن الخلق، وكظم الغيظ، وغض الطرف.**

*** الجهل في ثلاث: الكبر والمراء والجهل بالله فأولئك هم الخاسرون.**

*** حسن الظن بالله أن لا ترجو إلا الله ولا تخاف إلا ذنبك.**

*** الحزم في ثلاث: الاستخدام للسلطان، والطاعة للوالد والخضوع للمولى.**

*** الحياء والإيمان مقرونان فإذا ذهب أحدهما اتبعه الآخر.**

*** خلّوا سبيل المعسر كما خلاه الله إشارة لقوله تعالى: (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَة فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَة).**

*** خفِ الله كأنّك تراه، وإن كنت لا تراه فإنّه يراك، وإن كنت ترى أنّه لا يراك فقد كفرت، وإن كنت تعلم أنّه يراك ثم بدرت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين إليك.**

*** خذ من حسن الخلق بطرف تروّج به أمرك، وتروّح به قلبك.**

*** خير السادة أرحبهم ذراعاً عند الضيق، وأعدلهم حلماً عند الغضب، وأبسطهم وجهاً عند المسألة، وأرحمهم قلباً إذا سلط، وأكثرهم صفحاً إذا قدر.**

*** الدَّين غم في الليل وذل في النهار.**

*** داووا مرضاكم بالصدقة وادفعوا البلاء بالدعاء.**

*** دراسة العلم لقاح المعرفة، وطول التجارب زيادة في العقل، والشرف والتقوى والقنوع راحة الأبدان.**

*** رأيت المعروف لا يصلح إلا بثلاث خصال: تصغيره، وستره وتعجيله.**

فإنك إن صغرته عظمته عند من تصنعه إليه، وإذا سترته تممته، وإذا عجلته هنأته، فإذا فعلت غير ذلك سخفته ونكدته.

*** رأيت المعروف كاسمه، وليس شيء أفضل من المعروف إلا ثوابه وذلك يراد منه، وليس كلّ من يحب إلى الناس يصنعه، وليس كل من يرغب فيه يقدر عليه ولا كلّ من يقدر عليه يؤذن له فيه، وإذا اجتمعت الرغبة والقدرة فهناك تمت السعادة للطالب والمطلوب.**

***الرجال ثلاثة : عاقل وأحمق وفاجر. فالعاقل إن كلّم أجاب وإن نطق أصاب، وإن سمع وعى، والأحمق إن تكلم عجّل، وإن حمل على القبيح فعل، والفاجر إن ائتمنته خانك وإن حدثته شانك.**

***سرك من دمك فلا تجره في غير أوداجك.**

***ستة لا تفارقهم الكآبة : الحقود، والحسود، وفقير قريب العهد بالغنى وغني يخشى الفقر، وطالب رتبة يقصر عنها قدره، وجليس أهل الأدب وليس منهم.**

*** سيد الأعمال ثلاثة: إنصاف الناس من نفسك، حتى لا ترضى بشيء إلا رضيت لهم مثله، ومواساة الأخ بالمال، وذكر الله على كلّ حال. ثم قال: ليس هو سبحان الله والحمد لله ولا إله الله والله أكبر فقط، ولكنّ إذا ورد عليك ما أمر الله به أخذت به وإذا ورد عليك شيء نهى الله عنه تركته.**

***الصفح الجميل: أن لا تعاقب على الذنب، والصبر الجميل الذي ليس فيه شكوى.**

***صلة الأرحام تحسن الخلق وتطيب النفس، وتزيد في الرزق، وتنسي الأجل.**

***صدرك أوسع لسرك.**

***الصلاة قربان كلّ تقي، والحج جهاد كلّ ضعيف، وزكاة البدن الصيام والداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر، واستنزلوا الرزق بالصدقة، وحصنوا أموالكم بالزكاة، وماعال من اقتصد، والتدبير نصف العيش، والتودد نصف العقل، وقلة العيال أحد اليسارين، ومن أحزن والديه فقد عقهما، ومن ضرب يده على فخذه عند مصيبة فقد حبط أجره، والصنيعة لا تكون صنيعة إلا عند ذي حسب ودين، والله تعالى منزل الصبر على قدر المصيبة، ومنزل الرزق على قدر المؤنة، ومن قدر معيشته رزقه الله، ومن بذر معيشته حرمه الله.**

*** صلة الرحم تهون الحساب يوم القيامة وهي منسأة في العمر وتقي مصارع السوء.**

***صدقة يحبها الله: إصلاح بين الناس إذا تفاسدوا وتقارب إذا تباعدوا.**

***صلاح حال التعايش والتعاشر على مكيال، ثلثاه فطنة وثلث تغافل.**

***ضمنت لمن اقتصد أن لا يفتقر.**

***احذروا عواقب العثرات.**

***إنّ المؤمن أخو المؤمن، عينه ودليله، لا يخونه ولا يظلمه، ولا يغشه، ولا يعدّه عدة فيخلفه.**

***طلب الحوائج إلى الناس استلاب للعز ومذهبة للحياء، واليأس ممّا في أيدي الناس عزّ للمؤمن في دينه، والطمع هو الفقر الحاضر.**

***الطيرة على ماتجعلها إن هونتها تهونت، وإن شددتها تشدّدت، وإن لم تجعلها شيئاً لم تكن.**

***مامن أحد يتيه إلاّ لذلة يجدها في نفسه.**

***مامن أحد تكبر أو تجبر إلا لذلة وجدها في نفسه.**

***ماأقبح بالمؤمن من أن تكون له رغبة تذله.**

***إن المشورة لا تكون إلا بحدودها فمن عرفها بحدودها وإلا كانت مضرّتها على المستشير أكبر من نفعها:**

فأولها: أن يكون الذي تشاوره عاقلاً.

والثانية : أن يكون حرّاً متديناً.

والثالثة : أن يكون صديقاً مواخياً.

والرابعة : أن تطلعه على سرك، فيكون علمه به كعلمك بنفسك، ثم يسر لك ويكتمه، فإنّه إذا كان عاقلا أنتفعت بمشورته، وإن كان حرّاً متديناً أجهد في النصيحة لك، وإذا كان صديقاً مواخياً كتم سرك إذا اطلعته عليه، وإذا اطلعته على سرّك فكان علمه به كعلمك به، فهناك تمت المشورة وكملت النصيحة.

***الصداقة محدودة فمن لم تكن فيه تلك الحدود فلا تنسب إلى كمال الصداقة ومن لم يكن فيه شيء من تلك الحدود فلا تنسبه إلى شيء من الصداقة :**

أولها: أن تكون سريرته وعلانيته لك واحدة.

الثانية : أن يزينك زينه ويشينك شينه.

الثالثة : أن لا يغيره مال ولا ولاية.

الرابعة : أن لا يمنعك شيئاً ممّا تصل إليه مقدرته.

الخامسة : أن لا يسلمك عند النكبات.

***طلبة العلم على ثلاثة اصناف: فاعرفهم بأعيانهم وصفاتهم: صنف يطلبه للجهل والمراء، وصنف يطلبه للإستطالة والختل. وصنف يطلبه للفقه والعقل.**

فصاحب الجهل والمراء متعرض للمقال في أندية الرجال يتذاكر العلم، وصفة الحلم، قد تسربل بالخشوع، وتخلّى عن الورع فدق الله من هذه خيشومه.وصاحب الاستطالة والختل: ذو خب وملق، يستطيل على مثله من أشباهه ويتواضع للأغنياء من دونه.

وصاحب الفقه والعقل ذو كآبة وحزن يعمل ويخشى، وجلاً داعياً مشفقاً على شأنه، عارفاً بأهل زمانه، مستوحشاً من اوثق اخوانه.

***طلبت الجنة فوجدتها في السخاء، وطلبت العافية فوجدتها في العزلة وطلبت ثقل الميزان فوجدته في شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله.**

وطلبت سرعة الدخول إلى الجنة فوجدتها في العمل لله، وطلبت حبّ الموت فوجدته في تقديم المال لوجه الله، وطلبت حلاوة العبادة فوجدتها في ترك المعصية، وطلبت رقة القلب فوجدتها في الجوع والعطش، وطلبت نور القلب فوجدته في التفكّر والبكاء، وطلبت الجواز على الصراط فوجدته في الصدقة، وطلبت نور الوجه فوجدته في صلاة الليل، وطلبت فضل الجهاد فوجدته في الكسب للعيال، وطلبت حبّ الله فوجدته في بغض أهل المعاصي، وطلبت الرياسة فوجدتها في النصيحة لعباد الله، وطلبت فراغ القلب فوجدته في قلة المال، وطلبت عزائم الأمور فوجدتها في الصبر، وطلبت الشرف فوجدته في العلم، وطلبت العبادة فوجدتها في الورع، وطلبت الراحة فوجدتها في الزهد، وطلبت الرفعة فوجدتها في التواضع، وطلبت العز فوجدته في الصدق، وطلبت الغنى فوجدته في القناعة، وطلبت الأنس فوجدته في قراءة القرآن، وطلبت رضا الله فوجدته في بر الوالدين.

***إذا كان الله قد تكفّل بالرزق فاهتمامك لماذا؟ وإن كان الرزق مقسوماً فالحرص لماذا؟ وإذا كان الحساب حقّاً فالجمع لماذا؟ وإن كان الخلف من الله عز وجل حقاً فالبخل لماذا؟ وإن كانت العقوبة من الله عز وجل النار فالمعصية لماذا؟ وإن كان الموت حقاً فالفرح لماذا؟ وإن كان العرض على الله حقاً فالمكر لماذا؟ وإن كان الشيطان عدواً فالغفلة لماذا؟ وإن كان كلّ شيء بقضاء وقدر فالحزن لماذا؟ وإن كانت الدنيا فانية فالطمأنينة لماذا؟**

***إنّ أحقّ الناس بأنّ يتمنّى للناس الغنى البخلاء، لأنّ الناس إذا استغنوا كفوا عن أموالهم، وإنّ أحقّ الناس بأنّ يتمنى للناس الصلاح أهل العيوب، لأنّ الناس إذا صلحوا كفوا عن تتبع عيوبهم.**

وإنّ أحقّ الناس بأن يتمنى للناس الحلم أهل السفه الذين يحتاجون أن يعفى عن سفههم، فأصبح أهل البخل يتمنون فقر الناس، وأصبح أهل العيوب يتمنون معائب الناس، وأصبح أهل السفه يتمنون سفه الناس، وفي الفقر الحاجة إلى البخيل وفي الفساد طلب عورة أهل العيوب وفي السفه المكافأة بالذنوب.

***العاقل لا يستخفّ بأحد، وأحقّ من لا يستخف به ثلاثة: العلماء، والسلطان، والإخوان، لأنّه من استخفّ بالعلماء أفسد دينه، ومن استخفّ بالسلطان أفسد دنياه، ومن استخفّ بالإخوان أفسد مروءته.**

***العافية نعمة خفية إذا وجدت نسيت وإذا عدمت ذكرت.**

***العدل أحلى من الماء يصيبه الظمآن.**

***العجب يُكلِم المحاسن، والحسد للصديق من سقم المودة، ولن تمنع الناس من عرضك إلا بما تنشر عليهم من فضلك.**

***العزّ أن تذل للحقّ إذا لزمك.**

***العادة على كلّ شيء سلطان.**

***عليك بالنصح لله في خلقه، فإنّك لن تلقاه بعمل أفضل منه.**

***ويل لقوم لا يدينون الله بالمعروف والنهي عن المنكر.**

***الغضب ممحقة لقلب الحليم، ومن لم يملك غضبه لم يملك عقله.**

***الغضب مفتاح كلّ شر.**

***فوت الحاجة خير من طلبها من غير أهلها، وأشد من المصيبة سوء الخلف منها.**

***من استشاره أخوه فلم يمحضه النصح سلبه الله رأيه.**

***لا تبد الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويصيرها بك.**

***لو يعلم السائل ماعليه من الوزر ماسأل أحدٌ أحداً، ولو يعلم المسؤول إذا منع مامنع أحد أحداً.**

***لا تتبّع أخاك بعد القطيعة وقيعة فيه، فتسدّ عليه طريق الرجوع إليك، ولعلّ التجارب أن تردّه إليك.**

***لو علم سيّء الخلق أنّه يعذب نفسه لتسمح في خلقه.**

*** لا تكن أول مشير، وإيّاك والرأي الفطير، وتجنّب ارتجال الكلام، ولا تشر على مستبد برأيه، ولا على وغد ولا على متلون، ولا على لجوج.**

*** لا يزال العزّ قلقاً حتى يدخل داراً قد أيس أهلها من أيدي الناس.**

*** ليس منا من لم يحسن مجاورة من جاوره.**

*** البرّ وحسن الخلق يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار، فقيل له: ما حدّ حسن الخلق؟**

قال (عليه السلام): **تلين جانبك وتطيب كلامك، وتلقى أخاك ببشر حسن.**

وقال (عليه السلام) للمفضل بن عمر: **أوصيك بست خصال.** قال المفضل وماهي ياسيدي؟

قال (عليه السلام): **أداء الأمانة إلى من ائتمنك، وأنّ ترضى لأخيك ماترضاه لنفسك، واعلم بأنّ للأمور أواخر فاحذر العواقب، وإن للأمور بغتات فكن على حذر، وإيّاك ومرتقى جبل سهل إذا كان المنحدر وعراً، ولا تعدن أخاك وعداً ليس في يدك وفاؤه.**

*** ثلاثة لا يصيبون إلاّ خيراً: أولو الصمت، وتاركو الشر، والمكثرون من ذكر الله، ورأس الحزم التواضع.**

فقيل له وما التواضع؟

قال (عليه السلام) أن ترضى من المجلس بدون شرفك، وأن تسلّم على من لقيت، وأنّ تترك المراء وإن كنت محقّاً.

*** خمس خصال من فقد منهن واحدة لم يزل ناقص العيش مشغول القلب: فأوّلها صحّة البدن، والثانية الأمن، والثالثة السعة في الرزق، والرابعة الأنيس الموافق، والخامسة: وهي تجمع هذه الخصال الدعة،** فقيل له: ومماالأنيس الموافق، قال : **الزوجة الصالحة، والولد الصالح.**

*** الكلام ثلاثة: صدق، وكذب، وإصلاح بين الناس.**

فقيل له ماالإصلاح بين الناس؟

قال (عليه السلام): **تسمع في الرجل كلاماً إن يبلغه فيخبت نفسه، فتلقاه وتقول: قد سمعت من فلان فيك من الخير كذا وكذا خلاف ماسمعت منه.**

*** إنّ الخمر رأس كلّ إثم ومفتاح كلّ شر، وماعصي الله بشيء أشدّ من شرب المسكر.**

فقال له الرجل: أصلحك الله، أشرب الخمر شرّ أم ترك الصلاة؟

قال (عليه السلام): **شرب الخمر**. ثم قال له: **أو تدري لِم ذاك؟** قال: لا.

قال (عليه السلام): **لأنّه** - أي شارب الخمر - **يصير في حال لا يعرف ربّه.**

* وسئل (عليه السلام): هل يكون المؤمن بغيضاً؟

قال: لا. **ولا يكون ثقيلاً.**

*** لعن الله قاطعي سبيل المعروف**. قيل له: ومن قاطعو سبيل المعروف؟

قال (عليه السلام): **الرجل يصنع إليه المعروف فيكفره فيمتنع صاحبه من أن يصنع ذلك إلى غيره.**

*** لا يطعن ذو الكبر في الثناء الحسن، ولا الخب في كثرة الصديق، ولا السيّء الأدب في الشرف، ولا البخيل في صلة الرحم، ولا المستهزئ بالناس في صدق المودة، ولا القليل الفقه في القضاء، ولا المغتاب في السلامة، ولا الحسود في راحة القلب، ولا المعاقب على الذنب الصغير في السؤدد، ولا القليل التجربة المعجب برأية في الرياسة.**

*** لا يصلح من لا يعقل، ولا يعقل من لا يعلم، والصدق عز، والجهل ذل، والفهم مجد، والجود نجح، وحسن الخلق مجلبة للمودة، والعالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس، والحزم مشكاة الظن، والعاقل غفور والجاهل ختور، وإن شئت أن تهان فاخشن، ومن كرم أصله لان قلبه، ومن خشن عنصره غلظ كبده، ومن فرط تورط، ومن خاف العاقبة تثبت.**

*** لا غنى بالزوج عن ثلاثة فيما بينه وبين زوجته: الموافقة ليجتلب بها موافقتها ومحبتها وهواها. وحسن خلقه معها، واستعماله استمالة قلبها بالهيئة الحسنة في عينها وتوسعته عليها.**

ولا غنى للزوجة فيما بينها وبين زوجها عن ثلاث خصال وهن: صيانة نفسها من كلّ دنس حتى يطمئنّ قلبه إلى الثقة في حال المحبوب والمكروه. وحياطته ليكون ذلك عاطفاً عليها عند زلة تكون منها.

وإظهار العشق له بالخلابة والهيئة الحسنة لها في عينه.

*** لا تتكلم فيما لا يعنيك ودع كثيراً من الكلام فيما يعنيك حتى تجد له موضعاً، فربّ متكلّم تكلّم بالحقّ بما يعنيه في غير موضعه فتعب، ولا تمارين سفيهاً ولا حليماً فإنّ الحليم يغلبك والسفيه يرديك،**

واذكر أخاك إذا تغيّب بأحسن ماتُحب أن يذكرك به إذا تغيبت عنه، واعمل عمل من يعلم أنّه مجزئ بالإحسان، مأخوذ بالإجرام.

*** ليس من أحد، وإن ساعدته الدنيا بمستخلص غضارة عيش إلاّ من خلال مكروه، ومن انتصر بمعاجلة الفرصة مواجلة سلبته الأيام فرصته، لأنّ من شأن الأيام السلب، وسبيل الزمن الفوت، ولا تحدث من تخاف أن يكذبك، ولا تسأل من تخاف أن يمنعك، ولا تأمن من تخاف أن يغدر بك، ومن لم يواخ من لا عيب فيه قل صديقه، ومن لم يرض من صديقه إلاّ بإيثاره إيّاه على نفسه دام سخطه، ومن عاتب على كلّ ذنب كثر تعبه.**

*** لا تغرنّك الناس من نفسك فإنّ الأمر يصل إليك دونهم، ولا تقطع النهار عنك بكذا وكذا فإنّ معك من يحصي عليك، ولا تستصغرن حسنة تعملها فإنّك تراها حيث تسرك، ولا تستصغرنّ سيئة تعملها فإنّك تراها حيث تسوؤك، وأحسن فإني لم أر شيئاً أشدّ طلباً ولا أسرع دركاً من حسنة محدثة لذنب قديم.**

*** لا تعتدّ بمودة أحد حتى تغضبه ثلاث مرات.**

*** لا تثقنّ بأخيك كلّ الثقة فإن سرعة الاسترسال لا تقال.**

*** ليس لك أن تأمن الخائن وقد جرّبته وليس لك أن تتّهم من ائتمنت.**

*** ليس لملول صديق، ولا لحسود غنى، وكثرة النظر في الحكمة تلقّح العقل.**

*** ليس الإيمان بالتحلّي ولا بالتمنّي، ولكنّ الإيمان ماخلص في القلوب وصدّقته الأعمال.**

*** ليس فيما أصلح البدن إسراف.**

*** كفى بالمرء إثماً أن يضيّع من يعول فيه.**

*** كفارة عمل السلطان قضاء حاجات الإخوان.**

*** كفى بالحلم ناصراً.**

*** كسب الحرام يبين في الذرية.**

*** من سعادة الرجل أن يكون القيّم على عياله.**

*** من أمل أحداً هابه ومن قصر عن شيء عابه.**

*** من صدق لسانه زكا عمله، ومن حسنت نيته زيد في رزقه، ومن حسن بره بأهل بيته مد في عمره.**

*** من حقّ أخيك أن تحمل له الظلم في ثلاثة مواقف: عند الغضب، وعند الذلة، وعند السهو.**

*** لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى تكون فيه خصال ثلاث: الفقه في الدين، وحسن التقدير في المعيشة، والصبر على الرزايا.**

*** لا يبلغ أحدكم حقيقة الإيمان حتى يحبّ أبعد الخلق منه في الله ويبغض أقرب الخلق منه في الله.**

*** لا تكون مؤمناً حتى تكون خائفاً راجياً، ولا تكون خائفاً راجياً حتى تكون شاملاً لما تخاف وترجو.**

*** لا يكون الرجل من المتّقين حتى يحاسب نفسه أشدّ من محاسبة الشريك شريكه فيعلم من أين مطعمه، ومن أين ملبسه أمن حلال أم من حرام؟**

*** من أوثق عُرى الإيمان أن تحبّ في الله وتبغض في الله، وتعطي في الله وتمنع في الله.**

*** من صحة يقين المرء المسلم أن لا يرضي الناس بسخط الله، ولا يحسدهم على ماآتاهم الله ولا يلومهم على مالم يؤته الله; فإنّ رزقه لا يسوقه حرص حريص، ولا يرده كره كاره، ولو أنّ أحدكم فرّ من رزقه كما يفرّ من الموت لأدركه رزقه كما يدركه الموت.**

*** من لم يحبّ على الدين ولا يبغض على الدين فلا دين له.**

*** ينبغي للمؤمن أن يكون فيه ثمان خصال: وقور عند الهزاهز، صبور عند البلاء، شكور عند الرخاء، قانع بما رزقه الله، لا يظلم الأعداء، ولا يتحمل الأصدقاء، بدنه منه في تعب والناس منه في راحة.**

*** يحقّ على المسلمين الاجتهاد في التواصل، والتعاون، والتعاطف، والمواساة لأهل الحاجة وتعاطف بعضهم على بعض.**

*** يا شيعة آل محمد، إنّه ليس منا من لم يملك نفسه عند الغضب، ولم يحسن صحبة من صحبه، ومرافقة من رافقه، ومصالحة من صالحه، ومخالفة من خالفه.**

ياشيعة آل محمد، اتقوا الله مااستطعتم، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم.

*** المغرور في الدنيا مسكين وفي الآخرة مغبون، لأنّه باع الأفضل بالأدنى، ولا تعجب من نفسك فربّما اغتررت بمالك وصحة جسدك لعلّك تبقى، وربّما اغتررت بطول عمرك وأولادك وأصحابك لعلّك تنجو بهم، وربما اغتررت بجمالك وإصابتك مأمولك وهواك فظننت أنّك صادق ومصيب، وربّما اغتررت بماترى من الندم على تقصيرك في العبادة، ولعلّ الله يعلم من قلبك بخلاف ذلك، وربّما أقمت نفسك على العبادة متكلّفاً والله يريد الإخلاص، وربّما توهمت أنّك تدعو الله وأنت تدعو سواه، وربّما حسبت أنّك ناصح للخلق وأنت تريدهم لنفسك، وربما ذممت نفسك وأنت تمدحها على الحقيقة.**

*** إنّ الله خبّأ ثلاثاً في ثلاث : رضاه في طاعته فلا تحتقروا منها شيئاً فلعلّ رضاه فيه، وغضبه في معاصيه فلا تحتقروا شيئاً فلعلّ غضبه فيه، وخبّأ ولايته في عباده، فلا تحتقروا منهم أحداً فلعله وليّ الله.**

*** إذا استقبلت القبلة فآيس من الدنيا ومافيها، والخلق وماهم فيه، واستفرغ قلبك من كل شاغل يشغلك عن ذكر الله، وعاين بسرك عظمة الله عز وجل، واذكر وقوفك بين يديه قال تعالى: (هنالك تبلوا كل نفس ماأسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحقّ) وقف على قدم الخوف والرجاء.**

*** لا ينبغي للمؤمن أن يجلس مجلساً يعصى الله فيه ولا يقدر على تغيره، ومن ابتلي بحضور طعام ظالم إكراهاً وتقية، فليقلل الأكل ولا يأكل أطايب الأطعمة.**

***المؤمن هوالذي إذا غضب لم يخرجه غضبه من حقّ، وإذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، والذي لم يأخذ أكثر ممّا له.**

*** الصمت كنز وافر وزين الحليم وستر الجاهل.**

*** قلّة الصبر فضيحة.**

*** كلّ ذي صناعة مضطر إلى ثلاث خلال يجتلب بها المكسب: أن يكون حاذقاً بعمله، مؤدياً للأمانة فيه، مستميلا لمن استعمله.**

*** كم من مغرور بما أنعم الله عليه، وكم من مستدرج يستر الله عليه، وكم من مفتون بثناء الناس عليه.**

*** من ائتمن خائناً على أمانة لم يكن له على الله ضمان.**

*** من دعا الناس إلى نفسه وفيهم من هو أعلم منه فهو مبتدع ضال.**

*** من زرع العداوة حصد مابذر.**

*** من أخلاق الجاهل: الإجابة قبل أن يسمع، والمعارضة قبل أن يفهم، والحكم بما لم يعلم.**

*** من سأل من غير حاجة فكأنما يأكل الجمر.**

*** إياك وملاحات الشعراء فإنّهم يضنون بالمدح ويجودون بالهجاء.**

*** الأدب عند الأحمق كالماء العذب في أصول الحنظل، كلّما ازداد ريّاً ازداد مرارة.**

*** من عظمت نعمة الله عليه اشتدّت مؤنة الناس إليه.**

*** إنّ الله يحبّ معالي الأمور ويكره سفاسفها.**

*** دعامة الإنسان العقل، وبالعقل يكمل، وهو دليله ومبصره ومفتاح أمره.**

*** ثلاثة يجب على كلّ إنسان تجنّبها: مقارنة الأشرار، ومحادثة النساء، ومجالسة أهل البدع.**

*** القضاة أربعة: قاض قضى بالحقّ وهو لا يعلم أنّه الحقّ فهو في النار، وقاض قضى بالباطل وهو لا يعلم أنّه باطل فهو في النار، وقاض قضى بالباطل، وهو يعلم أنّه باطل فهو في النار، وقاض قضى بالحقّ وهو يعلم أنّه الحقّ فهو في الجنة.**

*** مامن مظلمة أشدّ من مظلمة لا يجد صاحبها عليها عوناً إلاّ الله.**

*** من عذر ظالماً بظلمه سلّط الله عليه من يظلمه، وإن دعا لم يستجب له ولم يؤجره الله على ظلامته.**

*** من يفعل الشر بالناس فلا ينكر الشر إذا فعل به.**

*** من أعان على قتل مؤمن ولو بشطر كلمة جاءيوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله.**

*** من ولي شيئاً من أمور المسلمين وضيّعه ضيّعه الله.**

*** من ظلم مظلمة أُخذ بها في نفسه أو في ماله أو في ولده.**

*** من كان الحزم حارسه والصدق جليسه; عظمت بهجته وتمّت مروّته. ومن كان الهوى مالكه والعجز راحلته، عاقاه عن السلامة وأسلماه إلى الهلكة.**

*** ثلاثة يحتاج إليها الناس طراً: الأمن، والعدل، والخصب.**

*** ثلاثة تكدّر العيش: السلطان الجائر، وجار السوء، والمرأة البذية.**

*** إذا أراد الله برعية خيراً، جعل لهم سلطاناً رحيماً ووزيراً عادلاً.**

*** من لم يهتم بأمر المسلمين فليس بمسلم. إن رسول الله**(صلى الله عليه وآله) **قال: من أصبح لا يهتم بأُمور المسلمين فليس منهم، ومن سمع رجلاً ينادي ياللمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم!**

*** إيّاكم وظلم من لا يجد عليكم ناصراً إلاّ الله.**

*** العامل بالظلم والمعين له والراضي به كلّهم شركاء.**

*** اتقوا الظلم فإنّ دعوة المظلوم تصعد إلى السماء.**

*** إنّ الإمامة لا تصلح إلا لرجل فيه ثلاث خصال: ورع يحجزه عن المحارم، وحلم يملك به غضبه، وحسن الخلافة على من ولي حتى يكون له كالوالد الرحيم.**

*** وجدنا بطانة السلطان ثلاث طبقات: طبقة موافقة للخير وهى بركة عليها وعلى الرعية. وطبقة غايتها المحاماة على مافي أيديها فتلك لا محمودة ولا مذمومة، بل هي إلى الذم أقرب. وطبقة موافقة للشر وهي مشؤومة مذمومة عليها وعلى السلطان.**

*** نجوى العارفين تدور على ثلاثة: الخوف، والرجاء، والحبّ.**

فالخوف فرع العلم، والرجاء فرع اليقين، والحبّ فرع المعرفة، فدليل الخوف الهرب، ودليل الرجاء الطلب، ودليل الحبّ إيثار المحبوب على ماسواه، فإذا تحقق العلم بالصدر خاف، وإذا صح الخوف هرب وإذا هرب نجا.

*** المعروف زكاة النعم، والشفاعة زكاة الجاه، والعلل زكاة الأبدان، والعفو زكاة الظفر، ومأأديت زكاته فهومأمون السلب.**

*** لو أنّ الناس أدّوا زكاة أموالهم مابقي مسلم فقيراً محتاجاً.**

*** إنّ من بقاء المسلمين والإسلام أن تصير الأموال عند من يعرف حقَّها، ويصنع فيها المعروف، وإنّ من فناء الإسلام والمسلمين أن تصير الأموال في أيدي من لا يعرف فيها الحقّ، ولا يصنع فيها المعروف.**

*** إنّما أعطاكم الله هذه الفضول من الأموال لتوجهوها حيث وجهها الله، ولم يعطكموها لتكنزوها.**

*** إنّما وضعت الزكاة اختباراً للأغنياء، ومعونة للفقراء، ولو أنّ الناس أدّوا زكاة أموالهم مابقي مسلم فقيراً محتاجاً، ولا مستغن بما فرض الله بأنّ عليه.**

وإنّ الناس ماافتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا إلا بذنوب الأغنياء، وحقيق على الله بأنّ أن يمنع رحمته ممّن منع حقّ الله في ماله، وأقسم بالله الذي خلق الخلق وبسط الرزق، أنّه ماضاع مال في بر ولا في بحر إلا بترك الزكاة، وأنّ أحبّ الناس إلى الله عزّ وجل أسخاهم كفاً، وأسخى الناس من أدى زكاة ماله، ولم يبخل على المؤمن بما افترض الله عز وجل لهم في ماله.

*** من وقف نفسه موقف التهمة فلا يلومنّ من أساء الظن به. ومن كتم سرّه كانت الخيرة بيده، وكل حديث جاوز اثنين فاش، وضع أمر أخيك على أحسنه، ولا تظلبنّ بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد في الخير لها محملاً، وعليك بإخوان الصدق فإنّهم عدّة عند الرخاء، وجنّة عند البلاء، وشاور في حديثك الذين يخافون الله وأحبّ الأخوان على قدر التقوى، واتقّ خيار النساء وكن من شرارهن على حذر، وإن أمرن بكم في المعروف فخالفوهنّ حتى لا يطمعن منكم في المنكر.**

هذا عرض موجز لحكميات الإمام أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق(عليه السلام)انتزعناها من الكتاب الذي أعددناه لجمع تراثه الفكري، وأسميناه (بالأسس التربوية)[١٢٦].

حِكَمه تعاليم إسلامية

ومن المؤسف أنّ هذه الحِكَم لا تزال مبعثرة في بطون الكتب، هنا وهناك، ولم نجد من تصدّى لجمعها وشرح غوامضها، فهي غذاء روحي، ورصيد ضخم من الأخلاق، والثقافة، والآداب، ولابدّ لكلّ منصف أن يعترف بأهميّة ذلك، وعسى أن يأتي اليوم الذي تبرز فيه هذه الآثار، بالصورة المطلوبة لتكون منهجاً أخلاقياً، يعتزّ المسلمون به وتكون موضع اهتمام وتقدير.

وهذه الفصول التي أوردناها هي بعض من ذلك الرصيد الضخم، وجزء من ذلك التراث القيم، فإنّا ذكرناها لا على سبيل الحصر بل في معرض التمثيل عمّا يكشف لنا وجهة نظره في كثير من قضايا الإنسان والمجتمع.

وقد رأينا كيف كان حرصه على معالجة المشاكل الاجتماعية، وبأيّ طريقة يحاول أن يصلح النفوس، ويحارب العادات المضرّة ويدعو إلى اعتناق الفضائل.

إنّه (عليه السلام) يصوّر لنا أحوال النفس الإنسانية في جميع حالاتها، ويكشف لنا مايكمن فيها من عقد وانفعالات، ويجعل لها حدوداً ومقاييس في حالة اطمئنانها

(١٢٦) أنظر تحف العقول ص ٣٥٧ - ٣٨٢ .

وقلقها، ورضاها، وغضبها، وخوفها، وأمنها. فإصلاحها صعب إذا لم تتخذ الطرق الناجحة لذلك، وقد بيّنها في كثير من تعاليمه.

وعلى كلّ حال فإنّ هذه الحكم التي يقرّها العقل، ويرتاح لها الضمير الحر، ويعترف بها الوجدان، ويشهد لها الواقع. هي خلاصة تعاليم إسلامية تهدف إلى سعادة الإنسان في حياته، وبعد مماته، والإمام الصادق (عليه السلام) يرسل هذه النصائح لجميع المسلمين، ويضعها بين يدي الأحفاد، كما وضعها بين يدي الآباء والأجداد، فهو ناصح يرسل عظاته عبر الدهور معلّماً وفيصلاً بين الحقّ والباطل.

إنّه (عليه السلام) من أعظم الشخصيات التي أدّت واجبها ومثّلت دورها في الدعوة إلى الله، فبرزت في معترك الحياة ببطولة تبعث في نفوس الأمة قوّة الإيمان، وصحّة العقيدة، والإقدام على التضحية.

إنّه (عليه السلام) يريد أن يعالج تلك المشاكل التي كان يموج بها العالم الإسلامي في عصره على ضوء ماجاء في الإسلام من مبادئه القويمة، وتعاليمه السمحة.

فكان يدعو الناس إلى التسلّح بالقوى المعنوية، التي لا تقف أمامها أيّ قوّة، إنّ الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر أعظم قوّة تضمن للأمة النصر والنجاح فإنّ المؤمن قوّي القلب، قويّ الإرادة، واثق بنصر الله وتأييده، فهوالذي يذلّل له كلّ صعب، ويهون عليه كلّ خطب، وبه يستطيع الإنسان أن يتغلّب على شهواته، وميوله ونزعاته، وينشأ عن ذلك الإيثار والمحبّة، والتضحية، ونكران الذات، والتفاني في صالح المجتمع وكل فضيلة يتحلّى بها الفرد المسلم.

والإيمان بالله يجعل في نفوس المؤمنين وعياً، يبعثهم على محاربة الرذيلة بشتّى أنواعها، وبالوعي الإسلامي يزول خطر العابثين بمقدّرات الأمة، كما أنّ فقدانه يعرّضها لكلّ خطر، ويجعلها فريسة لكل طامع وخاضعة لكلّ متسلّط ومدفوعة في أمواج الفتن وتيّارات الآراء، فلا تمييز بين الحقّ والباطل والضارّ والنافع.

جهاده ودفاعه عن الإسلام

وعلى أيّ حال: فإنّ الإمام الصادق (عليه السلام) كان من أعظم الشخصيات الإسلامية، التي خدمت الأمة بنشر العلم، وبثّ روح الفضيلة، وحثّ الناس على التمسك بمبادئ الإسلام التي تكفل للإنسانية سعادتها، وتحريرها من قيود الاستغلال والعبودية.

وإنّ الظروف التي تحيط بالشخصيات التاريخية هي الشاهد على ما تتمتع به وما تمتاز، ولقد كانت الأحداث التي واجهها الإمام الصادق، والظروف التي مرّ بها صعبة ومرّة تمكّن(عليه السلام) من اجتيازها بمنهج ثابت وخطّة قويمة حفظت للأمة جوهر مبادئها ولباب عقائدها.

وقد حارب الخرافات والأوهام، والمعتقدات الخبيثة، وحفر لها قبوراً بمعاول الحقّ.

كان الناس ينظرون إليه نظرة إجلال وإكبار، لما منحه الله من فضل القربى، وشرف المحتد، وطهارة النفس، وقوّة الإدراك، وصدق الحديث، والفقه في الدين، والعمل بطاعة الله، والدعوة إلى الحقّ، ومجانبة الباطل، ومحاربة الظالمين، وكانت مدرسته أعظم جامعة إسلامية، يقصدها طلاب العلم من مختلف الجهات، وقد أخذ على عاتقه أداء الرسالة الملقاة على كاهله، في توجيه الناس توجيهاً صحيحاً، وسلك بهم طريق الاستقامة والتماسك، ونحا ناحية الأخلاق والتهذيب، على ضوء تعاليم الإسلام، فكانت له شهرة علمية تتحدّث بها الركبان، ونفوذ روحي يخضع له العدو والصديق.

ولقد عظم ذلك على الحكام الذين أرادوا إخماد الشعور بجرائمهم، والسكوت عن معارضتهم، بما ارتكبوه من العبث بكرامة الإنسانية، وإهدار القيم الرفيعة، ولا يريدون أن يرتفع صوت الاستنكار على أعمالهم،لأنّهم يدّعون أنّهم أئمة عدل، وأنصار حقّ، ولهم أهلية وراثة النبي، والاختصاص بسلطانه، والواقع أنّهم على خلاف مايدّعون، ولكنّهم يريدون إغراء البسطاء من الناس.

لقد عظم عليهم مركز الإمام الصادق (عليه السلام) وكانت شخصيته تثير مخاوفهم، ولم يستطيعوا أن يؤاخذوه بما يبرر لهم الانتقام منه، والانتفاضة عليه، وقد التجأ المنصور إلى خلق اتهّامات وتزوير كتب، يحاول من ورائها أن يفسح له المجال في الوقيعة فيه، ولكنّ محاولته باءت بالفشل وسعيه بالخسران.

وهكذا بقي (عليه السلام) عرضة للخطر، ولكنّه مؤمن بالله فلا يخشى من دونه أحداً.

وفي ذلك العصرالمضطرب بدأ التنازع بين الدين والفلسفة، وبين الإسلام والعقائد التي جاء الإسلام لمحاربتها، وظهرت بوادر الجدل العقلي وعلم الكلام، فكان موقفه من تلك التيارات وسط ذلك النزاع والجدل موقف العالم المناضل عن الدين، والمدافع القوي بحجّته ووضوح برهانه، الراجح في عقله واستدلاله يدافع عن الإسلام بما يقرّه العلم الصحيح، ويخضع له العقل السليم، ويرتاح له الضمير، ويدلي بآرائه على

خصومه، بمنطق يدخل إلى آذان سامعيه; فينفذ إلى قلوبهم، فلا يجدون بُداً من التسليم لقوله الحقّ ومنطقه الصائب.

فكان (عليه السلام) لا يجارى في استدلال، ولا يغلب في برهان، بل كان هو المتفوّق والسابق في كلّ مضمار.

وقد شعر دعاة الإلحاد بخطر موقفه لردّ كلّ شبهة، ومحاربة كلّ فكرة من طريق العلم والمنطق فعظم عليهم ذلك، ونظروا إليه نظرة ملؤها غضب وحقد، وحاولوا أن يقفوا في طريق دعوته الإصلاحية كما وقف هو (عليه السلام) في طريق نشر مبادئهم الإلحادية، وتوصّلوا إلى حل ناجح وهو انضمام بعض دعاة الإلحاد إلى مدرسته، وادّعاء حبّ أهل البيت (عليهم السلام) لكي يفسدوا بذلك بعض الأُمور بروايتهم عنه وكذبهم عليه، وارتكابهم أُموراً لا تتفق مع مبادئ الإسلام.

وبهذا يلزمنا أن نشير إلى مشكلة الغلاة في عصره. ونودّ هنا أن نستعرض حركة الغلاة ونشأتها، وتطورها، لنقف على العوامل التي جعلت الكثير من المؤرخين والكتاب يذهبون إلى وجود العلاقة بينهم وبين شيعة أهل البيت (عليهم السلام)، بل ذهب البعض إلى وصف الشيعة بالغلوّ، وكلّ ذلك ناشئ عن التجنّي على الحقائق، والبعد عن الواقع. فليس بين الشيعة وبين الغلاة رابطة تجمعهم، وماتلك التهم إلاّ من أغراض السياسة العمياء التي تريد تشويه الحقائق، وقلب الأوضاع، واتّهام الأبرياء.

وقد التجأت هنا إلى ذكر مشكلة الغلاة ودوافع حملها على المذهب الشيعي بعد أن أشرت لها في الجزء الأول، لأنّي وقفت على عبارات لبعض المؤلّفين; وقد وصفوا الشيعة بأوصاف يندى لها الجبين، ويحترق لها قلب المسلم الحريص على جمع كلمة الإسلام، في عصر يجب أن تتوحّد الكلمة فيه، وتزول الضغائن والأحقاد التي خلقتها النعرات الطائفية الأولى، والتي يقدح زنادها أعداء الإسلام، الذين يريدون أن يفرّقوا الصفوف، لتحقيق آمالهم عندما اندسوا في صفوف المسلمين.

ومن العجب أن يبدو هذا التهجم الشائن ممّن يدعي المعرفة، ويتزيا بزي العلم، وقد دلّت أقواله على ماتنطوي عليه نفسه من الخبث والجشع، وقلة المعرفة بالأُمور، إنّه العار وإنه الدمار أن تبتلى الأُمة الإسلامية بأمثال هؤلاء الذين قدموا أنفسهم لخدمة أعداء الدين.

وعلى كلّ حال فإنّا نحاول بهذه الدراسة السريعة عن حركة الغلاة في عصر الإمام الصادق (عليه السلام)، أن نوفق لإقناع من استساغ الطعن على الشيعة، بوصفهم

في الغلوّ ودعوى التأليه لأهل البيت(عليهم السلام)وماذلك إلاّ تخرّصاً وتقوّلاً وافتراءً وتزويراً، وسيقف القارئ الكريم على موقف أهل البيت(عليهم السلام) وشيعتهم من الغلاة وبراءتهم منهم ممّا لا يدع مجالاً لمتقوّل، ولا طريقاً لمفرّق.

والله نسأل أن يمدّنا بالتوفيق وعليه الاتكال.

مشكلة الغلاة

مشكلة الغلاة

المؤرّخون ومشكلة الغلاة

يأبى كثير من المؤرّخين إلاّ أن يتأثّروا بالدعايات الكاذبة، ويأخذوا بأقوال المنحرفين عن الحقّ، الذين أصبحوا آلة طيّعة بيد حكام، دفعتهم شهواتهم وحرصهم على سلطان الاستبداد بأُمور الأمة، ألاّ يروا فضيلة لأهل البيت(عليهم السلام)إلاّ ضيّعوها، ولا مكرمة إلاّ أخفوها، حسداً منهم، وخوفاً على سلطانهم.

نعم يأبى كثير من المؤرخين إلاّ أن يسيروا مع التيّار الجارف من آراء قوم يصعب عليهم وحدة الصف، ويثقل على أنفسهم جمع الكلمة، فتعمّدوا إثارة الفتن، وتشويه الحقائق بالدس والافتراء والتقوّل بالباطل، وهدفهم في ذلك أنّهم لا يريدون أن يحصل صفاء بين المسلمين; فربطوا تأريخ الغلاة بتاريخ الشيعة، وعقائدهم بعقائد الشيعة. رغم الحقائق الدالة على خلاف مايذهبون إليه من التجنّي على الشيعة.

إنّ من الواجب على المؤرّخ أن يتصدّى للتمييز بين الأشياء التي يدونها، وأن يضع كل شيء في مكانه، لئلاّ يحصل الخلط الشنيع بين الأُمور المتناقضة.

وإنّي لا أستطيع أن أتصوّر بعداً عن الحقّ، ومكابرة للواقع، مثل مكابرة من يصف الشيعة بالغلوّ، لأنّ البعض منهم نسبوا إليهم، وماذلك إلاّ خطلاً في الرأي وابتعاداً عن الحقّ.

إنّ مشكلة الغلاة هي أعظم مشكلة أوقعها خصوم الإسلام بين أهله، ولم تعالج هذه المشكلة بحلّ صحيح، على ضوء الواقع من حيث هو، بل استمرّت تعمل عملها، وتؤثر أثرها في شقّ وحدة الصف، وبثّ روح العداء بين المسلمين.

وإنّ مشكلة الغلاة توقع الباحث في صعوبة لا يذللها إلاّ حرية رأيه وإنصافه، وابتعاده في البحث عن التقليد الأعمى، والتعصّب الطائفي الذي جرّ على هذه الأمة بلاء الفرقة ومحن البغضاء والتطاحن.

إنّ أكثر المؤرّخين لم يدرسوا الظروف التي نشأت فيها طوائف الغلاة، ولم يعرفوا أسباب ذلك، كما أنّهم لم يقفوا على العوامل التي بعثت النشاط في دعوتهم; فأثرت أثرها في تفريق الصفوف، وإيقاد نار البغضاء في القلوب، وإثارة الفتن في المجتمع، ولو أنّ أُولئك المؤرخين الذين ربطوا تاريخ الغلاة بتاريخ الشيعة واستعملوا الأقيسة

المعكوسة، ودرسوا ظروف نشأة تلك الأفكار، وأسباب ذلك الاعتقاد، وبواعث ذلك النشاط; لوجدوا أنفسهم خاطئين في سلوكهم، بعيدين عن الواقع، واتّضح لهم البون الشاسع، بين الغلاة وبين الشيعة وبذلك تظهر الحقيقة في البحث - إن كانوا يطلبونها - وإذا ظهرت الحقيقة بطلت الأوهام.

وقد قلت سابقاً : إنّ خصوم الإسلام في عصر الإمام الصادق (عليه السلام) قد عظم عليهم موقفه، في نشر الدعوة الإسلامية، عندما نشطت الحركة العلمية، حيث اتّجه الناس الى التدوين والبحث، وظهر علم الكلام والفلسفة، وبرزت مدرسة الإمام الصادق (عليه السلام) في نشر العلم وبثّ تعاليم الإسلام، وكثر المنتمون إليها، وانتشر ذكرها في جميع الاقطار الإسلامية وقام أصحابه بأداء الرسالة، وكان للكوفة النصيب الأوفى من حملة العلم، ورجال الاصلاح، المنتسبين لتلك المدرسة، فكان عددهم يربو على الألف، منهم تسعمائة محدّث في مسجد الكوفة، كل يقول: حدثني جعفر بن محمد [١٢٧].

وحيث كانت الكوفة مركزاً هاماً للتجارة والصناعة ملحوظاً في حياة المجتمع الإسلامي في القرن الأول الهجري، وازدهرت فيها المنسوجات الحريرية وهي ماسمّوها عمل الوشي والخز، وكانت هذه المصنوعات تلقى رواجاً في الاقطار الإسلامية [١٢٨] وكانت محاطة بقرى كثيرة، وفيها من غير المسلمين عدد كبير كالنصرانية في الحيرة وغيرها، ووفد عليها أربعة آلاف من رعايا الفرس عرفوا بحمراء الديلم [١٢٩] كما كثرت الهجرة إليها من الأقطار النائية من ذوي العقائد الفاسدة والآراء الشاذة، واختلطوا بمجتمع الكوفة فكان نشاطهم محسوساً في استغلال الفرصة لبثّ آرائهم ونشر عقائدهم، وربطها بالعقائد الإسلامية عن طريق الخداع والتضليل حقداً على الإسلام وأهله، واندسّ البعض منهم في حلقات العلم مدّعياً انتماءه لمدرسة الإمام الصادق(عليه السلام)، وهم يكذبون عليه فيما ينسبونه إليه، وغرضهم في ذلك هو الطعن على أهل البيت(عليهم السلام)، وتشويه سمعة أوليائهم، لكي ينفروا القلوب، ويثيروا البغضاء، لتقع الفرقة بين صفوف المسلمين.

فكان الأجدر بالمؤرخين والكتّاب أن يتحرّوا حقيقة الأشخاص الذين بثّوا تلك الأفكار ودعوا الى تلك العقائد، ويخضعوا أقوالهم وأفعالهم للنقد والتمحيص حتى يتبيّنوا الدوافع والأغراض التي تكمن وراء نشاطهم. وإن استعصى عليهم ذلك، فما

(١٢٧) بحار الأنوار ج ٤٧ ص ٢٧.
(١٢٨) الأغاني ج ٢ ص ١٧٢.
(١٢٩) فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٨٩.

أسهل الإصغاء الى مواقف أئمة الشيعة وآراء رجالهم في دحض تلك الآراء وفضح تلك العقائد.

أسباب نشأة الغلاة

ويجب أن لا يغيب عن بالنا سبق هذا العداء للإسلام وقدمه قبل عصر الإمام الصادق (عليه السلام) فهو متأصّل منذ فجر الدعوة الإسلامية يتوارثه الأبناء والأحفاد، وذلك لأنّ دعوة النبي (صلى الله عليه وآله) منذ البداية موجهة الى الناس كافة، سواء منهم العرب وغير العرب، وثنيون أو يهود، نصارى أو مجوس، فهي لم تختص بطائفة دون أُخرى، ولا بقوم دون قوم، ولا بقطر دون آخر، بل هي رسالة عامة، ولا بدّ أن تجابه دعوته (صلى الله عليه وآله) بأقوى عدّة وبأكثر عدد من المعارضين الذين قضى الإسلام على عقائدهم الفاسدة، وهدم هياكل عبادتهم التي يعبدونها من دون الله، كما هدم صروح الكبرياء والأنانية، وأزال عروش الظلم والاستبداد، وأذلّ قوماً اعتزّوا بسلطانهم فاستذلوا الآخرين. إلى آخر ما جاء به الإسلام من الاصلاح للعالم، الذي كان يموج بالفتن وتسوده نزعات مختلفة ونحل متنوعة.

وكان الناس يتخبّطون في ظلام حالك كلّه شر ومخاوف، إذ يتغلّب القوي على الضعيف، فتشن الغارات لنهب الأموال وانتهاك الحرمات في التكالب على السيادة، والأثرة والاستغلال.

فلم يخضع لهذه الدعوة جبابرة قريش الذين ملكت الأنانيّة قلوبهم، واستولى حب الذات والأثرة على مشاعرهم، وجعلوا من عبادة الأصنام قواماً لحياتهم.

ولأنّ محمّداً (صلى الله عليه وآله) يدعو الى عبادة ربّ واحد لا شريك له، كما جاء بنظام العدل والمساواة الشاملة، وهدم الفروق الظالمة بين الناس، وسوّى بينهم في الحقوق والواجبات، وقرر أنّ أصل الإنسان واحد والجميع أُخوة في الإنسانية، فلا فضل لأحد على أحد إلاّ بالتقوى، وجاء باحكام شاملة لم يستثن منها إنساناً ولا طائفة، بل الكلّ سواء في تطبيقها، وكان طبيعيّاً أن تصطدم تلك المبادئ بعادات العرب القديمة التي ورثوها عن الآباء والأجداد شأن كلّ دعوة ناشئة، كما أزعجتهم سرعة الدعوة في قلوب الناس.

وقد أحسّت العناصر الأُخرى بخطر دعوة النبي (صلى الله عليه وآله) فرمقت ما كسبه الإسلام من تقدّم وانتشار بعين الحقد والحسد، وكانت للنصرانية قوة في الشمال ولها

أتباع منبثون في مهد الدعوة، ولليهود عدة قوية في بلد الهجرة، وللمجوس دولة ومعابد، وكلّ هذه العناصر لا يروق لها انتشار هذا الدين وظهوره، فتظاهر الكلّ بالعداء للإسلام، وانتظم عقدهم وتكتّلوا لحرب محمد(صلى الله عليه وآله) ومعارضة دعوته، وبذلوا جهودهم، وعملوا أقصى ما يمكن أن يعملوه، فكانت هناك حروب دامية وغزوات متوالية بينه (صلى الله عليه وآله) وبين المشركين ومن انتظم في عقدهم، حتى نصر الله النبي (صلى الله عليه وآله) فتيقّنوا أن لا أمل لهم مطلقاً في القضاء على الإسلام، فهو يزداد قوة وثباتاً رغم المعارضة في الحروب الدامية.

ودخل البعض منهم في الإسلام اعترافاً بعجزهم عن مقاومته، وآخرون اعتقدوا صدق نبوة محمد (صلى الله عليه وآله)فاستجابوا له، وفئة ثالثة دخلوا نفاقاً وخداعاً فأظهرو الإسلام وأضمروا الكفر، وبقي الحقد يأكل قلوبهم والغيظ يحزّ في نفوسهم، فهم يتحينون الفرص ويتأهّبون للوثبة، ويعملون من وراء الستار، وينتظرون اليوم الذي ينتقمون فيه من الإسلام وأهله.

وبعد أن عجزوا عن مقابلة الإسلام وجهاً لوجه راحوا يعملون من وراء الستار بأيد عابثة، ولعلّ أول عهد حقّق آمالهم هو العهد الأموي، لأنّ ملوكهم قد رفضوا الخضوع لقوانين الإسلام، ولم يلتزموا بتعاليمه، كما أنّهم من المغلوبين على أمرهم يوم أعلنوا الحرب على النبي (صلى الله عليه وآله). وكانت قيادة تلك العناصر المختلفة بيد زعيمهم أبي سفيان، وبهذا لا يمكننا أن نجزم بزوال تلك الأحقاد عن قلوبهم، وإنّ أعمالهم شاهدة على وجودها، فكان دورهم فتحاً لتلك العناصر المعادية للإسلام، فقد سنحت الفرصة وكان لهم في الأمر متّسع، وقد قرّب الأمويون إليهم بعض المتدخّلين في صفوف المسلمين، وجعلوا منهم أداة سياسية يستعينون بها على ترويج دعاياتهم، وإظهار مقاصدهم، كما أقام معاوية بن أبي سفيان كعب الأحبار - وهو يهودي أسلم في عهد عمر - قصّاصاً[١٣٠]. فغيّر مجرى الحوادث والتاريخ وأدخل الاسرائيليات في تاريخ الإسلام.

وعلى كلّ حال فلا تعنينا حركة خصوم الإسلام في العهد الأموي، الذي كان مسرحاً تظهر على لوحته الأمور المتناقضة للإسلام، والمخالفة لمبادئه، وإنّما الأمر الذي يهمّنا هو التعرّض لحركتهم في عصر الإمام الصادق (عليه السلام)وأثر براءته منهم، وإعلان ذلك للملأ، وكيف أثّر ذلك في إبادتهم ومحوهم من صفحة الوجود، ولم يبق منهم إلاّ صور خيالية ينظر إليها من أكل الغيظ قلبه.

(١٣٠) سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ١٤ / ٣٣٣.

الدعوة الإسلامية وخصومها

تبيّن ممّا قدّمناه في هذه الابحاث أنّ الدعوة الإسلامية قد ثقلت على كثير من ذوي النفوس المريضة من مختلف العناصر وشتّى الطوائف، وقد قابلوا ذلك بالعداء السافر والحرب الدموية، ولمّا عجزوا عن المقابلة للإسلام وجهاً لوجه، التجأوا الى الحرب السرية، وحمل معاول الهدم والتخريب، واستعمال الوسائل التي تدعو الى إثارة الفتنة بين المسلمين، وقد وجدوا أنّ أقرب طريق يوصلهم الى غاياتهم وتحصيل أمنيّتهم هو التدخّل في صفوف المسلمين، والعمل على تفريق الكلمة وبثّ روح العداء، وتفرّقوا لهذا الغرض فرقاً وأحزاباً، فمن مستجلب ودّ السلطة لينال مركزاً هاماً في الدولة يستطيع بواسطته أن يفسد بعض الأمور ويغيّر بعض الحقائق.

ومنهم من سلك طريق إظهار المحافظة على الإسلام، والانتصار له، والرد على ما يلصقه به إخوانه، الذين سلكوا سبيله في تشويه سمعة الإسلام.

ومنهم من ضرب على وتر حساس يستطيع به أن يستميل القلوب، ويحرّك الشعور، وهو اظهار حبّ أهل البيت(عليهم السلام)الذين تألّبت جميع الفئات الحاكمة على ظلمهم من دون مراقبة لله ولا مراعاة لحرمة رسوله.

وصفوة القول انّهم توزّعوا على جميع الطوائف الإسلامية، فاندسوا في صفوفهم وامتزجوا في مجتمعهم.

هذا سوسن النصراني كان أول من نطق بالقدر وقد أظهر الإسلام، وعنه أخذ معبد الجهني وأخذ غيلان عن معبد [١٣١] ثم عاد سوسن الى نصرانيّته بعد أن بثّ فكرته.

وهذا ابن كـلاّب من بابية الحشوية، وكان عباد بن سليمان يقول إنّه نصراني.

قال أبو عباس البغوي: دخلنا على فيثون النصراني وكان في دار الروم بالجانب الغربي، فجرى الحديث إلى أن سألته عن ابن كلاّب فقال فيثون: رحم الله عبد الله ـ اسم ابن كلاب ـ كان يجيئني فيجلس الى تلك الزاوية ـ وأشار الى ناحية من البيعة ـ وعنّي أخذ هذا القول، ولو عاش لنصّرنا المسلمين .[١٣٢] ـ أي لجعلناهم نصارى ـ .

ذكرنا هذا على سبيل المثال لما يفعله أصحاب الديانات الأُخرى; الذين كانوا يستغلون الفرص للتدخل في صفوف المسلمين، فلم يتحد غرضهم في الدخول بطائفة

(١٣١) انظر الفِرق للبغدادي ص ٧٠.

(١٣٢) الفهرست لابن النديم ص٢٥٥ ـ ٢٥٦.

أو الانضمام الى جماعة، بل كانوا متفرقين في أهل الحديث والفقهاء والمؤرخين، وأهل الكلام والفلسفة، وسائر العلوم، وما أكثر الوسائل التي يتبعونها والأثواب التي يتنكرون بها لحماية أنفسهم وتحقيق أهدافهم.

فقد يتنكّر اليهودي في ثوب الإسلام ويدّعي لنفسه أهداف المسلمين وأساليبهم، فيندس وسط جماعات وهيئات وهو أبعد ما يكون أن يؤمن بمبادئها ومثلها، ويأخذ على عاتقه هدم هذه المبادئ والمثل والتشكيك في قيمها وجدواها، فهو إذ يتظاهر في الانضمام الى طائفة معينة، ويكون حريصاً على تحقيق مبادئها ونشر تعاليمها إنما يفعل ذلك لينجح في مهمته، وهي تحقيق أهدافه الدنيئة عن طريق آخر، وكذلك غير اليهودي من نصراني ومجوسي ووثني ومشرك، وكل من في قلوبهم حقد على الإسلام وأهله.

فهم يدّعون الإسلام من جهة، ويعملون على هدمه من جهة أُخرى، ولهم أساليب كثيرة يتوسلون بها لتحقيق أهدافهم وتحصيل أمانيهم. وقبل أن نأتي على استقصاء أساليبهم في المكر والخداع والتضليل، نودّ أن نشير الى أبطال حركة الغلاة في عصر الإمام الصادق (عليه السلام) ومعارضة دعوته الاصلاحية، التي قام بها في عصر ازدهار العلم واتساع نطاق النهضة الفكرية.

رؤساء الغلاة ومواقف الإمام ضدّهم

أبو الخطاب الأسدي:

وهو محمد بن مقلاص الأسدي الكوفي كان رجلاً من الموالي اشتهر بكنيته دون اسمه، فالشهرستاني يذكره على أنّه محمد بن زينب الأسدي الأجدع [١٣٣]. والمقريزي يثبته: محمد بن أبي ثور، ويُذكر أنّه قيل في اسمه محمد بن يزيد الأجدع. وأبو جعفر بن بابويه يذكر أن اسم أبي الخطاب زيد، الى آخر ما فيه من الاختلاف [١٣٤].

ظهر هذا الرجل في الكوفة، وكان المجتمع يموج بالتيارات السياسية، والدعوة العباسية تشقّ طريقها الى النجاح بسرعة، فاستغل ذلك الظرف الذي يأمل فيه نجاح مهمته في نشر دعوته الإلحادية، فدعا الى عقيدة عرف أتباعها بالخطابية، وساعدته

(١٣٣) الملل والنحل ج ١ ص ٢١٠.
(١٣٤) خلاصة الأقوال للعلامة ص ٣٩٢ / ١٥٨١ .

الظروف المواتية أن يجمع حوله تلاميذ يلقنهم تعاليمه، ويرسم لهم خطط الدعوة والتجمع والظهور، وكانت حركتهم سرية محكمة وهي حركة سياسية من جهة، وعقائدية من جهة أخرى، وتلتقيان في نقطة العداء للإسلام.

ولم تدوّن عقائد أبي الخطاب في كتاب سطرتها أقلام أتباعه، وإنّما أخذت من غيرهم، وهذا ما يجعلنا نتردد في بعض ما نسب إليه. وقد أجمعت الشيعة على لعن أبي الخطاب وتكفيره والبراءة منه، وإنّه غال ملعون كما هو مذكور في كتب الرجال والحديث والتاريخ.(١٣٥)

قد اتّسعت حركة أبي الخطاب في ذلك الجوّ المضطرب، واستغل فرصة الدعوة لأهل البيت(عليهم السلام)، والانتقام من أعدائهم، فأعلن مبدأه وأظهر عقيدته المخالفة لروح الإسلام، والتي لا تتصل بأهل البيت بأيّ صلة، ولما بلغ ذلك إلى الإمام الصادق (عليه السلام) اهتمّ غاية الاهتمام بفتنة أبي الخطاب، وخاف عاقبتها السيّئة التي تعود على صفوف المسلمين بالفرقة وعلى جمعهم بالشتات، وهو(عليه السلام) في ذلك العصر يبذل جهده في التوجيه الى الالتزام بتعاليم الدين لتجتمع كلمة المسلمين، فيكونوا صفّاً واحداً يردّون كلّ خطر يهدّد المجتمع الإسلامي.

ووقف الإمام الصادق (عليه السلام) تجاه هذه الدعوة الإلحادية موقفاً مهمّاً، وأعلن استنكاره على أبي الخطاب، فكان موقفه (عليه السلام) صدمة لموجة الغلوّ الجامحة وقضاءً مبرماً على مزاعم الملحدين، ويتجلّى عظيم اهتمامه من أقواله، وأمره للناس بالابتعاد عنهم.

قال عيسى بن أبي منصور: سمعت أبا عبد الله الصادق (عليه السلام) يقول - وذكر أبا الخطاب - : اللهمّ إلعن أبا الخطاب فإنّه خوّفني قائماً وقاعداً وعلى فراشي، اللهمّ أذقه حرّ الحديد.(١٣٦)

وعن عنبسة بن مصعب قال: قال لي أبو عبد الله: أيّ شيء سمعت من أبي الخطاب؟ قلت: سمعته يقول: إنّك وضعت يدك على صدره وقلت له: عه ولا تنس. وأنت تعلم الغيب، وأنّك قلت: هو عيبة علمنا وموضع سرنا، أمين على أحيائنا وأمواتنا، فقال الإمام الصادق: لا والله ما مسّ شيء من جسدي جسده، وأمّا قوله إنّي قلت: إني أعلم الغيب فو الله الذي لا إله إلاّ هو ما أعلم الغيب. ولا آجرني الله في أمواتي، ولا بارك لي في أحيائي إن كنت قلت له; وأما قوله إنّي قلت: هو عيبة علمنا

(١٣٥) نقد الرجال ج ٤ ص ٣٢٨ / ٥٠٩٢، بين التصوف والتشيع ص ٢٧٢ - ٢٨٢ .
(١٣٦) رجال الكشي ص ٢٩٠ / ٥٠٩ .

وموضع سرّنا وأمين أحيائنا وأمواتنا، فلا آجرني الله في أمواتي ولا بارك لي في أحيائي، إن كنت قلت له من هذا شيئاً.[١٣٧]

وقال المفضل بن يزيد قال لي أبو عبد الله الصادق (عليه السلام) - وذكر أصحاب أبي الخطاب والغلاة - : يا مفضل، لاتقاعدوهم ولا تواكلوهم ولا تشاوروهم، ولا تصافحوهم ولا توارثوهم .[١٣٨]

وقال مرازم: قال لي أبو عبد الله(عليه السلام): قل للغالية تولّوا إلى الله فإنّكم فساق مشركون .[١٣٩]

وقال أبو بصير: قال لي أبو عبد الله(عليه السلام): يا أبا محمد أبرأ ممّن يزعم أنّا أرباب، قلت بريء منه، قال (عليه السلام): أبرأ ممّن يزعم أنّا أنبياء. قلت: بريء منه.[١٤٠]

وعن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله إنّهم - أي الخطابية - يقولون: إنّك تعلم قطر المطر وعدد النجوم وورق الشجر ووزن ما في البحر، وعدد ما في التراب. فرفع الإمام الصادق (عليه السلام) يده وقال: **سبحان الله سبحان الله والله ما يعلم هذا إلا الله .**[١٤١]

وعن سدير عن أبيه قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): إنّ قوماً يزعمون أنّكم آلهة يتلون علينا بذلك قرآناً **(يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم)** قال (عليه السلام): **ياسدير، سمعي وبصري وشعري وبشري ولحمي ودمي من هؤلاء براء، برأ الله منهم ورسوله ما هؤلاء على ديني ودين آبائي، والله لا يجمعني وإيّاهم يوم إلاّ وهو عليهم ساخط.**[١٤٢]

وقال ميسرة: ذكرت أبا الخطاب عند أبي عبد الله (عليه السلام)، وكان متكئاً فرفع إصبعه إلى السماء ثم قال: على أبي الخطاب لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فأشهد بالله أنّه كافر فاسق مشرك، وأنّه يحشر مع فرعون في أشدّ العذاب غدوّاً وعشيّاً، ثم قال: والله والله إنّي لأنفس على أجساد أُصيبت معه النار.[١٤٣]

(١٣٧) رجال الكشي ص ٢٩١ / ٥١٥.
(١٣٨) رجال الكشي ص ٢٩٧ / ٥٢٥.
(١٣٩) رجال الكشي ص ٢٩٧ / ٥٢٧ .
(١٤٠) رجال الكشي ص ٢٩٧ / ٥٢٩ .
(١٤١) رجال الكشي ص ٢٩٩ / ٥٣٢ .
(١٤٢) رجال الكشي ص ٣٠٦ / ٥٥١.
(١٤٣) رجال الكشي ص ٢٩٦ / ٥٢٤.

إنّنا نلحظ في الفقرة الأخيرة تأسّفه على أولئك القوم الذين غرّر بهم دعاة الإلحاد، فأوردهم موارد الهلكة، عندما انضمّوا تحت لواء تلك الدعوة الباطلة، ولذلك وقف (عليه السلام) في أداء واجبه لشلّ ذلك النشاط المعادي للإسلام، فرفع صوته باستنكار مذهب الغلاة، فكان إعلان براءته صدمة للإلحاد، وقام رجال الشيعة في شلّ تلك الحركة ومعارضة ذلك التيار، و أبعدوهم عن مجتمعهم، وكشفوا الستار الذي كانوا يعملون من ورائه، فأحدث ذلك صدعاً في صفوف الغلاة، أدّى الى فرقتهم وإبادتهم بسرعة.

وقد وقف أبو الخطاب موقف المتصلب تجاه براءة الإمام الصادق منه، وتمكّن من إغراء البسطاء من أصحابه بأنّ يعلن نفسه أنّه نبيّ رسول، وأنّ كلمة الرسل واجب اطاعتها، ويذهب بعض نقلة العقائد أنّه أعلن عن نفسه أنّه إله [١٤٤]، وطفق أبو الخطاب يدعو لعقيدته، وقد أحاط به الفشل لأنّ موقف الإمامالصادق(عليه السلام) وتكذيبه لما يدعيه أبو الخطاب كان له الأثر العظيم في شلّ تلك الحركات التي جاءت لإغواء المسلمين، ومحاربة الدعوة الإسلامية وتشويه سمعة أتباع أهل البيت(عليهم السلام)، فكانت معارضة الإمامالصادق(عليه السلام)ضربة قاضية، وخاب أمل ابن الخطاب، وتفرّق أصحابه بعد براءة الإمام الصادق (عليه السلام)منه، وقد أسف أبو الخطاب أن يتفرّق الآخرون عنه فتمحى دعوته، ولكنّه أراد أن يخاطر بهم في الكريهة، وأن يوردهم حياض المنية، وهم على غير دين الإسلام، فحاول الخروج على الدولة بتلك القلة، وأغراهم بقوله: قاتلوهم فإنّ قصبكم يعمل فيهم عمل الرماح، ورماحهم وسيوفهم وسلاحهم لا تضرّكم ولا تعمل فيكم، وخرج بهم الى مسجد الكوفة ودعا الناس الى نبوّته. وفي المسجد لزموا الأساطين كأنّهم يرون الناس أنّهم قد لزموا للعبادة، وكان عيسى بن موسى قائد المنصور المشهور والياً، ولم يكد يسمع حتى أرسل إليهم قوة من جيشه العباسي للقضاء عليهم، فحاربوا عيسى محاربة شديدة بالحجارة والسكاكين، وهم يعتقدون صدق أبي الخطاب بأنّ السلاح لا يضرّهم، فلمّا قتل منهم نحو ثلاثين رجلاً قالوا: ماترى ما يحلّ بنا من القوم ؟

فقال لعنه الله: إن كان قد بدا لله فيكم فما ذنبي؟ وأسِر أبو الخطاب، فأتي به الى عيسى بن موسى فقتله في دار الرزق، وصلبه مع جماعة من أصحابه وذلك سنة (١٣٨ هـ). وبهذا انتهى دور أبي الخطاب وأصحابه. إذا لم يبق من جماعته سوى

(١٤٤) حركات الشيعة المتطرفين ص ٧٧.

سالم بن مكرم الجمّال الملقب بأبي خديجة الذي سقط بين القتلى، فلمّا جنّه الليل خرج ثم تاب، وكنّاه الإمام الصادق بأبي سلمة، وصلح أمره.

بزيع بن موسى:

وهو أحد أبطال الدعوة الإلحادية. وإليه تنسب الفرقة البزيعية، وقد أقرّوا بنبوّته كما زعموا أنّهم كلّهم أنبياء، وأنّهم لا يموتون، وأنهم يرفعون، وزعم بزيع أنّه صعد الى السماء، وأنّ الله مسح على رأسه، ومج في فيه، وأنّ الحكمة تنبت في صدره، إلى آخر خرافاته وأكاذيبه.(١٤٥)

وزعم جماعة من أصحابه أنّه الإمام بعد أبي الخطاب، ولهذا عدّت فرقة البزيعية من فرق الخطابية، مع أنّ لكلّ منهما بدعة مستقلة وآراء على حدة.(١٤٦)

ولما بلغت مقالته للإمام الصادق(عليه السلام) أعلن للملأ لعنه، والبراءة منه ومن أضرابه وقال: لعن الله بزيعاً، والسري، ومعمراً، وبشار الشعيري، وحمزة الزيدي، وصائد النهدي.(١٤٧)

وقال (عليه السلام): **إنّ بناناً والسري وبزيعاً لعنهم الله قد تراءى لهم الشيطان.**

وقال (عليه السلام) عند ذكر هؤلاء: **لعنهم الله، فإنّا لا نخلو من كذاب يكذب علينا أو عاجز الرأي، كفانا الله مؤنة كلّ كذّاب، وأذاقهم حرّ الحديد .**(١٤٨)

ولا زال الإمام يرسل كتبه ويوجّه رسله للأقطار، في التحذير من هؤلاء الذين أقضّوا مضجعه، في بثّ سمومهم في المجتمع الإسلامي.

بشار الشعيري:

وكان بشار الشعيري من أهل الكوفة من دعاة الإلحاد، وممّن يقول بمقالة العلياوية، وهم الذين قالوا : إنّ علياً ربّ.

وظهر بالعلوية الهاشمية، وقالوا بالتناسخ والتعطيل، وكان لبشار جماعة يتبعونه على أضاليله وأباطيله.

قال مرازم: قال أبو عبد الله(عليه السلام): **يا مرازم، من بشار؟** قلت: الشعيري. قال (عليه السلام): **لعن الله بشاراً يامرازم قل لهم: ويلكم توبوا الى الله، فإنّكم كافرون مشركون.**

(١٤٥) المقالات والفرق ص ٥٢ ـ ٥٤ .
(١٤٦) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٣٠١.
(١٤٧) رجال الكشي ص ٣٠٥ / ٥٤٩.
(١٤٨) رجال الكشي ص ٣٠٥ / ٥٤٩ .

وكان بشار جاراً لمرازم، فقال له الصادق (عليه السلام) : **يا مرازم، إنّ اليهود قالوا ووحّدوا الله، وإنّ النصارى قالوا ووحّدوا الله، وإن بشاراً قال قولاً عظيماً، فإذا قدمت الكوفة فأته وقل له يقول لك جعفر: يافاسق، يا كافر، يا مشرك، أنا بريء منك.**

قال مرازم: فلما قدمت الكوفة، فوضعت متاعي وجئت إليه، ودعوت الجارية، وقلت قولي لإبي إسماعيل، هذا مرازم، فخرج إليّ. فقلت له: يقول لك جعفر بن محمد: يا كافر، يا فاسق، يا مشرك، أنا بريء منك. فقال بشار: وقد ذكرني سيدي. قال: قلت نعم ذكرك بهذا الذي قلت لك. فقال: جزاك الله خيراً، وجعل يدعو لي.(١٤٩)

ومن هذا يتجلّى لنا أنّ هؤلاء الناس كانوا يخفون أغراضهم وراء حبّ آل البيت، فمن عدم اكتراث بشّار ببراءة الإمام منه ولعنه له، ندرك أنّهم يحملون عقائد غرضها الإساءة الى الإسلام، وليس الأمر حبّ أهل البيت، لأنّ الحبّ يؤدي الى اتباع تقاليدهم وأوامرهم والمودة تعني عدم مخالفتهم، وإنّما الأمر يتعلق بجذور دفينة وبذور كامنة حالت دون إيمانهم الصحيح.

وقال إسحاق بن عمار: قال أبو عبد الله(عليه السلام) لبشار الشعيري: **اخرج عني لعنك الله. لا والله لا يظلني وإياك سقف أبداً، فلما خرج قال أبو عبد الله: ويله ألا قال بما قالت اليهود؟ ألا قال بما قالت النصارى؟ ألا قال بما قالت المجوس؟ أو بما قالت الصابئة؟ والله ما صغّر الله تصغير هذا الفاجر أحد إنّه شيطان ابن شيطان، خرج من البحر ليغوي أصحابي فاحذروه، وليبلغ الشاهد الغائب، أنّي عبد الله ابن عبد الله، ضمتني الأصلاب والأرحام، وإنّي لميّت ومبعوث، ثم مسؤول، والله لأسألنّ عمّا قال فيّ هذا الكذاب وادعاه، ما له غمه الله، فلقد أمن على فراشه، وأفزعني وأقلقني عن رقادي.**(١٥٠)

وخلاصة القول انّ بشاراً تزعّم حركة إلحادية، وقد اهتم الإمامالصادق بهم أعظم اهتمام كما تدل عليه أقواله في ذلك، لأنّ هؤلاء الملحدين أرادوا الوقيعة في أهل البيت(عليهم السلام)، ومعارضة الدعوة التي قام بها الإمامالصادق، في إصلاح ما أفسدته الظروف القاسية، التي مرّت بالمسلمين.

أمّا الذين ذكرهم (عليه السلام) مع بشار ولعنهم، وتبرأ منهم، وهم بزيع وتقدّمت الإشارة إليه، ومعمر، والسري، وحمزة الزيدي، وصائد النهدي، وبيان، فكانوا من دعاة الإلحاد، وأبطال إثارة الفتنة بين صفوف المسلمين، والكذب على أهل البيت(عليهم السلام). وكان لكلّ واحد من هؤلاء دور هام في إثارة الفتن، وإشغال مجتمع الشيعة في

(١٤٩) قاموس الرجال ج ٢ ص ٣١٤ / ١٠٩٧.
(١٥٠) قاموس الرجال ج ٢ ص ٣١٥ / ١٠٩٧.

مقاومتهم، لأنّ أولئك النفر من الغلاة قد أجهدوا أنفسهم في التلفيق والكذب، وإيجاد سلسلة أفكار تنافي واقع الإسلام، فلم تنجح تلك الخطط; لأنّ أهل البيت أمروا أتباعهم بمقاومتهم.

معمر النهدي: فأمّا معمر فهو زعيم الفرقة المعمرية التي ألفت بعد قتل أبي الخطاب وقد ألفوا لهم عقيدة مستقلة، على نحو ما فعل بزيع، وخرج ابن (اللبان) يدعو الى معمّر، وقال إنّه الله، وصلّى له وصام، وأحلّ الشهوات كلّها، ماحل منها وما حرم، كشرب الخمر، والزنا، والسرقة، والميتة، ولحم الخنزير، وغيرها. وقالوا بالتناسخ وإنّهم لا يموتون، ولكن يرفعون بأبدانهم الى الملكوت، وتوضع للناس أجساد شبه أجسادهم[١٥١]. الى آخر ما هنالك من أقوالهم الخرافية ودعاياتهم الإلحادية .

وأما السري: فهو الذي قال فيه أصحابه: إنّه رسول مثل أبي الخطاب: وقالوا:إنّه قوي أمين، وهو موسى القوي الأمين، وفيه تلك الروح الخ .[١٥٢]

حمزة الزيدي: وأما حمزة الزيدي فكان يكذب على أبي جعفر الباقر(عليه السلام)، وقد أعلن (عليه السلام) للناس لعنه وكذبه.

وكان حمزة يقول لأصحابه: إنّ أبا جعفر يأتيني في كلّ ليلة، وقد وصفه الإمام الصادق(عليه السلام) بأنّه شيطان ولعنه، وحذّر الناس من كذبه، والذي يظهر أنّ الرجل استعمل سلاح الافتراء والكذب على أهل البيت(عليهم السلام)، ولا شكّ أنّ أثره عظم في الإغراء والتضليل، ولم توجد له آثار تدل على ادعائه بعقيدة خاصة، أو مبدأ مرسوم، أو تأليف جماعة معينة، وإنّما كان داعية ضلال وعدوّاً لأهل البيت (عليهم السلام) يذيع عنهم ما لا يقولونه.

صائد النهدي:

وكذلك صائد النهدي، فالذي يظهر أنّه كان من الكذّابين ولم نقف على ترجمة وافية له نستمدّ منها آراءه ونزعاته[١٥٣]، وكان من جملة من لعنهم الإمام الصادق وقال(عليه السلام) لأصحابه في قوله تعالى: (**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ* تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاك**

(١٥١) فِرق النوبختي ص ٤٤.
(١٥٢) المقالات والفرق ص ٥٢ / ١٠٤ .
(١٥٣) فرق النوبختي ص ٣٨.

أثِيم)[١٥٤] قال: **هم سبعة، المغيرة بن سعيد، وبيان، وصائد، والحارث الشامي، وعبدالله بن الحارث، وحمزة بن عمارة الزيدي**[١٥٥].

وقد أظهر الإمام الصادق (عليه السلام) نوايا هؤلاء الذين اتخذوا الكذب على أهل البيت(عليهم السلام)سلاحاًيفتكون به.

قال (عليه السلام): **إنا أهل بيت صادقون، لا نخلو من كذاب يكذب علينا ليسقط صدقنا بكذبه علينا عند الناس.**[١٥٦]

وأما بيان فالذي يظهر أنّه كان من الكذّابين أيضاً، لأنّ الإمام كان يقول لعن بيان التبان، وإنّ بياناً كان يكذب على أبي. ولابدّ هنا من التنبيه إلى شيء، وهو: أنّ هذا الاسم يشتبه مع بيان بن سمعان التميمي أو النهدي الذي قام بحركة إلحادية في عصر الإمام الباقر والصادق، وإليه تنسب الفرقة البيانية، وقالوا: بنبوة بيان وقالوا في ذلك قول الله عز وجل: (**هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً**).

وادّعى بيان النبوّة بعد أبي هاشم بن محمد بن الحنفية، وكتب إلى الإمام أبي جعفر الباقر (عليه السلام) يدعوه إلى نفسه والإقرار له; ويقول في رسالته للإمام الباقر (عليه السلام): أسلم تسلم وترتق في سلم، وتنج وتغنم، فإنّك لا تدري أين يجعل الله النبوة والرسالة وقد أعذر من أنذر.

وحاول بيان أن تكون له شخصيّة لتركيز دعوته ونشر مبادئه، فكان يظهر قدرته على السحر، وأنّ عنده الاسم الأعظم، وبه يهزم العساكر، ويدعو به الزهرة فتجيبه، وادّعى بنفسه الربوبية، وقال: أنا البيان، وأنا الهدى، وأنا الموعظة. واختلف أصحابه في عقيدتهم فيه :

فمنهم من زعم أنّه كان نبيّاً نسخ بعض شريعة محمد (صلى الله عليه وآله) ومنهم من زعم أنّه كان إلهاً.[١٥٧]

ويقول النوبختي: إنّ بياناً كان تباناً يتبن التبن بالكوفة، ثم ادّعى أنّ محمد بن علي بن الحسين أوصى إليه، وأخذه خالد بن عبد الله القسري هو وخمسة عشر رجلاً من أصحابه، فشدّهم في أطنان القصب، وصبّ عليهم النفط في مسجد الكوفة، وألهب فيهم النار، فأفلت منهم رجل فخرج بنفسه، ثم التفت فرأى أصحابه تأخذهم النار، فكّر

(١٥٤) الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٢ .
(١٥٥) الخصال للصدوق: ٤٠٢، بالاضافة الى أبي الخطاب هم سبعة، وذكر حمزة بن عمارة البريري وليس الزيدي.
(١٥٦) رجال الكشي ص ٣٩٨ / ٧٤٣ .
(١٥٧) رجال الكشي ص ٣٩٨ / ٧٤٣، الفَرق بين الفِرق للبغدادي ص١٤٥ .

راجعاً الى أن ألقى نفسه في النار فاحترق معهم .[١٥٨]

المغيرة بن سعيد:

وهو مولى بجيلة، خرج في أيام أبي جعفر الباقر(عليه السلام) ، وقتل في أيام الإمام الصادق (عليه السلام) سنة (١١٩ هـ).

وقد استطاع أن يموّه على كثير من المتطرفين، وأن يخدع جملة من الناس، وكان ماهراً في دسّ الأحاديث ووضعها على أهل البيت(عليهم السلام).

وقد نسبت إليه عقيدة تأليه علي (عليه السلام) ولم يثبت ذلك، لأنّ الثابت أنّه قال: بأنّ علياً مخلوق; ويبدو أنّ المغيرية ألّهوا علياً متأثرين بالخطابية.[١٥٩]

وذكر عنه الرواة: أنّه ذهب الى أنّ ماء الفرات محرم، وأنّ كلّ نهر أو عين أو بئر وقعت فيه نجاسة فهو أيضا محرم .[١٦٠]

ويقول الشهرستاني: إن المغيرة ادّعى لنفسه الإمامة بعد محمد المعروف بالباقر بن علي بن الحسين، وبعد ذلك ادّعى النبوّة لنفسه وغلا في حقّ علي.[١٦١]

ويقول الطبري: كان المغيرة يخرج الى المقبرة فيتكلّم فيرى مثل الجراد على القبور .[١٦٢]

ويقول الأشعري: إنّه زعم أنّه يحيي الموتى بالاسم الأعظم، وأراهم أشياء من اليزنجات والمخاريق.[١٦٣]

وقال جرير بن عبد الحميد: كان المغيرة بن سعيد كذّاباً ساحراً.

وقال الجوزجاني: قتل المغيرة على ادعاءه النبوة، كان أسعر النيران بالكوفة على التمويه والشعبذة حتى أجابه خلق كثير.

وقال معاوية: أول من سمعته يتنقص أبا بكر وعمر المغيرة المصلوب.[١٦٤]

(١٥٨) الفرق للنوبختي ص ٢٨.
(١٥٩) الملل والنحل ج ١ ص ٢٩٤.
(١٦٠) لسان الميزان ج ٧ ص ٢٣ / ٨٥٩٢.
(١٦١) الملل والنحل ج١ ص٢٩٤ .
(١٦٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٧٤.
(١٦٣) لسان الميزان لابن حجر ج ٦ ص ٧٦، المقالات الإسلامية للأشعري ج ١ ص٧ ـ٨ .
(١٦٤) لسان الميزان ج ٧ ص ٢٤ / ٨٥٩٢.

وقد كانت حركة المغيرة حركة قوية، وكان لخروجه منادياً لعقيدته دوي أزعج خالد القسري والي الكوفة وأذهله، وقد سمع به وهو على المنبر، فنادى أن أطعموني ماء، يريد أن يشرب فهجاه يحيى بن نوفل بقوله :

تقول من النواكه أطعموني *** شراباً ثم بلت على السرير

لأعلاج ثمانية وشيخ *** كليل الحد ذي بصر ضرير[١٦٥]

وكان المغيرة أعمى، وقول الشاعر: لأعلاج ثمانية: هو أن أصحاب المغيرة الذين خرج بهم ويدعون الوصفاء كانوا ثمانية، وقيل : سبعة.

براءة الإمامين الباقر والصادق من المغيرة

ومهما يكن من حديث هذا الرجل، فإنّا نودّ أن نكشف واقعه على أضواء أقوال أهل البيت فيه، وفي أضرابه الذين تنكّروا للمسلمين، وتآمروا عليهم; قصد الوقيعة فيهم.

قال كثير النواء: سمعت أبا جعفر الباقر (عليه السلام) يقول: **برئ الله ورسوله من المغيرة بن سعيد، وبنان بن سمعان، فإنهما كذبا علينا أهل البيت .**[١٦٦]

وقال محمد بن عيسى بن عبيد : إنّ بعض أصحابنا سأل يونس بن عبد الرحمن[١٦٧] وأنا حاضر: وقال له يا أبا محمد، ما أشدّك في الحديث؟! وأشدّ إنكارك لما يرويه أصحابنا! فما الذي يحملك على رد الأحاديث ؟

فقال يونس: حدّثني هشام بن الحكم أنّه سمع أبا عبد الله الصادق يقول(عليه السلام): **لا تقبلوا علينا حديثاً إلا ما وافق القرآن والسنة، أو تجدون معه شاهداً من أحاديثنا المتقدمة، فإن المغيرة بن سعيد لعنه الله دسّ في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدّث بها أبي، فاتقوا الله، ولا تقبلو علينا ما خالف قول ربّنا، وسنّة نبيّنا**(صلى الله عليه وآله)[١٦٨].

وفي رواية أُخرى: عن يونس بن هشام بن الحكم أنّه سمع أبا عبد الله (عليه السلام)يقول: **كان المغيرة بن سعيد يتعمّد الكذب على أبي، ويأخذ كتب أصحابه، وكان أصحابه**

(١٦٥) لسان الميزان ج ٦ ص ٧٦.

(١٦٦) لسان العرب ج ٦ ص ٧٦.

(١٦٧) يونس بن عبد الرحمن، أبو محمد مولى علي بن يقطين، المتوفى سنة (٢٠٨ هـ) كان من تلامذة الإمام موسى بن جعفر وعلي بن موسى الرضا(عليهما السلام) وكان الإمام الرضا يشير إليه في العلم والفتيا ، وكان من خاصة الإمام الرضا ووكيله، وله تصانيف كثيرة منها: كتاب الإرث، كتاب الزكاة، كتاب جوامع الآثار، كتاب الشرائع، كتاب الصلاة، كتاب العلل الكبير، كتاب علل الحديث، كتاب الجامع الكبير في الفقه، كتاب تفسير الميزان، كتاب الرد على الغلاة. وغيرها يبلغ عددها الثلاثين كتاباً. قال أبو جعفر البصري: دخلت مع يونس بن عبد الرحمن على الرضا (عليه السلام) فشكى إليه ما يلقى من أصحابه: فقال (عليه السلام): «دارهم فإن عقولهم لا تبلغ». توفي يونس بالمدينة المنورة سنة (٢٢٨ هـ).

(١٦٨) إختيار معرفة الرجال: ٤٨٩/٢، رقم ٤٠١، بحار الأنوار: ٢٩٤/٩٦ .

المستترون بأصحاب أبي يأخذون الكتب، فيدفعونها إلى المغيرة، وكان يدسّ فيها الكفر والزندقة، ويسندها الى أبي ثم يدفعها الى أصحابه، ثم يأمرهم أن يبّثوها في الشيعة، فكلّ ما كان في كتب أبي من الغلو فذاك مما دسه المغيرة بن سعيد في كتبهم.(١٦٩)

وعن عبد الرحمن بن كثير قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام) يوماً لأصحابه: **لعن الله المغيرة بن سعيد ولعن الله يهودية كان يختلف إليها، يتعلم منها السحر، والشعبذة، والمخاريق، أنّ المغيرة كذب على أبي فسلبه الله الإيمان، وأنّ قوماً كذبوا عليّ مالهم؟ أذاقهم الله حر الحديد! فو الله ما نحن إلاّ عبيد خلقنا واصطفانا، ما نقدر على ضر ولا نفع، إن رحمنا فبرحمته، وإن عذبنا فبذنوبنا، والله مابنا على الله من حجة، ولا معنا من الله براءة، وإنا لميتون، ومقبورون، ومنشورون، ومبعوثون، وموقفون، ومسؤولون، مالهم لعنهم الله، فلقد آذوا الله، وآذوا رسول الله في قبره، وأمير المؤمنين، وفاطمة، والحسن، والحسين؟ وها أنا ذا بين أظهركم، أبيت على فراشي خائفاً، يأمنون وافزع، وينامون على فراشهم وأنا خائف. ساهر وجل، أبرأ الى الله مما قال فيّ الاجدع، وعبد بني أسد أبو الخطاب لعنه الله، والله لو ابتلوا بنا وأمرناهم بذلك لكان الواجب أن لا يتقبلوه، فكيف وهم يروني خائفاً وجلاً أستعدي الله عليهم، وأبرأ إلى الله منهم؟! إني امرؤ ولدني رسول الله**(صلى الله عليه وآله) **وما معي براءة من الله، إن أطعته رحمني، وإن عصيته عذّبني عذاباً شديداً.**

وعلى أيّ حال: فهو (عليه السلام) كان مهتماً غاية الاهتمام بأضرار هؤلاء المندسين بين صفوف الأمة، فكان قلقاً منهم، ويعلن للناس براءته منهم، ويبيّن لهم كذب ما يدّعيه أولئك المخرّبون، الذين أرادوا أن يفسدوا المجتمع وأن يثيروا الفتنة، بادعاء التأليه لأهل البيت مع أنّه (عليه السلام) يعترف بأنّه عبد من عبيد الله، وأنّه ميّت ومبعوث.

كما يتجلّى لنا عظيم اهتمامه بفتنة هؤلاء، وألمه ممّا يقومون به من الحال التي بات عليها فهو خائف وجل، يبيت على فراشه قلقاً، لايقرّ به قرار، خشية اتساع هذه الفتنة، وتطاير شررها، فلا يعود ذلك على المسلمين إلاّ بأوخم العواقب.

هذا وقد نشط المغيرة في دعوته الإلحادية، كما قدمنا، وأمر أصحابه بإظهار الدعوة، والانتقال من السر الى العلن، وكانوا سبعة نفر يدعون الوصفاء، وكان خروجهم بظهر الكوفة، فأخبر خالد القسري بخروجهم وهو على المنبر، فقال: أطعموني ماء، لانزعاجه وخوفه، فهجاه ابن نوفل كما تقدّم.

ولما ظفر به خالد أتى به مع سبعة نفر، ثم أمر بسريره فأخرج الى المسجد، وأمر بأطنان القصب ونفط، فأحضروا ثم أمر المغيرة أن يتناول، فكع عنه وتأنى. فصبّت

(١٦٩) اختيار معرفة الرجال: ٤٩١/٢، رقم ٤٠٢، بحار الأنوار: ٢٥٠/٢ ح ٦٣.

عليه السياط، فتناول طناً فاحتضنه فشدّ عليه، ثم صبّ عليه وعلى الطن نفط، ثم ألهبت فيهما النار فاحترقا، ثم أمر الرهط ففعلوا.[١٧٠]

وقال أبو بكر بن عياش: رأيت خالد بن عبد الله القسري حين أتى بالمغيرة ابن سعيد وأتباعه، فقتل منهم رجلاً، ثم قال للمغيرة أحيه ـ وكان يريهم أنّه يحيي الموتى ـ فقال: والله ما أحيي الموتى. فأمر خالد بطن قصب فأضرم ناراً، ثم قال للمغيرة اعتنقه فأبى، فعدا رجل من أصحابه فاعتنقه والنار تأكله. فقال خالد هذا والله أحقّ منك بالرياسة، ثم قتله وقتل أصحابه، وذلك حدود سنة (١١٩ هـ) .[١٧١]

أبو منصور العجلي:

وهو أبو منصور مشهور بكنيته، نشأ في البادية ثم استوطن الكوفة، وله بها داراً، وكان عربياً من عبد القيس.

جاء هذا الرجل ببدع، ودخل في ميدان ذلك الصراع العنيف، وادّعى أنّ الله عزّ وجل عرج به إليه، فأدناه منه وكلّمه، ومسح على رأسه، وقال له: أي بني، وادّعى أيضاً أنه نبيّ ورسول، وأنّ جبرائيل (عليه السلام) يأتيه بالوحي من عند الله عزّ وجل، وأنّ الله بعث محمداً (صلى الله عليه وآله) بالتنزيل، وبعثه هو «يعني نفسه» بالتأويل. وكان يرى وجوب قتل من خالف دعوته، لأنّهم مشركون فيقول لأصحابه: من خالفكم فهو مشرك كافر فاقتلوه. فإن هذا جهاد خفي.

قام هذا الرجل بنشاط، وعلّم أصحابه الثبات والشجاعة، وراح يطلب الوسائل التي ينجح بها في تقوية حركته، وتركيز زعامته، وأعلن أولاً: أنّه من أتباع أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين، ولكن أمله لم يتحقق فإنّ الإمام أبا جعفر عندما بلغه أمره أظهر لعنه، والبراءة منه، وطرده من حظيرة أتباعه، ولمّا فشل في حيلته هذه ادعى أنّه إمام وحده، ودعا الناس الى اتباعه، وأنّه الإمام الشرعي المستقل، ثم ترائى له الأمر فأصبح نبيّاً، وقال: إنّ الرسالة لاتنقطع أبداً. بمعنى أنّ الانبياء يظهرون في جميع العصور والأوقات. وهذه المقالة تبرر ادّعاءه بالنبوة، وكذلك ادّعى أنّ النبوة في ستة من ولده.

وقد تنبّأ ابنه من بعده، وادعى مرتبة أبيه، وتابعه على رأيه بعض السفلة، وكان مصيره القتل .[١٧٢]

(١٧٠) تاريخ الطبري ج ٩ حوادث سنة ١١٩ هـ .
(١٧١) لسان الميزان ج٧ ص ٢٣ / ٨٥٩٢ .
(١٧٢) المقالات والفرق ص ٤٦ ـ ٤٧ .

واستمرّ أبو منصور ببدعته وغوايته، وقد لقّبه الإمام الصادق (عليه السلام) بأنّه رسول إبليس، عندما أعلن للناس خبث سريرته، وعظم خطره، وقد حذّر الناس منه وأمرهم بالابتعاد عنه، ولعنه ثلاثاً [١٧٣] ودعا عليه، ولم يكد يوسف بن عمر الوالي زمن هشام بن عبد الملك يقف على أمرهم، حتى تصدّى له ولأصحابه، فقتلهم صلباً. وتزعّم ولده فيمن لقي من أصحاب أبيه، وادّعى النبوّة أيضاً، فأخذه المهدي، وقتله وتتبع أصحابه.

وهكذا ينتهي آخر دور يلعبه دعاة الفرقة من أعداء الإسلام، الذين أرادوا أن يفتكوا بأهله، إنتصاراً لمبادئهم، وحبّاً للسلطة والنفوذ، فاستعملوا شتّى الوسائل في تحقيق ذلك، ولكن محاولتهم فشلت، لقيام دعاة الإصلاح في إيضاح مفاسدهم، وبيان خطرهم، وسوء نواياهم، حتى زالوا من صفحة الوجود.

وقد أخطأ الأستاذ محمد جابر عبد العال، مؤلف «كتاب حركات الشيعة المتطرفين»، حيث يذهب الى بقاء تلك الحركة، وإنّ جابر الجعفي تزعمها بقوله: قتل المغيرة وصلب بجوار بيان بواسط، كما قتل أصحابه، ولكن حركته لم تخمد، إذ تزعمها من بعده جابر الجعفي، وأنزله أصحاب المغيرة بمنزلة المغيرة نفسه .[١٧٤]

وهذا القول خارج عن حدود الصحة، وبعيد كلّ البعد عن الواقع، وهو تهجّم شنيع، وافتراء فاضح، فإنّ علماء الحديث هم أدرى بجابر وأعرف بمنزلته، وليعرني الأستاذ سمعه لأنقل له شهادة علماء الرجال الأعلام :

يقول ابن المهدي: ما رأيت في الحديث أورع من جابر .

وقال ابن عليه: جابر صدوق في الحديث .

وقال شعبة: إذا قال جابر حدَّثنا وسمعت فهو من أوثق الناس.

وقال وكيع: مهما شككتم فلا تشكّوا في أنّ جابراً ثقة.

وقال ابن عبد الحكم: سمعت الشافعي يقول : قال سفيان الثوري لشعبة: لئن تكلمت في جابر لأتكلّمن فيك.[١٧٥]

ولا نطيل الكلام حول منزلة جابر العلمية، فقد روى عنه خلق كثير، منهم: شعبة، والثوري، واسرائيل، والحسن بن حي، وشريك، ومسعر، وأبو عوانة، وغيرهم. وخرّج حديثه الترمذي في صحيحه [١٧٦] وأبو داود في سننه [١٧٧] وابن ماجة [١٧٨].

(١٧٣) رجال الكشي ص ١٩٦.

(١٧٤) حركات الشيعة المتطرفين ص ٤١.

(١٧٥) تهذيب التهذيب ج ٢ ص ٤٨.

(١٧٦) صحيح الترمذي ج ١ ص ٤٠١ / ٢٠٦.

هذا وإنّ مدحه والثناء عليه من أهل البيت ثابت متواتر، ولا أدري من أين جاء الأستاذ بهذه الفكرة الخاطئة ولعله اعتمد على البغدادي في الفرق إذ يقول عند ذكره لمن ذهب الى رجعة محمد بن عبد الله بن الحسن، ويقال لهم المحمّدية لانتظارهم محمد بن عبد الله، وكان جابر على هذا المذهب وكان يقول برجعة الأموات الى الدنيا قبل القيامة [١٧٩] ا هـ . والبغدادي معروف بتقوّله وكذبه في نقله، فقد أورد في كتابه أموراً لا صحة لها. ولنفترق هنا تاركين الحديث عن كثير من الاخطاء التي وقفنا عليها في مؤلفه، ونقله أموراً لا صحة لها، وحكمه على أشياء بدون تثبّت، وإنّ الأستاذ عبد العال قد خالف الحقيقة، فلقد غرّب وشرّق، وتقوّل وتأوّل، والكتاب بمجموعه نقد لاذع، وكذب فظيع، ولقد مثل في كثير من آرائه أفكاره الضيّقة، ونظرته القاصرة، لأنّه أثبت أشياء على غير تأمّل، بل إعراضاً عن الحق، وتجاوزاً عن الحقيقة، واستسلاماً للهدف الذي من أجله يقصده في تأليفه.

ولقد مررت على تلك الاخطاء المتراكمة مرّ كرام، وعسانا نلتقي به مرة أُخرى، وهو واحد من مجموعة كبيرة من الكتاب، الذين يقولون بدون تدبّر وأكثرهم يتقوّل انتصاراً لمذهبه، أو خضوعاً لعاطفته.

دراسة حركة الغلاة ناقصة

وعلى أيّ حال فإنّ حركة الغلاة هي من أخطر العوامل التي لعبت دوراً هاماً في المجتمع الإسلامي، وأنّ دراستها لا تزال حتى اليوم ناقصة بل غامضة، لوجود الكثير من التشويه واللبس، فالوقوف عليها ببيان ووضوح من المشقة بمكان، إذ لم تدوّن آراء أُولئك القوم بأقلام دعاتهم، فلم تكن لهم مؤلّفات تدوّن بها عقائدهم، وذلك لأنّ حركتهم كانت قصيرة العمر سريعة الزوال، لما قام به أهل البيت(عليهم السلام)في تفريق صفوفهم، وصدع شملهم عندما أعلنوا البراءة منهم، ولعنوهم، وحذّروا المجتمع الإسلامي من نواياهم الخبيثة، فكانت عاقبتهم الى الزوال، وجمعهم الى الشتات.

وإنّ كثيراً ممن كتب في هذا الموضوع وتناوله بالبحث، لم يقصد جلاء الغامض، وإظهار الحقيقة، وإنّما القصد من ذلك هو التشويه، والتضليل، ونشر ما يساعد أعداء الدين الإسلامي على الوقيعة في أهله، لأنّ أُولئك الذين تناولوا حركة الغلاة بالبحث

(١٧٧) سنن أبي داود ج ١ ص ٢٧٢ / ١٠٣٦ .
(١٧٨) سنن ابن ماجة ج١ ص ٤٨١ / ٨٩١ .
(١٧٩) الفَرق بين الفِرق ص ٣٧.

لم يتحروا الدقة في إيراد ما جاء في كثير من الروايات، ولم يدرسوا الظروف التي ساعدت على نشر تلك الأفكار الخاطئة والعقائد الفاسدة، التي حاولوا نشرها في المجتمع الإسلامي، وإنّ أولئك الكتاب يجهلون العوامل التي أدت الى قيام تلك الحركة، أو أنّهم يتعصبون فيحيدون عن الواقع ويتنكرون للحقيقة، وأنّ الجهل والتعصّب هما اللذان يجعلان كثيراً من الكتّاب والمؤرّخين يتجاهلون قيمة إظهار الحقيقة وبيان الواقع، وأنّهم يكتبون لا للتاريخ والحقيقة، وإنّما يكتبون للمغالطة والوقيعة، ولم يدركوا خطر أخطائهم وعظيم جنايتهم على الإسلام، في فتح باب التدخل
لأعداء الإسلام.

الغلاة والشيعة

وكيف كان فقد ظهر لنا أنّ حركة الغلاة كانت ضد أهل البيت(عليهم السلام)بصورة خاصة، وضد الإسلام بصورة عامة، فإنّ ما يدعون إليه إنّما هو ضد ما دعا إليه الإسلام، وأهل البيت هم أقطاب الإسلام ودعاته، والذين بذلوا أنفسهم في سبيل إعلاء كلمته، والمحافظة على مبادئه، ونشر تعاليمه، وأنّ التشيّع بمفهومه الواقعي هو اتّباع الإمام علي (عليه السلام) ومشايعته مع أنّ بعض الفئات من الغلاة كانوا يكفّرون علياً (عليه السلام) كالكاملية فكيف يصح عدّهم في عداد الشيعة؟

وقد علمنا من أقوال الإمام الصادق كيف كانت حالته وهو يواجه هذه الحركة حتى وصف قلقه بما يعطينا صورة عن اهتمام الإمام بخطرها واعتبارها من المحن التي أرّقته.

وكيف يصح أن تجعل البيانية من فرق الشيعة، وهذا زعيمهم بيان يحاول أن يكون الإمام الباقر (عليه السلام) من أتباعه، عندما يكتب إليه يدعوه لنفسه، والاقرار له، فيقول في رسالته للإمام الباقر (عليه السلام): أسلم تسلم، وتنج وتغنم، فإنّك لا تدري أين يجعل الله النبوّة والرسالة، وقد أعذر من أنذر.

فهل بعد هذا من مجال لمتقوّل أو زاعم، بأن تجعل هذه الحركة من حركات الشيعة؟ ولكنّ الخصومة توجد من لا شيء شيئاً، وتفسّر الحوادث بما تشتهي.

والمغيرية وأتباعها يذهبون الى تكفير أهل البيت(عليهم السلام)والشيعة أجمع، لأنّهم يرون كفر من خالفهم، ووجوب قتله، وهل وجدت دعوتهم معارضة من قبل فئة، كما

وجدت من قبل الأئمة وشيعتهم فكيف يصح عدّهم في سجل الشيعة؟ وهكذا الى آخر ما وقفنا عليه.

والشيء الذي نريد أن نقوله هو: أنّ حركة الغلاة قد شلّت في تلك المعارضة التي صدرت عن الإمام الصادق (عليه السلام) وزالت آثارهم بسرعة. ولكنّ الأغراض السياسية العمياء عندما حاولت الحطّ من كرامة أهل البيت قد جعلت حركة الزنادقة مرتبطة بالتشيّع، (وأنّه كانت هناك رابطة بين الزندقة والشيعة، إذ رأينا كيف كان الانتساب الى الشيعة الرافضة دليلاً على الزندقة، وداعياً إلى الاتهام بها)[١٨٠].

وقد قامت الدولة في أيام المهدي بمطاردة من يتّهم بالزندقة والقضاء عليه، فقتل بتلك خلق كثير، ولم يكن كلّ هؤلاء الذين يتهمون بالزندقة زنادقة حقّاً، وإنّما كان منهم من يتّهم بالزندقة لأسباب سياسية، فقد اتخذ الخلفاء من هذا الاتهام وسيلة للقضاء على خصومهم، ممّن لم يساير ركبهم، أو يتحسسون فيه عدم الميل إليهم، كما كانوا يتهمون بذلك بعض الهاشميين الذين يريدون القضاء عليهم، فقد اتّهم ابن من أبناء داود بن علي العباسي، ثم يعقوب بن الفضل وأُتي بهما الى الخليفة المهدي.

وعلى هذا النحو فقد فتح باب التشفّي والانتقام بتهمة الزندقة، ليكون ذلك مبرّراً لقتلهم، ولم يقتصر الأمر على الخلفاء في اتهامهم الخصوم بالزندقة; بل كان هناك من الوزراء من يتخذون الاتهام - الباطل غالباً - بالزندقة سبيلاً للكيد والوقيعة بنظرائهم، أو خصومهم الذين يحقدون عليهم .[١٨١]

وبهذا فتحت أبواب التهم على الشيعة، لأنّهم الحزب المعارض للدولة والخصوم لحكام الجور، فكان ماكان من تهم وتقوّل وافتراء.

حركة الغلاة ضد الإسلام

عرفنا أنّ هذه الفئة الضالة، تكمن وراء قوّة الدسّ والوقيعة والتفرقة، وبعث الشك والريبة في النفوس، ولو طال بها الزمن لاستطاعت أن تؤثر بطريق مباشر، أو غير مباشر على ذوي العقول الضعيفة، وتجرفهم بتيارها، ولكن لم يثبت التاريخ أنّهم أثّروا على أحد ممّن له صلة بأهل البيت، فمال إلى أقوالهم.

(١٨٠) تاريخ الإلحاد في الإسلام لعبد الرحمن بدوي ص ٣٩.

(١٨١) تاريخ الطبري ص ٤٩٠ والجهشياري ص ٨٩ - ٩٠ .

وليس في مقدور أيّ أحد أن يغفل حقيقة هامة، وهي أنّ هؤلاء المتدخلين في صفوف الأمة قد دفعهم بغضهم للإسلام على أي لون كان، وأنّ الذين انتحلوا حب أهل البيت منهم، إنّما كان الباعث لهم هو العداء لأهل البيت(عليهم السلام)، وبغض دعوتهم الإصلاحية، وهم يعلمون ما لأهل البيت من أثر في نفوس المسلمين، وإنّ اتساع شهرة الإمام الصادق العلمية، وكثرة الوفود على مدرسته لانتهال العلم; إنّما هو دليل قاطع على قوة تمسك المسلمين بمبادئهم، وهذا أمر لا يروق لفئة تحاول محو تلك المبادئ، وتضليل الناس، وإنّهم اتخذوا الكوفة مقراً لنشر الدعوة الإلحادية، لأنّ في الكوفة نشاطاً شيعياً، وحركة فكرية، وفيها ما يزيد على ألف محدّث، يحدّث عن الإمام الصادق (عليه السلام)، وفيها من العناصر المختلفة، من غير المسلمين، ولكن الكوفة بصفتها العامة عربية مسلمة، توالي أهل البيت(عليهم السلام).

لهذا جعلت الدعوة في مركز من المراكز الحساسة، لكي يبثّوا سمومهم، وينشروا آراءهم وعقائدهم الفاسدة، فيتناقلها الناس، ومصدرها الكوفة، والكوفة شيعية، فتسجل تلك العقائد على سجلّ الشيعة، الذين هم شوكة في عيون السلطة، التي يحلو لها أن توسّع هذه الشقة وتؤيد هذه الدعاية.

ولقد راح أولئك الخصوم يشيعون الأكاذيب ويتقوّلون الأقاويل على أهل البيت(عليهم السلام)، طبقاً للمخطط الذي رسموه في محاربة الدعوة الاصلاحية، التي قام بها الإمام الصادق (عليه السلام) - كما تقدّم ذكرها - وقد وجدوا العون والحماية، من قوم يروق لهم ذلك، وتحلو لهم الوقيعة لشيعة علي (عليه السلام) عندما ترتبط الزمرة الملحدة بعجلة التشيّع، فيكون ذلك دليلاً على ما يتقولونه في ذم الشيعة، وشل نشاط حركتهم، في عصر تحرر الفكر وازدهار العلم .

ولا يفوتنا أن نقول بأنّ هذا التعاون مع خصوم أهل البيت(عليهم السلام)قد بقي الى العصور المتأخرة، فهم ينشرون تلك الافتراءات البالية، ويلبسونها ثوباً جديداً، تضليلاً للناس وحبّاً في إثارة الشغب، فكلّما أراد المصلحون حلّ مشكلة الفرقة والدعوة الى التقارب، ذهب الكثيرون - ممن لا يروق لهم الصفاء والتقارب - الى زيادة التعقيد، واتساع شقّة الخلاف، في نشر دفائن السلف، وعرض الأفكار البالية، وهو أسلوب يتخذونه لشلّ كلّ محاولة ساعية نحو الإصلاح، بحيث يجعلون من المستحيل على القوى المتخاصمة أن تتفق أو تتعاون.

إنّهم يريدون أن نبقى متخاصمين الى أن يحطم أحدنا الآخر، وهذا هو ما يصبو إليه أعداء الإسلام ويسعون بكلّ جهدهم لتحقيقه.

إنّهم يريدون أن يبقى المسلم لا يطمئنّ الى أخيه المسلم ولا يتعاون معه.

إنّنا في أيامنا هذه يتهدّدنا عدوّ قد تزايد خطره، عدوّ قد سطا على مبادئنا ومجتمعنا، يبثّ سمومه ويتستّر بمختلف الأثواب، ويستعمل شتّى الأساليب، فجرف بعض شبابنا بدعايته الكاذبة، وأقواله الفارغة.

إنّنا أمام موجة إلحادية عارمة[١٨٢]، تسندها أمة ذات قوّة وعدة، تحاول أن تفصل بيننا وبين قوّتنا الروحية، وعقيدتنا الإسلامية.

إنّها قوة تنذر بالخطر، وتدعو الى الاهتمام، واتّخاذ التدابير في ردّها ودفع خطرها، ولا يمكننا ذلك ونحن يكفّر بعضنا بعضاً، ويبتعد بعضنا عن بعض، ويتهم بعضنا الآخر، بأُمور أكل الدهر عليها وشرب، تلك أشياء وجدت لغاية التفرقة بين المسلمين، لأنّ في اتحادهم هدماً لمعاقل الحكم الجائر، ولا يمكن لحكام الاستبداد أن يعيشوا في مجتمع تسوده مشاعر المحبّة والوئام.

إنّنا أمام تيارات دولية، وأطماع استعمارية، وأعاصير فكرية، فهل ننتبه لهذه الأخطار المحيطة بنا؟ ويكفينا ما حلّ بنا من وراء المنازعات الطائفية، التي اتخذها المتعطشون على السيادة أقوى وسيلة لتحقيق أهدافهم وإشباع رغباتهم.

يجب علينا أن ندرس الظروف القاسية التي حلّت بالمسلمين فأدّت بهم الى هذا التأخر والانحطاط، فكلّ ذلك ناجم عن التفرقة والخصومة والتعصّب.

يجب علينا أن نتفاهم وأن نسعى لإزالة الحواجز التي تحول بيننا وبين تقاربنا، إنّنا على حقّ والحقّ يعلو ولا يُعلى عليه، والإسلام فوق كلّ شيء، وتحت رايته تتحقق السعادة، وفي مبادئه تسعد الإنسانية.

نحن أبناء اليوم، والمطلوب منّا أن نحتفظ بأمانة الإسلام، وأن ندافع عنه بكلّ ما نتمكّن، فإنّ أمامنا أخطار المبادئ الهدّامة، التي تحارب التوحيد، وتنصر الإلحاد، وقد أعدّت العدّة وأكملت القوة، ونحن نبقى عاكفين على نبش الدفائن، وإثارة الضغائن بأفكار بالية وآراء شاذة.

(١٨٢) قلنا ذلك ونحن في خضم مواجهةِ مد إلحاديّ وموجة غريبة قذفت إلينا بالسوء وأساءت الى مجتمعنا وقيمنا، وإذا هدأت فإن من الإلحاد ألواناً تهدد مجتمعنا الإسلامي في الصميم، يتهافت الحكّام وكثير من الناس على أدواتها ووسائلها بوعي أو بدون وعي.

إنّ تلك الخرافات والأوهام قد أصبحت في خبر كان، وقد زالت على أيدي دعاة هدى وأئمّة رشاد، إذ حفروا لها قبوراً بمعاول الحقّ، فزال أثرها ونسي خبرها.

دعونا من فتح سجلاّت الماضي، وليقف كلّ واحد منا الى جانب أخيه المسلم، يشدّ أزره، فإنّ الأمة الإسلامية أحوج الى وحدة الصف أكثر من أي وقت مضى، لأنّها تمرّ بنفس المراحل الأولى التي تعرّضت فيها لحملات دعاة الفرقة.

حوار وتصويب

ويطول بنا المقام إن أردنا أن نطيل الحديث عن الأساليب التي اتّخذت لاتّهام الشيعة بأُمور هي أبعد ما تكون عن الواقع، وقد دعانا الى استعراض هذا البحث، ما وقفنا عليه من الشذوذ عند بعض الكتاب الذين انحرفت أقلامهم عن تسجيل الحقائق العلميّة وجرت في ميدان التعصّب، ولم تجعل للواقع أيّ قيمة، ونحن لم نحاسبهم على ذلك الانحراف والانعطاف نحو جهة معينة، لا الجهة التي يقتضيها الحقّ ويدعو إليها البحث العلمي.

وليس في استطاعتي الآن تعداد أُولئك الكتاب ومناقشتهم، ولكني أودّ أن أُناقش بعضاً منهم، ممّن صدرت كتبهم في العهد القريب، ففيها من التعصّب والتحيّز، ونكران الحقّ، ما يدعونا الى الأسف الشديد، أن يصدر هذا من علماء مثقّفين.

وعلى أيّ حال فإنّا نقف معهم وقفة قصيرة، ونلتقي بهم لقاء ودّياً، ونعاتبهم عتاباً أخويّاً، ونطلب منهم التثبّت فيما ينقلونه، وأن يتحرّوا الصدق فيما ينقلونه، فإنّ وراءهم حساب الأجيال، وحساب الله أعظم.

وها نحن نلتقي بالأُستاذ الشيخ علي الغرابي، وهو أُستاذ في كلية الشريعة بمكة المكرمة، ومؤلف كتاب «الفرق الإسلامية ونشأة علم الكلام عند المسلمين».

يتحدث هذا الشيخ عن تاريخ العقيدة، وعن نشأة علم الكلام، ثم يتحدّث عن الفرق، ويطيل الحديث عن المعتزلة، ولا نودّ أن نطيل الوقوف معه، فالوقت أثمن من ذلك، ولكنا نريد أن نتعرّض لهفواته في ذكر فرق الشيعة، وبذلك نعرف مدى تأثير الأفكار بالإيحاءات الكاذبة، كما نلمس تراكم الترسبات الطائفية، التي لم يستطع الواقع إزالتها من بعض القلوب، وإنّ التنوّر وانكشاف الأُمور لم يزدها إلاّ زيفاً وضلالاً.

يقول الشيخ: (ب) الشيعة :

١ ـ نبذة عن فرقهم وبعض آرائهم.

أصناف الشيعة وعلّة تسميتهم :

إنّما سموا شيعة لأنهم شايعوا علياً وقدّموه على أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله)وهم ثلاثة أصناف :

١ ـ الغالية وسبب تسميتهم :

وإنّما سمّوا غالية لأنّهم غالوا في عليّ، وقالوا فيه قولاً عظيماً، وهم خمس عشرة فرقة.

ثم يعدّد الفرق بأسمائها، وهي أسماء بلا مسمّيات، مع أنّ أكثر هذه الفرق لا ينطبق على تعريفه الأوّل، فهم يغالون في عليّ ولم يدّعوا ألوهيته، ولكنّ الشيخ لم يكن باحثاً متثبّتاً.

ثم ينتقل الشيخ بحديثه الى الصنف الثاني من أصناف الشيعة، وهم الرافضة، فيقول: وإنما سمّوا رافضة برفضهم أبا بكر وعمر الى أن يقول : والرافضة أربع وعشرون فرقة سوى الكاملية، ويسمّون الإمامية كقولهم بالنصّ على عليّ بن أبي طالب .

ثم يقول: الفرقة الاولى من الرافضة «القطعية».

وإنما سمّوا قطعية لأنّهم قطعوا على موت موسى بن محمد بن علي وهم جمهور الشيعة، وهم يقولون بالنصّ على إمامة علي بن أبي طالب، وأنّ علياً نصّ على إمامة ابنه الحسن، وأنّ الحسن نصّ على إمامة أخيه الحسين، وهكذا يقولون بانتقال الإمامة بالنص في أبناء الحسين إلى محمد بن الحسن بن علي وهو الغائب المنتظر عندهم، وإنّه سيظهر فيملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً.

ثم يذكر الكيسانية وأنّ فرقهم إحدى عشرة فرقة.

ويتحول الشيخ الى ذكر فرقة الزيدية ويذكر بعض آرائهم، ولا يهمّنا حديثه عن ذلك، والمهم أن ننبهه على بعض أخطائه وما أكثرها! ولا نريد أن نشدد الحساب عليه فهو مقلّد لغيره، أو متعصّب وكلا الأمرين يحولان دون إظهار الحقيقة، وبيان الواقع.

ونحن أولاء نترك إطالة الوقوف معه لنناقشه على آرائه التي استمدّها من مصادر غير موثوق بها، إن كان ينقل عن مصدر، وإلاّ فهو جاهل بحقيقة الحال.

إنّ الشيخ يريد أن يتحف المسلمين بهذا العصر المكفهر بسحب العداء لهم، والمزدحم بأفواج النقمة منهم، والسخط عليهم من قبل خصوم، يريدون أن يفرّقوا الشمل ويثيروا الفتنة.

نعم لا نريد نقاشه، ولكنّا نودّ أن ننبّهه لبعض الأخطاء التاريخية عساه أن يتقبّل ذلك فيرجع عن طريق الإنحراف: أنّه يقول في القطعية: إنّهم قطعوا على موت موسى بن محمد بن علي. وهذا خطأ من عدة جهات :

١ - إنّه لا يوجد إمام من أئمة أهل البيت اسمه موسى بن محمد بن علي، ولا نعرفه ولا يعرفه كلّ أحد، فمن أين جاء الشيخ بهذا الاسم؟! فهل كان يقصد به الإمام موسى بن جعفر، فإن كان كذلك ولكنّه يجهله ولم يتعرف عليه، ولا يدري من هو، فكيف يرجى الصواب من باحث يجهل إماماً له منزلة عظيمة، ومكانة اجتماعية، وشخصية أخافت الدولة، وأقضّت مضاجعها، وهي في عظمتها وأيام عزّتها، فكان الرشيد أيام عظمته وقوة سلطانه يخشى صولة الإمام موسى بن جعفر، وهو في محرابه ومجلس علمه. إذاً فلا يصحّ وصف القطعية بأنّهم قطعوا على موت الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام) ،لأنّ القطعية هم الذين قالوا : بأنّ الإمامة انقطعت على الإمام جعفر الصادق في حياته، وصارت في وَلَدِه إسماعيل، فقول الشيخ إنّ القطعية قطعوا على موت موسى أمر مقطوع بكذبه وبطلانه.

٢ - مع التنزّل من أنّهم قطعوا على موت موسى، فما معنى قوله في وصفهم بأنهم يقولون بانتقال الإمامة بالنص في أبناء الحسين إلى محمد بن الحسن بن علي، وهو الغائب المنتظر ؟

وعلى هذا فلا يصحّ القول بالقطع على موت الإمام موسى، بل ساقوا الإمامة الى ولده الرضا (عليه السلام)، ومن بعده بولده الهادي، ثم الى الإمام العسكري، ثم الى الغائب المنتظر (عليه السلام)، فهم على هذا يعدّون من الشيعة الاثني عشرية لا القطعية، فكيف يحصل الاتفاق في قوله الاوّل بأنّهم قطعوا الإمامة على موت موسى؟!

٣ - يقول: وهم - أي القطعية - جمهور الشيعة.

ونحن نسائله هل وقف على مؤلفات الشيعة فوجد أثراً يُذكر للقطعية، وهل عرف منهم جماعة حتى يصح له أن يعبّر عنهم بأنّهم جمهور الشيعة؟ نعم جمهور الشيعة هم الاثنى عشرية، ولعلّ الشيخ لم يفرق بين قوله بالقطع على موت الإمام موسى، وبين القول بسوق الإمامة الى من بعده من أولاده وأحفاده.

موقف مع شيخ أزهري

وهذا عالم آخر من علماء الأزهر الشريف وأستاذ بكلية أصول الدين وهو الشيخ محمد أبو زهو نلتقي معه في كتابه «الحديث والمحدّثون» المطبوع سنة (١٣٧٨ هـ ١٩٥٩م).

تعرّض الأستاذ في كتابه الى ذكر الشيعة، وننقل بعض ما قاله ودوّنه، يقول: كانت الفكرة الأولى في التشيع : أنّ جماعة من الصحابة يرون بعد موت رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنّ الخلافة ميراث أدبي لعلي بن أبي طالب، وأنّه أولى بها بعدّة أمور منها: أنّه أقرب عاصب لرسول الله(صلى الله عليه وآله) بعد عمّه العباس.

ثم يعدد مزايا أمير المؤمنين - الى أن يقول -: رأينا أنّ فكرة التشيّع لعلي تلبس ثوباً جديداً وينضمّ إليها كثير من الزنادقة، وأرباب الأهواء والمنافقين بقصد الإفساد في الدين.

ثم يقول: وعلى الجملة فقد افترقت الشيعة ثلاث فرق «الكيسانية» وتولوا محمد بن الحنفية والإمامية «الجعفرية» وتولوا جعفر الصادق والإمامية «الزيدية» وتولوا زيد بن علي بن الحسين.

ويذكر بعد ذلك عقائد الشيعة ويعدّدها :

١ - الرجعة.

٢ - النبوّة: ادّعى بعض الشيعة النبوّة لعلي.

٣ - الألوهية: ذهبت فرقة من الشيعة الى تأليه علي.

الى أن يقول فضيلته تحت عنوان: التشيّع ستار لأعداء الإسلام: ويقيني أنّ التشيع كان ستاراً احتجب وراءه كثير من أعداء الإسلام من الفرس، واليهود، والروم، وغيرهم، ليكيدوا لهذا الدين، ويقلبوا نظام هذه الدولة الإسلامية، فقد كان الفرس يزعمون أنّهم الأحرار والسادة، وكانت لهم الدولة من قديم الزمان، فلمّا بدّل الله عزهم ذلاً، وصيّر ملكهم نهباً، على يد العرب الذين كانوا في نظرهم أقلّ الأمم خطراً...الخ

ثم يقول: أخذوا - أي الفرس - يتحسّسون أبواب الضعف عند المسلمين فلم يجدوا باباً أنجع لهم من الحيلة والخداع، فأظهر جماعة منهم الإسلام، وانضمّوا الى أهل التشيّع، مظهرين محبة أهل البيت(عليهم السلام)، وسخطهم على من ظلم علياً (رضي الله عنه).

ثم يستمر أبو زهو فيذكر صفات الشيعة بما يروق له وما يوحيه إليه وهمه، الى أن يقول - وما أعظم ما يقول -: كان من وراء الشيعة والخوارج ومن على شاكلتهم

الجمهور الأعظم من المسلمين الذين لم يتدنسوا بالتشيّع ولا بالخروج وتمسّكوا بالسُنن.

نضع هذه الفقرات التي اقتطفناها من حديث الشيخ بين يدي كل منصف متجرّد عن التعصّب والتحيّز.

إنّنا نذكر هذه الأقوال والألم يحزّ بنفوسنا، والاستغراب يستولي على مشاعرنا، عجيب - وكم أرانا الدهر من عجب - أن يصدر مثل هذا التعبير النابي، والقول الشائن، من رجل ينتمي لأكبر مؤسسة إسلامية، لها مكانتها في المجتمع الإسلامي، وقد خدمت الأمة على ممرّ العصور، ولا شكّ أنّها تحرص على جمع الكلمة، ومحاربة الفرقة، إنّها مؤسسة الأزهر الشريف، التي قطعت شوطاً بعيداً في خدمة الإسلام، ونشر مآثره.

عجيب أن تصدر مثل هذه الهفوات، من رجل يعدّ من كبار علمائها إذ أنيط به تدريس أُصول الدين، وتلك أكبر مهمة ينحو الأزهر بتحقيقها.

عدّرنا تجاهل الشيخ بنصّ حديث الغدير، الذي هو من أهمّ الأحداث الإسلامية، والوقائع التاريخية التي لايمكن جحودها، ومن الصعب انكارها. فلا نريد أن نذكّر الشيخ بالمصادر التي ذكرت هذا النصّ الجليّ، ولا نريد أن نقدّم له قائمة بأسماء الصحابة الذين شهدوا بسماعهم من رسول الله (صلى الله عليه وآله) يوم قام بذلك الحفل الرهيب، والجمع الحاشد، وفي ذلك الهجير المضطرم، في غدير خم، حيث مفترق المدنيين والمصريين، والعراقيين، وعدد الجمع لا يقلّ عن مائة ألف، وأعلن للملأ الحاشد بخطبته العظيمة، التي قال فيها: **«من كنت مولاه فهذا علي مولاه»**.

نعم لا نريد أن ننبّه الشيخ لمراجعة الصحاح التي روت ذلك، كصحيح مسلم [١٨٣]، والترمذي [١٨٤]، والحاكم [١٨٥] وغيرها، أو نرشده الى مراجعة الكتب التي ذكر فيها هذا الحديث، وعددها يربو على ستمائة مؤلّف وكتاب.

إنّ حديث الغدير هو نصّ صريح ولم يستطع أحد إنكاره، وإن كان الكثيرون قد وقعوا في كثير من التمحّلات والتأويلات، في المعنى اللغوي للفظ المولى، ولكن ذلك لم يصل بهم الى نتيجة مرضيّة.

نحن نترك هذا للباحث الحرّالمتجرّد عن العاطفة والتحيّز، ولا نطيل الحديث مع الشيخ في هذا الموضوع، كما أنّنا لا نطيل الحديث في قوله: ويقيني أنّ التشيّع كان

(١٨٣) صحيح مسلم ج ١ ص ٧٣.

(١٨٤) سنن الترمذي ج ٥ ص ٦٣٣ ح ٣٧١٣ .

(١٨٥) المستدرك للحاكم ج ٣ ص ١١٨ ح ٤٥٧٦.

ستاراً احتجب وراءه أعداء الإسلام من الفرس واليهود والروم وغيرهم الى آخره [١٨٦].

لأنّ هذه العبارة قد مرّت على أسماعنا من كثير ممّن يريد أن يثير الفتنة، وينشر الشغب، و قد ردّدها المستشرقون الذين يريدون في أبحاثهم الوقيعة بين المسلمين، وإنّ فضيلة الشيخ لكثرة اتّباعه لأولئك الكتاب، واقتباسه في تعبيره من عباراتهم، وضع هذه الآراء الشاذة في إطار اليقين، كما أنّ يقيني فيه أنّه قاصر عن إثبات ما يدعم دعواه من الطرق العلمية. ويحقّ لنا أن نسأل فضيلة الشيخ فنقول: لأيّ شيء لا يكون التدخّل من قبل أعداء الدين في صفوف سائر الطوائف هدماً للدين، وتآمراً على أهله ؟

أليست فرق الكرامية التي يبلغ عددها اثنتي عشرة فرقة وأُصولها ستة وهم: العابدية، والنونية، والزربنية، والإسحاقية، والواحدية، وأقربهم الهيصمية وهم منتسبون لأهل السنة؟ [١٨٧]

وهؤلاء قد ابتدعوا في الدين، وأضلّوا خلقاً كثيراً، وقد اندسّوا في الحنابلة، وانتسبوا لأحمد بن حنبل ،وكان مؤسس هذه الفرقة «الكرامية» هو محمد بن كرام السجستاني المتوفى سنة (٢٥٥ هـ)، كان أصله من زرنج، ونشأ بسجستان، ثم دخل بلاد خراسان، وجاور بمكة خمس سنين، ثم أظهر بدعته، وتبعه خلق كثير، وشاع ذكره، حتى قال الشاعر في مدحه :

الفقه فقه أبي حنيفة وحده *** والدين دين محمد بن كرام

إنّ الذين لجهلهم لم يقتدوا *** في الدين بابن كرام غير كرام[١٨٨]

ذهب محمد بن كرام الى أنّ الإيمان قول باللسان، وإن اعتقد الكفر بقلبه فهو مؤمن، وزعم ابن كرام وأتباعه: أنّ معبودهم محل الحوادث ووصفوه - تعالى الله عما يصفون - بالثقل، وذلك أن ابن كرام قال في كتاب عذاب القبر في تفسير قوله : (**إذا السَّمَاءُ انفطَرَتْ**) إنّها انفطرت من ثقل الرحمن عليها، ولهم مزاعم كثيرة وآراء باطلة[١٨٩].

ولهم في الفقه أقوال :

(١٨٦) الحديث والمحدثون ص ٩١.
(١٨٧) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ١٥٩.
(١٨٨) لسان الميزان ج ٥ ص ٣٥٤.
(١٨٩) الفِرق للبغدادي ص ١٣٠ - ١٣٧.

منها: صلاة المسافر يكفيه تكبيرتان من غير ركوع ولا سجود، ولا قيام ولا قعود، ولا تشهد ولا سلام.

ومنها: صحة الصلاة في ثوب كلّه نجس، وعلى أرض نجسة، ونجاسة ظاهر البدن، وإنّما أوجب الطهارة عن الأحداث دون الأنجاس.

ومنها: أنّ غسل الميت والصلاة عليه سنة غير مفروضة وإنّما الواجب كفنه، ودفنه.

ومنها: القول بصحة الصلاة المفروضة، والحج المفروض بلا نيّة.

قال الشيخ زاهد الكوثري: وكثير من الكرامية قالوا بحلول الحوادث في الله تعالى وحلوله في الحوادث، اندسوا بين الحنابلة، فأضلّوا خلائق، ولله في خلقه شؤون، وكذلك فعل البربهارية والسالمية.(١٩٠)

ونحن لا نريد أن نتناول بالبحث جميع الفرق التي نسبت لأهل السنة وتزعمها رجال من الدخلاء، كالمشبّهة والمجسّمة والمريسية وغيرهم، لأنّا لا نودّ أن نتبع طريقة من يسطون على القديم من الشبه والآراء، ويطلونه بطلاء حديث، تغريراً للبسطاء، واستمالة للدهماء، فجمعوا بين جريمتين : جريمة الخيانة، وجريمة الخداع، فوق ما اقترفوا من جريمة الطعن في سيرة أهل البيت (عليهم السلام) المنزّهين من كلّ عيب والمطهّرين من كلّ دنس، وهم حماة الدين وأعلام المسلمين .

عذّرنا من ذهب لذلك من السلف، وعفى الله عمّا سلف، ولكن ما عذر أبناء العصر الحاضر الذين وقفوا على بواعث تلك الاتهامات الموجهة الى الشيعة، وعرفوا أهداف السياسة في ذلك، وهم يتجاهلون حقيقة لا يمكنهم جهلها؟

وعلى أيّ حال فإنّا لا نريد إطالة الوقوف مع الشيخ أبو زهو في هذا الموضوع.

إذ الأمر يدعونا الى إطالة البحث، وتقديم قوائم بأسماء رجال من أبناء فارس، دخلوا في صفوف فرق المسلمين من غير الشيعة، ونشروا كثيراً من المذاهب، ولو أنّه أطلّ ببحثه على تراجم رجال المذهب الحنفي وأعيانه; لوجدهم من أبناء فارس، فقد قاموا بنشر المذهب الحنفي، وساندوا حركته بكلّ عصر، ولعلّ ذلك يكفي لإقناع الشيخ في بطلان قوله.

نعم لا نريد إطالة النقاش فيما تقوّله على الشيعة، ولم يكن هو أول من يسهم في تجاهل الحقائق، فكم رأينا كثيراً من أمثاله وأعرضنا عن نقاشه؟

(١٩٠) الفرق بين الفِرق ص ١٢١.

والشيء الذي يلزمنا أن نقف عليه وقفة أسف وتألم، وهو قوله بالمبحث الرابع إذ يقول: كان من وراء الشيعة، والخوارج ومن على شاكلتهم، الجمهور الأعظم ممّن لمن يتدنسوا بالتشيع [١٩١]...

وهكذا يقول وما أعظم ما يقول إنّه يرى أنّ الانتساب الى التشيع دنس، ونحن لا نقول في ردّه أيّ شيء، إلا أنّنا نطلب ممّن قرظوا الكتاب ومدحوه، أن يراجعوا ضمائرهم في صحّة هذا القول وهل ارتضوا ذلك؟ ومن العجيب أن يكون كذلك!

أيكون التشيّع دنساً وقد انتمى إليه كبار الصحابة وخيار التابعين؟!

أيكون التشيع دنساً وهو أتباع علي وحبّه وبغض أعدائه، وقد دعا رسول الله (صلى الله عليه وآله) لذلك في بدء دعوته؟!

غريب وأيم الحقّ أن تصدر كلمة كهذه من إنسان يدّعي العلم والمعرفة، ويتصدّر للتدريس في أُصول الدين.

إنّها كلمة خرجت من قلب يحترق غيظاً عندما يبلغه تقارب المسلمين، في عصر يلزمهم ذلك، إنّه يفقد معنوية لا ينالها إلاّ بالتفرقة، وإثارة الفتنة.

أيّ قلم استطاع أن يسطر هذه الحروف لكلمة عظيم وقعها على المنصفين من المسلمين، الذين يسوؤهم ما حل بمجتمعهم، من شحناء وبغضاء، جرّتهما عليهم طائفية رعناء وعصبية عمياء؟

فلنترك حساب هذا الشيخ على ما تجنّاه في كتابه، وما افتعله في أبحاثه، ولنا معه عودة إن شاء الله.

كما أنّنا نترك الوقوف مع غيره من أمثاله، ومن على شاكلته، ممّن تجرّدوا للكذب والافتراء، ونظروا الى الشيعة من زاوية التعصّب الطائفي أو غير ذلك، فسلّوا عليهم سيوف النقمة **(وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)**[١٩٢].

الناقمون على الإسلام وأهل البيت (عليهم السلام)

وعلى أيّ حال، إنّنا إذا أردنا أن نحاسب الناقمين على الشيعة طبقاً للمنطق الصحيح، على مواقع الخطأ في اتّهام الشيعة بأُمور لا صلة لها بالواقع، ولا نصيب لها من الصحة; فإنّ الأرقام تقف عن مسايرتنا، وربّما تقف عن الإحصاء، ولا نريد

(١٩١) الحديث والمحدثون ص ٩٨.

(١٩٢) البروج : ٨ .

ذلك ولكنّنا نريد منهم التوسّع في التفكير الحرّ، وترك المغالطات، والتثبّت في النقل، فقد مرّت العصور التي تدعوهم الى إثارة الفتن، وإيقاد نار البغضاء بين المسلمين.

لقد رأينا كيف نشأت تلك الفئات، وعرفنا الأسباب التي دعتهم الى الادعاء بالتقرّب من أهل البيت(عليهم السلام).

إنّ العداء المتأصّل في قلوب أُولئك المنهزمين أمام قوّة الإسلام الذاتية، حملهم على مقابلته من طريق غير مباشر، وأنّ انتحال البعض منهم حبّ أهل البيت، والتظاهر بالولاء لهم وإنّما كان هدفهم في ذلك تغرير البسطاء، وتضليل العامة، ممّن ينظرون الى الأُمور نظرة سطحية، مع أنّهم لمسوا رغبة السلطة الحاكمة في تشويه سمعة أتباع أهل البيت(عليهم السلام)،ليحملوا الناس على الابتعاد عنهم، وأن يحرموا أغلبية الأُمّة من الأخذ بتعاليم آل محمد (صلى الله عليه وآله)، لما يدسّونه في أحاديثهم، وما يشوهونه من أقوالهم، وقد أدرك الأئمة(عليهم السلام)هذا الخطر العظيم، فقاموا بمحاربة تلك الفئة الضالّة والزمرة الملحدة، وقد وقف الشيعة الى جنب أهل البيت(عليهم السلام)،في إعلان الحرب على تلك الفئة، والبراءة منهم وحكموا بنجاستهم وعدم الإمتزاج معهم، فكان نصيب تلك الحركة التي قام بها الملحدون ضدّ الإسلام بصورة عامة، وضد أهل البيت(عليهم السلام)بصورة خاصة، الفشل والإنهيار، وإن نالت الفوز الموقت، وأثّرت في عقول لم يكن لها نصيب من الرجحان، فذلك أمر يعود للظروف، ومقتضيات الزمان، وأنّه يدور على تلك القوة الغاشمة، قوة السلطة المتعسفة، التي قضت على الأفكار بالجمود لكي يشغل المسلمون، فيما بينهم بالتناحر والتطاحن، ويسكتوا عمّا هو أخطر وأجدر بالمقاومة والمحاربة، وهو نظام حكمهم الذي وضعوه حسب أهوائهم الجائرة، ورغباتهم الجشعة، ونزعاتهم المتعسفة، والذي جعلوه مرتبطاً بالإسلام، وإنّه النظام الذي لا يمكن مخالفته، لأنّهم انتحلوا لأنفسهم حقّ وراثة الحكم، وحماية الدين وصيانة الإسلام.

وفي النهاية ينبغي أن نضع أمام أعيننا الغاية التي من أجلها إلتحق أُولئك الغلاة بركب الشيعة، في نظر الكثير من الكتّاب والمؤرخين، مع بعد المسافة وعدم التقارب، فإنّ ذلك لا يعدو نظرة التعصب والانتقاص، نظراً لمقتضيات الزمن وعوامل السياسة، كما هو ملموس لمن يطلب الحقيقة، ويحاول الوقوف على الواقع ، ويجعل نفسه حرّاً في ميدان البحث، ولا يعتمد على أقوال من يحاولون بنشر الدعايات الكاذبة غرضاً معيناً، ويدبّرون أمراً مرسوماً، وهم يلتقون جميعاً على هدف واحد، ويجتمعون على غرض واحد، وينسون في سبيل ذلك كلّ ما يقتضيه

العلم ويتطلّبه الحقّ والانصاف، من عدم التحيّز وترك التعصّب، والبعد عن المغالطة ليبدو وجه الحقيقة سافراً ويتّضح الحقّ، والحقّ أحقّ أن يتّبع.

ولكن بمزيد الأسف أن يستولي سلطان التعصّب على بعض الناس، فيسلبهم حرية الرأي، ونزاهة النقل، فيقعوا في مأساة الجمود الفكري، بفقد المرونة والصراحة وخدمة الحقيقة، لأنّهم يتحرّكون وسط غيرهم من الناس، ويتنكّرون للحقائق، ويبتعدون عن الواقع، الأمر الذي أدّى الى عواقب وخيمة لا يُحمد عُقباها.

المنحرفون عن الحقّ والشيعة

ونعود الى أولئك المنحرفين عن الصواب، الذين جعلوا من التشيّع ستاراً لأعداء الدين، بل زاد بعضهم فجعل التشيّع مبدأ تفرق هذه الأمة، لأنّ أصول التشيع من ابتداع اليهود، كما يقول السيد رشيد رضا: كان التشيّع للخليفة الرابع علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) مبدأ تفرّق هذه الأمة في دينها وفي سياستها: وكان مبتدع أصوله يهودي اسمه عبد الله بن سبأ، أظهر الإسلام خداعاً. ودعا الى الغلوّ في علي كرم الله وجهه، لأجل تفريق هذه الأمة وإفساد دينها ودنياها.(١٩٣)

نعم نعود فنسائلهم عن هذا التجني الفاضح هل أخذوه من مصدر يوثق به؟ أم هل على شيء من ذلك في كتب الشيعة ممّا يؤيّد ما ذهبوا إليه؟

ماذنب الشيعة عندما اقتضت الظروف القاسية أن تحمل أعداءهم على التدخل في صفوفهم، لتشويه السمعة وفتح باب المواخذة؟

وهل كان من يدّعي الانتساب لقوم يؤخذون بجرمه مع بيان الفارق، وعدم العلاقة وإظهار البراءة منه والابتعاد عنه؟

أيّ علاقة بين الشيعة وبين الغلاة، وهل يوجد ربط في العقائد بين الفئتين؟ اللّهم إلا من باب المغالطة والتجاهل، فما هذا التجنّي يا أيها الكتّاب؟ لقد أبيتم إلاّ أن تجعلوا حبّ أهل البيت غلواً، وثبوت الوصاية لعلي خروجاً عن الإسلام!

انظروا الى عواقب هذا التطرف والشذوذ، وكيف أدّى الى تفريق الصف وتشتيت الشمل، وتغلّب أعداء الإسلام عليهم وحكمهم لبلادهم واستغلالهم لثرواتهم، وإنّ تلك الافتراءات التي يصوغها المتحاملون، ويحوكها المتعصبون، لا تقوى على مقابلة

(١٩٣) كتاب السنة والشيعة أو الوهابية والرافضة ص ٤ - ٦ طبع مصر سنة (١٣٦٦ هـ ١٩٤٧) والكتاب يقع في ٢٨١ صفحة وكله سباب وتهجّم وتقوّل بالباطل على رجال الشيعة وأعيانهم، وقد وضع له (الشيخ أحمد حامد الفقي) خاتمة، وأي خاتمة هي أنّه قد تكلم بلسان لا عهد له بالآداب، ولا صلة له بالصدق، وقد أعرضنا عن مناقشته تهاوناً واحتقاراً.

الحقّ، بل تذوب أمام أضوائه، وتتحطّم تحت ضرباته، والذين يصرّون على مثل هذه الأمور، ويأبون التورّع عن مثل هذا الانحدار، إنّما هم أعداء الأمة الإسلامية جمعاء، وجعلوا من الشيعة هدفاً لأغراضهم، ليثيروا الفتنة والبغضاء بين صفوف المسلمين، فتحقّقت بذلك أغراضهم السيئة.

أمّا قضية ابن سبأ فهي أسطورة قديمة ولعبة سياسية، وتهمة أتّهم بها كبار الصحابة من حملة لواء التشيّع، كأبي ذر وعمّار وغيرهم.

يقول الدكتور أحمد أمين في فجر الإسلام بعد ذكر مزدك [١٩٤] ومذهبه الثنوي: وقد اعتنق مذهبه آلاف من الناس، ولكن قبّاذ نكل به وبقومه، ودبّر لهم مذبحة سنة (٥٢٣ هـ) كاد يستأصلهم بها.

ومع هذا فقد ظل قوم يتبعون مذهبه، حتى الى ما بعد الإسلام، الى أن يقول : ونلمح وجه شبه بين رأي أبي ذرّ الغفاري، وبين رأي مزدك في الناحية المالية فقط، فالطبري يحدّثنا أنّ أبا ذرّ قام بالشام وجعل يقول: يامعشر الأغنياء، وأسوا الفقراء، بشّر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وظهورهم.[١٩٥]

من هذه الدعوة التي قام بها أبو ذرّ الغفاري يستنتج الأستاذ أحمد أمين أنّ أبا ذرّ أخذ هذا الرأي من مزدك، أو قريب من رأيه. وبعد ذلك يتساءل الأستاذ عن كيفية أخذ أبي ذر لهذا الرأي، فيستدل بما رواه الطبري: أنّ ابن السوداء لقي أبا ذر فأوعز إليه بذلك، ثم يقول: ونحن نعلم أنّ ابن السوداء هذا لقب به عبدالله بن سبأ، وكان يهودياً من صنعاء، أظهر الإسلام في عهد عثمان، وأنّه حاول أن يفسد على المسلمين دينهم، وبثّ في البلاد عقائد كثيرة ضارّة، قد نتعرّض لها فيما بعد، وكان قد طوّف في بلاد كثيرة: في الحجاز والبصرة، والكوفة، والشام ومصر، فمن المحتمل القريب أن يكون قد تلقّى هذه الفكرة من مزدكية العراق، أو اليمن، واعتنقها أبو ذرّ حَسَن النية، وصبغها بصبغة الزهد التي كانت تجنح إليها نفسه...

(١٩٤) ظهر مزدك في فارس سنة (٤٨٧ هـ) وهو من أهل نيسابور، ودعا الى مذهب ثنوي جديد، وكان يقول بالنور والظلمة، وامتاز بتعاليمه الاشتراكية، وأحلّ النساء وأباح الأموال، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ، فقوي أمره وعظمت شوكته، واتبعه السفلة، واغتنموا دعوته فرصة، فابتلي الناس بهم وقوي أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله...

(١٩٥) فجر الإسلام ص ١١٠.

ويقول الدكتور حسن إبراهيم في كتابه «تاريخ الإسلام السياسي» بعد أن ذكر بيان الحالة التي كان عليها المسلمون في أُخريات خلافة عثمان: فكان الجوّ ملائماً تمام الملاءمة، ومهيّئاً لقبول دعوة عبد الله بن سبأ، والتأثر بها الى أبعد حدّ .

وقد أذكى نيران هذه الثورة صحابي قديم، اشتهر بالورع والتقوى، وكان من كبار أئمة الحديث، وهو أبو ذر الغفاري(١٩٦)، الذي تحدّى سياسة عثمان، ومعاوية وإليه على الشام، بتحريض رجل من أهل صنعاء هو عبد الله بن سبأ، وكان يهودياً فأسلم، ثم تنقّل في البلاد الإسلامية، فبدأ بالحجاز، ثم البصرة، فالكوفة، والشام ومصر .

فأنت ترى أنّ هذا الصحابي الجليل، الذي امتاز بصدق اللهجة، ووضوح الحجة، فاستحق أن يقول الرسول (صلى الله عليه وآله) عن أخلاقه: «**ما أقلّت الغبراء ولا أظلّت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر**»(١٩٧) قد تجنّي عليه بما نسبوه إليه من التأثر بآراء مزدك بواسطة ابن السوداء عبد الله بن سبأ، كما يزعم هؤلاء الأساتذة الذين لا خبرة لهم بالتاريخ ولا معرفة بأحوال الرجال.

ونحن إذ نستعرض مثل هذه الآراء، لا نريد من ورائها إلاّ اعطاء صورة عن الشذوذ الفكري، والخروج عن قواعد الاستنتاج .

كيف يصحّ القول بأنّ أبا ذرّ قد اعتنق رأي مزدك؟! وهو خريج مدرسة محمد (صلى الله عليه وآله) والمنتهل من علومه، والممتثل لتعاليمه، وقد وصفه (صلى الله عليه وآله)بما سمعت آنفاً، كما وصفه الإمام علي (عليه السلام) بقوله «**أبو ذر وعاء مُلئ علماً ثم أوكئ عليه**»(١٩٨).

ومن كان كذلك، أيحتاج بآرائه وأقواله الى يهودي، فيتأثر بأقواله وآرائه؟ فتكون أساساً لدعوته التي قام بها.

ولكن عوامل السياسة، ومؤثرات الدعاية قلبت المفاهيم وغيّرت من نظرة الناس الى الحقائق، إذ اقتضت الظروف تبرير عمل معاوية، وحمله على الصحة، وأنّ

(١٩٦) أبو ذر هو جندب بن جنادة الغفاري، المتوفى سنة (٣١ هـ) أمه أم رملة بنت الوقيعة الغفارية، وهو رابع أربعة سبقوا الى الإسلام، وكان من المتألهين في الجاهلية الذين عبدوا الله وتركوا الأصنام، ولما أسلم أجهر في إسلامه في البيت الحرام بمكة، فضربه رجال من قريش حتى ضرّجوه بدمه، وأُغمي عليه فتركوه ظناً منهم أنه مات، وقد ورد عن النبي (صلى الله عليه وآله) احاديث كثيرة في مدحه، ورحل الى الشام في خلافة عثمان، فأنكر على معاوية سيرته وسوء عمله، وأعلن بالإنكار عليه، فشكاه معاوية الى الخليفة، وأخرجه من الشام ونفاه الى الربذة حيث توفّي بها وحده، فكان كما قال فيه النبي (صلى الله عليه وآله): «رحم الله أبا ذر يعيش وحده ويموت وحده ويبعث وحده»
ولما انتقل رسول الله (صلى الله عليه وآله) الى جوار ربه كان أبو ذرّ غائباً فعاد وقد ولي أبو بكر، فقال أصبتم قناعة وتركتم قرابة، لو جعلتم هذا الأمر في أهل بيت نبيّكم ما اختلف عليكم إثنان.

(١٩٧) الاستيعاب بهامش الإصابة ج ١ ص ٢١٦، والإصابة ج ١ ص ٦٤ .

(١٩٨) الإصابة ج ٤ ص ٦٤.

إنكار أبي ذرّ عليه كان بدافع عن اعتقاد خارج عن الإسلام، ولهذا فقد إلتجأ أنصار معاوية والمدافعون عنه أن يلبسوا دعوة أبي ذر بصبغة التأثر بآراء غير المسلمين. ليسلم معاوية من الطعن، وإن أصاب الطعن صميم تعاليم الإسلام.

هذا ومع التنزّل من صحة قصة ابن سبأ الذي جعلوا منه بطلاً لجميع الحركات في ذلك العهد; فهو الذي رفع صوته بالكوفة إنكاراً على عثمان، فاستجابت له الجماهير، ورحل الى مصر فغيّر القلوب، وجهّز الجيوش لحرب عثمان، وأقام في المدينة، فحوّل الأُمور عن مجراها وأغرى بعض الصحابة، أمثال أبي ذر، وعمار بن ياسر[١٩٩] ومحمد بن حذيفة [٢٠٠] وعبد الرحمن بن عديس [٢٠١] ومحمد بن أبي بكر[٢٠٢] وصعصعة بن صوحان العبدي[٢٠٣]ومالك الأشتر[٢٠٤]: وغيرهم من صلحاء الصحابة وكبار التابعين .

إلى آخر ما نسبوه إليه من أعمال، وكلّ ذلك لا يمت الى الواقع بصلة، لأنّ قصّة ابن سبأ هي من القصص الخرافية، وقد تفرّد الطبري بذكرها مستنداً الى سيف بن عمرو التميمي البرجمي الكوفي، وإذا رجعنا الى ترجمته لنقف على قيمة ما يرويه، فإنّا نجدهم يصفونه بالوضع للحديث، ساقط الرواية، يروي الموضوعات عن الثقاة، عامة أحاديثه منكرة، متّهم بالوضع والزندقة [٢٠٥] الى آخر ما ورد في وصفه عن علماء الرجال كابن معين وأبي حاتم، وأبي داود، والدارقطني، وابن عدي وابن

(١٩٩) هو أبو اليقظان عمار بن ياسر بن عامر بن مالك بن قيس من بني ثعلبة وأُمه سمية، وهو سابع سبعة أظهروا الإسلام وجاهروا به، وقد قال فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله): «**إن عماراً ملئ إيماناً الى مشاشه**».
وكان من المعذَّبين في الله هو وأبوه وأُمّه، وقد مات والده متأثراً من تعذيب قريش إياه على إسلامه، وكان عمار مع علي في حرب الجمل وصفين، وقتل بصفين مساء الخميس ٩ صفر سنة (٣٧ هـ)، قتله أهل الشام، فكان قتله مصداقاً لقول رسول الله: «**يا عمار تقتلك الفئة الباغية**».

(٢٠٠) هو أبو القاسم محمد بن حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، وأُمّه سهلة بنت سهيل بن عمر العامرية، ولد بأرض الحبشة على عهد رسول الله، وكان من أشد الناس إنكاراً على عثمان، وذهب الى مصر، فأخرج نائب عبد الله بن أبي سرح من مصر، وبايعه أهل مصر، ولما ولي علي (عليه السلام) أقر محمّد بن حذيفة على مصر، وبقي على إمارته، وقد غدر به معاوية وسجنه بدمشق وقتله.

(٢٠١) عبد الرحمن بن عديس البلوي المقتول سنة (٣٦ هـ) كان ممن شهد الحديبية، وبايع تحت الشجرة، وكان ممن أظهر الإنكار على عثمان، وقاد جيش المصريين لحربه يوم الدار، وقد سجنه معاوية، وغدر به بعد المهادنة وقتله.

(٢٠٢) محمد بن أبي بكر وأُمّه أسماء بنت عميس، نشأ في حجر علي، وشهد معه حروبه، ثم ولاّه مصر سنة ٣٧ هـ فجهز إليه معاوية جيشا وقتل صبراً، وادخلوا جسده في بطن حمار ميت فأحرقوه، وذلك سنة (٣٨ هـ).

(٢٠٣) صعصعة بن صوحان العبدي بن حجير بن الهجرس العبدي، أسلم على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله)وكان خطيباً فصيحاً، شهد صفين مع علي (عليه السلام)، ولما إستولى معاوية بعد الصلح نفاه الى البحرين فمات بها.

(٢٠٤) هو مالك بن الحارث بن عبد يغوث بن مسلمة بن الحرث بن جذيمة بن مالك النخعي، أدرك رسول الله، وكان رئيس قومه، شهد اليرموك فشترت عينه بها، ولقب بالاشتر، صحب علياً وشهد الجمل وصفّين، وأرسله علي والياً على مصر فدس معاوية إليه السم في العسل على يد رجل صحبه في الطريق، أرسله معاوية لهذا الغرض، وتوفي متأثراً من السم وذلك سنة (٣٨ هـ).

(٢٠٥) ميزان الاعتدال للذهبي ج ١ ص ٤٣٨، وتهذيب التهذيب ج ٤ ص ٢٩٧، وفهرست ابن النديم ص ١٣٧.

يحيى، وابن حبان وغيرهم. وذلك لايدع مجالاً للشك بأنّ هذا الرجل قد وضع هذه القصة، ولا يقصد من ورائها إلاّ الوقيعة في رجال المسلمين، وإثارة الفتنة فيما بينهم، طبقاً للخطط التي وضعها الزنادقة في ذلك العصر، وقد نجح هذا المخطط، فأصبح ابن سبأ بطلاً مشهوراً يردده الكتّاب والمؤرخون.

وتجدر الإشارة هنا الى إرتباط هذا الاتهام بذلك التحسس الديني الذي أثارته سياسة عثمان، والتي كانت أوّل البوادر للتحكّم والاستبداد، وأوّل ظاهرة في الحكم الإسلامي، ومن أجل ذلك قام أولئك الصحابة الذين تخرجوا من مدرسة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) فأنكروا تلك الأفعال، وعارضوا تلك السياسة، فعظم ذلك على الأمويين، وقابلوا أعمالهم بالعنف من جهة، وبالحطّ من كرامتهم من جهة أخرى.

وإنّ نظرة بسيطة الى واقع الأمر، فإنّا نجد اتّهام الصحابة بتلك الأمور، إنّما هو من أعمال أنصار الأمويين، لتشويه سيرة أولئك العظماء الذين نقموا على عثمان، وأنكروا عليه سياسته التي جرّت عليه نقد الصحابة وإعلان الثورة.

والحاصل أنّ وضع أسطورة ابن سبأ هي لغرض الحطّ من كرامة المنكرين على عثمان، ولكن المنصفين من الباحثين لم يستطيعوا السكوت عن هذه الخرافة البالية، والأسطورة المضحكة، والفرية الباطلة، فصرّحوا بما هو الحقّ، وأظهروا للناس بطلانها، وناقشوا نقاط الضعف التي تحوط بها، فنحن نشكر للمنصفين إنتباههم، كما أنّنا نأسف لأولئك المخدوعين لإنزلاقهم في هوّة التعصّب، وانقيادهم للهوى واستجابتهم لداعية التفرقة، فنحن نمرّ بلغوهم مرّ الكرام، ولنسدل الستار عن فضائح جناياتهم على الحقيقة، ونكلّ أمرهم لذوي العقول الراجحة، والأفكار الثاقبة الذين يقيسون الأمور بمقياس العلم، وتقترن أقوالهم بالواقع، ولا يقيمون للخرافات وزناً ولا يجعلون للتقليد الأعمى قيمة، على غرار ما يفعل الشيعة وهم يتلقون هذه التهم وكأنّهم لا تعنيهم لأنّها معروفة المنشأ ومكشوفة الغرض، وإنّما تناقش من باب الغيرة على العلم الذي راح البعض ممّن لا علاقة له به إلاّ بالألقاب والمراكز يستسلمون هذا الاستسلام الشنيع، وقد أشرنا في كل مرة الى أقوال ممن هم من بني جلدتنا، أو تجمعنا وإياهم روابط العقيدة ـ إن شاؤوا ـ ولم نقم وزناً للأصل الذي اعتمده أحمد أمين وغيره ممّا تجنّى به المستشرقون على تاريخ الإسلام وأهل الإيمان والولاء للنبي(صلى الله عليه وآله) وعترته الطاهرة.

إنّ الشيعة يقصدون للغلاة، ويقوم أئمّتهم بحملة مضادة لوأد حركتهم والقضاء عليها، وقد أقضّ مضجعهم نشاط هؤلاء ولم يستقرّوا حتى هدم وجودهم، ولكن

غيرهم يستمدّ معلوماته من كتّاب لا تجمعهم بالإسلام جامعة ولا تربطهم رابطة، ويتقبّلون ما يفعله هؤلاء المستشرقون بوقائع التاريخ وتدخلهم في أحداث الأمة الإسلامية.

فإذا أخذنا الألماني يوليوس فلهوزن في كتاب: (الخوارج والشيعة)، لرأيناه كيف يستنتج ويربط الأحداث وفق غرض ظاهر لا يخفى على ذي نظر، فهو يسمح لنفسه أن يرجح ما بين الأكاذيب والافتراءات، وأنّ مذهب الشيعة يرجع الى اليهود أقرب من أن يرجع الى الفرس، ولو كان غير البيان بأبلغ من هذا لعبّرت عن الاستخفاف والاستهزاء العميقين لمثل هذه الأقوال، وليتها صدرت من مسلم. ثم يؤخذ قول فلهوزن مصدراً ـ وما أبعده عن الحقيقة ـ .

وسنأتي في الجزء الخامس على مناقشة آراء المستشرقين. ولقد بحثنا فيما مضى موقف أئمة الشيعة من الغلاة بما لا مزيد عليه من الوضوح والواقعية وبما يجعل قول فلهوزن أضحوكة عندما يقول: (إن عبادة الشيعة لله كانت عبادة لبني الإنسان، والنتيجة لذلك قيصرية بابوية معاً، كانوا يعترضون على إمامة السلطة القائمة، ولكن إمامتهم الشرعية القائمة على دم الرسول «ذرية آل البيت» لم تكن أفضل منها إذا كانت تفضي الى إهدار لقانون وكسر شريعة).

ولا نناقش أمراً هو من مفاخرنا ورموز مسيرتنا حتى يظهر صاحب الأمر، والذي قدّم الأئمة الأطهار أنفسهم من أجله، فأكّدوا سياسة محاربة الظلم ومقاطعة الظالمين. ولا التقاء بين إمامة الدين التي هي صلة الرسالة ومنهج النبوّة وبين سلطة الظالمين والقتلة.

(وَمن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ ا لْغَالِبُونَ)[٢٠٦].

(٢٠٦) المائدة: ٥٦ .

الإمام الصادق (عليه السلام)
أجوبة ومُناظرات

تمهيد

تقدّم القول أنّ عصر الإمام الصادق (عليه السلام)، كان عصر مجادلات ونظر، إذ اتسعت فيه دائرة الخلافات العقائدية، وانتشرت فيه المقالات المختلفة، وظهرت هناك عقائد ومذاهب لاتتمشى مع روح الإسلام، كما أن شُبه الزنادقة والملحدين قد ظهرت بصورة علنية، ووُجد يومئذ من ينكر وجود الله، مستعيناً على إثبات وجهة نظره بالمنطق اليوناني، إذ ظهرت نتائج التفاعل الفكري بين المسلمين وحضارة اليونان، وانتشرت مبادئ المنطق اليوناني والفكر الإغريقي.

ودار الجدل والنقاش حول مسائل أهمّها مسألة التشبيه والتجسيم والصفات، ومسألة تحمل الإنسان مسؤولية عمله، أو رفع كلّ مسؤولية عنه، وبراءته من كلّ إثم، الى غير ذلك من المسائل: كقِدم العالم وحدوثه وفكرة العدل والكبائر، ممّا هو مذكور في أمّهات الكتب من الخلافات عندما ظهرت التيّارات المختلفة، التي إرتسمت في آفاق الفكر الإسلامي.

وقد رأينا فيما سبق موقف الإمام في ردّ تلك المزاعم، ودفع تلك الشبهات، وأوّل ما كان يسعى إليه هو إثبات وجود الله ووحدانيته، وعلاقة صفاته به، بأدلّة عقلية مبتنية على أسس منطقية صحيحة، يحاول فيها إظهار الحقّ، وكشف الحقيقة بما أوتي من مواهب غزيرة، ومقدرة على البيان، فمرة يأتي بأوجز بيان في برهانه مع الوفاء بالقصد، وأخرى يطنب في الدليل ويوضح الحجّة، ويسترسل في البيان، كما في توحيد المفضّل وغيره، فمن إيجازه حينما يسأل عن الدليل عن الخالق يقول (عليه السلام): **«ما بالناس من حاجة»**.(٢٠٧)

فما أوجزها من كلمة وأكبرها من حجة، فإنّا نجد الناس في حاجة مستمرة في كلّ شأن من شؤون الحياة، وهذه الحاجة تدلّ على وجود مآل لهم في حوائجهم، غنيّ عنهم بذاته، وأنّ ذلك المآل واحد، وإلاّ لاختلف السير والنظام، ويسأله مرة هشام بن الحكم بقوله ما الدليل على أنّ الله واحد؟ فيقول (عليه السلام): **«إتصال التدبير وتمام الصنع»**.(٢٠٨)

(٢٠٧) بحار الأنوار ج ٧٥ ص ٢٦٢ ح ١٦٥ .

(٢٠٨) الإمام الصادق للشيخ المظفر ص ١٦٩.

وكان ما يوحيه وجود الإمام الصادق من ثقة في النفوس، وما يبعثه من اطمئنان، من أكبر عوامل التماسك والاحتفاظ بالإرتباط بالأُصول وفهم المبادئ الكبرى في العقيدة الإسلامية، ومع ما يتمتّع به أفراد مدرسة الإمام الصادق وتلامذته من قدرة على الحجّاج والمناظرة، فإنّ أصالة المنهج وبناء الأسلوب جعلا من تلك التيّارات ـ التي غمرت الآخرين وراحوا معها متأثرين بها، أو مقلّدين لها في منهجها مع الاحتفاظ بالمضمون الإسلامي ـ ضعيفة أمام قوّة برهانها، غير قادرة على زحزحة المناظرين والمنافحين عن الفكر الإسلامي، بل إنّ طريقة الإمام الصادق تمكّنت من التحكّم في تأثير التيارات وردّها.

موقف الإمام من الزنادقة والشُبه الفكرية

وإنّ موقف الإمام الصادق (عليه السلام) في الدفاع عن الإسلام في ردّ شُبه الزنادقة والدهرية، و خصومه من أهل الأديان الأُخرى، وقد دبجت فيه آلاف الصفحات في مئات الكتب، وهي ثروة فكرية لا غنى لأيّ أحد من المسلمين عنها، كما أنّه (عليه السلام) قد وجّه أصحابه على قدر كفاءتهم ومقدرتهم، ليخوضوا تلك المعارك الفكرية، ويقفوا في صدّ تلك التيارات والأعاصير، فكانوا خير معين على حلّ المشاكل الفكرية وما يتبعها من مشاكل اجتماعية كان الإمام يهتمّ بها غاية الاهتمام،يقومون بتنفيذ الخطط التي يرسمها لهم وتحت إشرافه يكون القيام بها والسير عليها، فهو المصدر الأوّل والمنتهى الأخير لتلك التعاليم، التي تقوم بها النخبة الصالحة من أصحابه.

فكانت لهم اليد الطولى في خوض تلك المعارك ومحاربة أهل الإلحاد والزندقة، ومناظرة أهل العقائد الفاسدة والفرق الشاذة. وكان (عليه السلام) ينهى عن الكلام في ذات الله فيقول: «**تكلّموا في خلق الله ولا تتكلموا في الله، فإنّ الكلام في الله لايزيد صاحبه إلاّ تحيّراً**».

ويقول (عليه السلام) لمحمد بن مسلم: «**يامحمد، إنّ الناس لا يزال بهم المنطق حتى يتكلّموا في الله، فإذا سمعتم ذلك فقولوا لا إله إلاّ الله**» .[٢٠٩]

ويقول (عليه السلام): «**تكلموا في كل شيء ولا تتكلموا في ذات الله**».[٢١٠]

ويقول (عليه السلام): «**إياكم والتفكر في الله، ولكن إذا أردتم أن تنظروا إلى عظمته فانظروا إلى عظيم خلقه**».[٢١١]

(٢٠٩) الكافي ج ١ ص ٩٢ ح ٣.
(٢١٠) الفصول المهمة للحر العاملي ج ١ ص ٢٤٨ ح ٢٤٣.
(٢١١) الكافي ج ١ ص ٩٣ ح ٧ .

وأشرف(عليه السلام) بنفسه على ما يدور بين أصحابه، فأخضع الجدل والمناقشة لأسس تجعل ما يدور عنده مختلفاً ومتميّزاً حتى أنّه كان لا يتردد في النهي عن علم الكلام الذي يجري على الأهواء والرغبات ففي رواية يونس بن يعقوب، قلت: جعلت فداك سمعتك تنهى عن الكلام وتقول: ويل لأصحاب الكلام، يقولون هذا ينقاد وهذا لا ينقاد، وهذا ينساق وهذا لا ينساق، وهذا نعقله وهذا لا نعقله فقال(عليه السلام): «**إنّما قلت ويل لقوم تركوا قولي وذهبوا الى ما يريدون به**»[٢١٢]

فهو (عليه السلام) يقصد في النهي عن الكلام الجدلي الذي تاه به كثير من الناس، لاعتمادهم فيه على خواطر توحيها إليهم نفوس ساقها الى الكلام حب الغلبة; دون أن يستندوا الى ركن وثيق، أو يأخذوا هذا العلم من معدنه الصحيح .

لقد كان الإمام الصادق (عليه السلام) محطّ آمال الأمة ومعقد أمانيها، وكانت مدرسته يؤمّها كبار العلماء ورجال الفلسفة وطلاب العلوم على اختلاف أنواعها، فهو لم يختصّ بعلم دون آخر، ولم يقتصر على منهج واحد، فكان كلّ وارد يجد عنده ما يطلبه، وكلّ سائل يأخذ عنه أحسن الجواب، لذلك أصبحت الوفود تنهال على مدرسته من جميع الأقطار; لأنّهم وجدوا فيه المعلّم الصادق والإنسان الكامل.

يقول الأستاذ رمضان لاوند: إنّ الإمام الصادق أبا عبد الله (عليه السلام)، هو نموذج لإنسانية المعرفة في العصر الإسلامي الذهبي، بل بداية رائعة له، هيّئت له أسباب هذه الأمة، بالإضافة الى ذكائه الوقاد وجهوده البالغة في البحث والتأمل والدراسة، كان من أولئك الملهمين الذين لايجود التاريخ الإنساني بهم، إلاّ في فترات متباعدة، يضاف الى هذا أيضا، أنّه ثمرة من ثمرات أهل البيت النبوي الشريف، ممّن كانوا في الذروة من قادة العرب وأئمّتهم.

والحقّ أنّ إمامته العلمية لم تكن مقصورة على أتباعه كما ذكرت آنفاً، فلقد رأينا في مجموعة الأخبار الواردة في الفصول السابقة أنّ عمرو بن عبيد، وهو من رجال السنة، قد أتاه يسأله عن أمر دينه ويستفتيه في شؤون مختلفة، من الأوامر والنواهي الواردة في القرآن والسنة، كما أثبتت الأخبار التي أصبحت لها صفة التواتر، وأنّ أبا حنيفة النعمان، وهو صاحب أحد مذاهب السنة الأربعة، قد لازمه مدة سنتين من حياته الدراسية، وأنّ سفيان الثوري، وهو صاحب مذهب من مذاهب السنة، قد لازمه وناقشه وجاوره، وكان منه كما يكون التلميذ من أستاذه. ولئن كان سواه من علماء العصر العباسي الذين تميّزوا بالثقافة الإنسانية الشاملة، قد برز في علم دون آخر.

(٢١٢) الإرشاد للمفيد ص ٢٤١ .

فإنّ الإمام الصادق (عليه السلام) لم يكن في علم من هذه العلوم مقصراً به عن الآخر أبداً، لقد كانت الركائب تحمل إليه طلاب الحكمة، وأصحاب الفقه والفلسفة، و علم الكلام، والعلوم الطبيعية، واللغة، والنحو، والصرف، والبيان والآداب في شعرها ونثرها، والتفسير والسنة النبوية، وأيّام عرب الجاهلية والإسلام.

يضاف الى هذا كلّه وقار وهيبة واستقامة، وصدق وصراحة، وحسن بيان، وتصرّف وقيادة حازمة لأتباعه، وسياسة ماهرة لأنصاره.[٢١٣]

وعلى أيّ حال فإنّ الإمام الصادق (عليه السلام) كان وحيد عصره في مختلف العلوم والفنون، وظهرت في شخصيته آثار الوراثة بأجلى صورها، وأبرز معانيها، إذ هو رضيع ثدي الإيمان، ووليد بيت الوحي ووارث علم النبي، وحافظ تراثه.

لقد كان (عليه السلام) علماً من أعلام الهدى ودعاة الرشاد، يدعو للخير ليوجد قوة فعالة تتجه نحو الخير، ليحيى المسلمون حياة طيبة.

ومهما تكن العوامل التي اتخذها أعداؤه في صرف الناس عنه، فإنّها لم تؤثر الأثر الذي يطلبونه في تحويل الناس عنه، إذ العقيدة أكبر مؤثر في تكوين العقل الإنساني - رقيّاً وانحطاطاً - فإنّ الناس لا يجهلون ما لأهل البيت من الأثر العظيم في المجتمع الإسلامي، وقد منحهم النبي (صلى الله عليه وآله) صفة لا يشاركهم فيها أحد، وهي الاقتران بالكتاب، وعدم افتراقها الى يوم القيامة، وقد مرّت الإشارة لذلك. ولقد إنهال الناس على مدرسة الإمام الصادق (عليه السلام)، من كلّ قطر على اختلاف نزعاتهم وآرائهم، فكان هو المعلّم الأوّل، والمرشد الناصح، والمحدّث الصادق.

وليس بالإمكان حصر أجوبته عن المسائل التي وجّهت إليه من طلاب العلم، ولا بيان مناظراته التي ناظر بها أهل الأديان المختلفة والفرق المتفرقة.

ونحن هنا نشير للبعض منها لئلا يخلو هذا الكتاب عن إثبات شيء منها :

سأله أبو حمزة عمّا يقال من أنّ الله جسم؟ فقال (عليه السلام): «**سبحان من لا يعلم أحد كيف هو إلاّ هو ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، لا يحدّ، ولا يحسّ، ولا تدركه الحواس، ولا يحيط به شيء ولا جسم ولا تخطيط ولا تحديد**»[٢١٤].

ودخل عليه نافع بن الأزرق فقال: يا أبا عبد الله، أخبرني متى كان الله؟ فقال (عليه السلام): «**متى لم يكن حتى أخبرك متى كان، سبحان من لم يزل ولا يزال فرداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً**».[٢١٥]

(٢١٣) الإمام الصادق لرمضان لاوند ص ١٦٩ - ١٧٠.

(٢١٤) الكافي ج ١ ص ١٠٤ ح١ .

(٢١٥) الكافي ج ١ ص ٨٨ ح ١.

وقال ابن أبي يعفور سألت أبا عبد الله عن قول الله: هو الأول والآخر، فقلت أمّا الأول فقد عرفناه، وأمّا الآخر فبيّن لنا تفسيره.

فقال (عليه السلام): **«إنّه ليس شيء يبيد أو يتغير ويدخل التغيير والزوال والانتقال، من لون إلى لون، ومن هيئة الى هيئة، ومن صفة الى صفة، ومن زيادة الى نقصان ومن نقصان الى زيادة، إلاّ ربّ العالمين، فإنّه لم يزل ولا يزال بحالة واحدة، وهو الأول قبل كلّ شيء على ما لم يزل لا تختلف عليه الصفات والأسماء...»** الحديث.(٢١٦)

وقال محمد بن مارد، لأبي عبد الله (عليه السلام) حديث روي لنا أنّك قلت: **إذا عرفت فاعمل ماشئت**. فقال (عليه السلام): قد قلت ذلك. قال محمد: وإن زنوا وإن سرقوا أو شربوا الخمر؟ فقال (عليه السلام): **« إنّا لله وإنا إليه راجعون، والله ما أنصفونا أن نكون أخذنا بالعمل ووضع عنهم، إنّما قلت إذا عرفت فاعمل ماشئت من قليل الخير وكثيره».** (٢١٧)

ومثله عن فضيل بن عثمان: قال: سئل أبو عبد الله الصادق (عليه السلام)، عمّا روي عن أبيه : إذا عرفت فاعمل ما شئت وإنّ بعضهم يستحلّ بعد ذلك كلّ محرم، فقال (عليه السلام) : **« مالهم لعنهم الله؟! إنّما قال أبي إذا عرفت الحق فاعمل ماشئت من خير يقبل منك».** (٢١٨)

وقد كان لإشاعة هذا الحديث من قبل أعداء أهل البيت(عليهم السلام)، أثر كبير في نفس الإمام الصادق (عليه السلام) ، فإنّ أولئك القوم الذين يريدون الوقيعة والتشويه قد تأوّلوا هذا الحديث، وقلّبوا حقيقته، وأذاعو بين العامة أنّ معرفة الإمام كافية عن العمل، وقالوا: إنّما الدين المعرفة، فإذا عرفت الإمام فاعمل ماشئت.

وقد اهتمّ الإمام الصادق (عليه السلام) لهذه الإشاعة الكاذبة، والتأويل الباطل، فأعلن البراءة ممّن ذهب لذلك، ولعنهم على رؤوس الأشهاد، وبسط القول في معنى هذا الحديث ومدلوله، وقال(عليه السلام) عدّة مرات: **إنّا لله وإنا إليه راجعون، تأول الكفرة ما لا يعلمون، وإنما قلت: اعرف واعمل ماشئت من الطاعة، فإنّه مقبول منك، لأنّه لا يقبل الله عملاً من عامل بغير معرفة، لو أن رجلاً عمل أعمال البر كلها، وصام دهره، وقام ليله، وأنفق ماله في سبيل الله، وعمل بجميع طاعة الله، ولم يعرف نبيّه الذي جاء بتلك الفرائض، فيؤمن به ويصدّقه، وإمام عصره الذي افترض الله طاعته فيطيعه، لم ينفعه الله بشيء من عمله، قال الله عز وجل في مثل هؤلاء: (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا)**.(٢١٩)

(٢١٦) الفصول المهمة للحر العاملي ص ٥٦.
(٢١٧) وسائل الشيعة ج ١ ص ١١٤ ب ٢٨ من أبواب مقدمة العبادات ح ٢ .
(٢١٨) الوسائل ج١ ص ١١٦ ـ ١١٧ .
(٢١٩) الفرقان: ٢٣.

وكتب(عليه السلام) الى الآفاق بذلك كتاباً، قال فيه: **وا نّما يقبل الله العمل من العباد بالفرائض التي افترضها عليهم، بعد معرفة من جاء بها من عنده، ودعاهم إليه: فأوّل ذلك معرفة من دعا إليه وهو الله الذي لا إله إلاّ هو، وتوحيده، والاقرار بربوبيته، ومعرفة الرسول الذي بلّغ عنه وقبول ما جاء به، ثم معرفة الأئمة بعد الرسول الذين افترض طاعتهم في كلّ عصر وزمان على أهله، والإيمان والتصديق بجميع الرسل والأئمة، ثم العمل بما افترض الله بأنّ على العباد من الطاعات، ظاهراً وباطناً، واجتناب ما حرم الله بأنّ عليهم ظاهراً وباطناً** (الخبر) .[٢٢٠]

وقال سليمان بن مهران: سألت أبا عبد الله الصادق (عليه السلام)، عن قول الله بأنّ **(وَالأرضُ جَمِيعاً قبضتُهُ)** [٢٢١] فقال (عليه السلام): **يعني ملكه لا يملكها معه أحد والقبض من الله تعالى في موضع آخر المنع والبسط منه الاعطاء والتوسع، كما قال بأنّ: (واللهُ يَقبضُ وَيَبسُطُ وَإليه تُرجَعُون)**[٢٢٢] **يعني يعطي ويوسع ويمنع، والقبض منه بأنّ في وجه آخر الأخذ، والأخذ في وجه القبول منه، كما قال تعالى: (وَيَأخُذُ الصَّدَقاتِ)** [٢٢٣] **أي يقبلها من أهلها ويثيب عليها.**

قال سليمان فقلت: فقوله تعالى: **(وَالسَّمَواتُ مَطويَّاتٌ بيَمِينِه)** [٢٢٤]؟ قال (عليه السلام): اليمين اليد، واليد القدرة والقوة، فقوله بأنّ: **(وَالسَّمَواتُ مَطويَّاتٌ بيَمِينِهِ)أي بقدرته وعونه، سبحانه وتعالى عمّا يشركون .**[٢٢٥]

وسأله هشام بن الحكم بقوله: ما الدليل على أنّ الله واحد؟ فقال (عليه السلام): **اتصال التدبير وتمام الصنع.**[٢٢٦]

وسأله أبو شاكر الديصاني بقوله: ماالدليل على أنّ لك صانعاً؟ فقال (عليه السلام): **«وجدت نفسي لا تخلو من إحدى جهتين: إما أكون صنعتها أنا أو صنعها غيري، فإن كنت صنعتها فلا أخلو من أحد معنيين، إما أن أكون صنعتها وكانت موجودة، فقد استغنيت عن صنعتها، وإن كانت معدومة فإنّك تعلم أنّ المعدوم لا يحدث شيئاً، فقد ثبت المعنى الثالث أنّ لي صانعاً، وهو ربّ العالمين».**
فقال الديصاني وما أحار جواباً.[٢٢٧]

(٢٢٠) الوسائل ج ١ ص ١٣٩.
(٢٢١) الزمر: ٦٧ .
(٢٢٢) البقرة: ٢٤٥.
(٢٢٣) التوبة : ١٠٤.
(٢٢٤) الزمر: ٦٧ .
(٢٢٥) التوحيد ص ١٦١ ح ٢ .
(٢٢٦) التوحيد ص ٢٥٠ ح ٢ .
(٢٢٧) التوحيد ص ٢٩٠ ح ١٠ .

وعنه (عليه السلام) في جواب من سأله عن معنى قوله تعالى (**الرَّحمَنُ عَلَى العَرش استَوَى**) قال: «**استوى من كلّ شيء، فليس شيء اقرب إليه من شيء، لم يبعد منه بعيد، ولم يقرب منه قريب**، ثم قال: **من زعم أنّ الله بأنّ من شيء أو في شيء أو على شيء فقد كفر**».

فقال له السائل: فسّر لي ذلك. فقال (عليه السلام): «**من زعم أنّ الله من شيء فقد جعله محدَثاً، ومن زعم أنّه في شيء فقد جعله محصوراً، ومن زعم أنّه على شيء فقد جعله محمولاً**».(٢٢٨)

وسئل عن شبهة المجسّمة، فقال (عليه السلام) : «**إنّ الجسم محدود متناه، والصورة محدودة متناهية، فإذا احتمل الحدّ احتمل الزيادة والنقصان، وإذا احتمل الزيادة والنقصان كان مخلوقاً**».

فقال السائل: فما أقول؟ فقال (عليه السلام): « **لا جسم ولا صورة، وهو مجسّم الأجسام، ومصور الصور، لم يتجزأ، ولم يتناه، ولم يتزايد، ولم يتناقص، لو كان كما يقولون لم يكن بين الخالق والمخلوق فرق ولا بين المنشئ والمنشأ**».(٢٢٩)

وقال (عليه السلام): «**فمن زعم انّ الله في شيء أو على شيء، أو يحول من شيء الى شيء، أو يخلو منه شيء أو يشتغل به شيء فقد وصفه بصفة المخلوقين، والله خالق كل شيء لا يقاس بالقياس، ولا يشبه الناس، لا يخلو منه مكان، ولا يشغل به مكان، قريب في بُعده، بعيد في قربه، ذلك الله ربنا لا إله غيره**».(٢٣٠)

وسأله سليمان بن مهران الأعمش: هل يجوز أن نقول، إنّ الله بأنّ في مكان؟ فقال (عليه السلام): «**سبحان الله وتعالى عن ذلك، أنه لو كان في مكان لكان محدثاً، لأنّ الكائن في مكان محتاج الى المكان، والاحتياج من صفات المحدَث لا من صفات القديم**».

وسئل (عليه السلام) عن قوله عز وجل: (**اهدِنَا الصِّراط المُسْتَقِيمَ**) قال (عليه السلام): **يعني أرشدنا الى الطريق المؤدّي الى محبتك، والمبلّغ الى دينك، والمانع من أن نتبع أهواءنا فنعطب، أو نأخذ بآرائنا فنهلك**.(٢٣١)

قال هشام بن الحكم : كنت عند الإمام الصادق (عليه السلام) إذ دخل عليه معاوية بن وهب، وعبد الملك بن أعين، فقال له معاوية: يا ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ما تقول في الخبر الذي روي أنّ رسول الله رأى ربّه؟ على أيّ صورة رآه؟ وعن الحديث الذي رووه أنّ المؤمنين يَرون ربّهم في الجنة، على أيّ صورة يرونه؟ فتبسّم (عليه السلام)، **ثم قال: يامعاوية، ما أقبح بالرجل يأتي عليه سبعون سنة أو ثمانون سنة، يعيش في ملك الله ويأكل من نعمه، ثم لا يعرف الله حقّ معرفته!** ثم قال: **يا معاوية، إنّ محمداً لم ير الربّ**

(٢٢٨) الكافي ج ١ ص ١٢٨ ح ٩ .
(٢٢٩) الكافي ج ١ ص ١٠٦ ح ٦.
(٢٣٠) بحار الأنوار ج ٣ ص ٩٠ .
(٢٣١) الإمام الصادق لرمضان لاوند ص٦٣ .

تبارك وتعالى بمشاهدة العيان، وأن الرؤية على وجهين: رؤية القلب ورؤية البصر، فمن عنى برؤية القلب فهو مصيب، ومن عنى برؤية البصر فقد كفر بالله وآياته، لقول رسول الله (صلى الله عليه وآله) **من شبّه الله بخلقه فقد كفر.** ولقد حدثني أبي عن أبيه عن الحسين بن علي(عليهم السلام) : سئل أمير المؤمنين (عليه السلام) فقيل له: يا أخا رسول الله، هل رأيت ربّك؟ فقال: **وكيف أعبد من لم أره؟ لم تره العيون بمشاهدة العيان، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، فإذا كان المؤمن يرى ربّه بمشاهدة البصر فإن كلّ من جاز عليه البصر فهو مخلوق، ولا بد للمخلوق من الخالق. فقد جعلته إذن محدثاً مخلوقاً، ومن شبّهه بخلقه فقد اتّخذ مع الله شريكاً. ويلهم أو لم يسمعوا بقوله تعالى: (لَّاتُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)**(٢٣٢) وقوله: **(لَنْ تَرَانِي وَلَـكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا)**(٢٣٣)**وإنما طلع من نوره على الجبل كضوء يخرج من سم الخياط، فدُكّت الأرض، وصعقت الجبال، فخرّ موسى صعقاً، فلما أفاق قال: سبحانك تبتُ إليك من قول من زعم أنّك ترى، ورجعت الى معرفتي بك، أنّ الأبصار لا تدركك، وأنا أوّل المؤمنين وأوّل المقرين بأنّك ترى و لا تُرى وأنت بالمنظر الأعلى.**

ثم قال (عليه السلام) **: إنّ أفضل الفرائض وأوجبها معرفة الربّ، والإقرار له بالعبودية وحدّ المعرفة أن يعرف أنّه لا إله غيره، ولا شبيه له ولا نظير، وأن يعرف أنه قديم مثبت موجود غير مقيد، موصوف من غير شبيه، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وبعده معرفة الرسول والشهادة بالنبوة».**(٢٣٤)

وله (عليه السلام) كثير من الحجج في الردّ على من جوّزوا الرؤية لله في البصر سواء في الدنيا أو في الآخرة، لأنّهم اختلفوا في ذلك، إذ جوّزها قوم في الدنيا والآخرة، ومنعها آخرون في الدنيا وأجازوها في الآخرة، كما هو مذهب الشافعي.

وذهب أهل البيت(عليهم السلام)الى استحالة الرؤية في الدنيا والآخرة، وعدم إمكانها مطلقاً لأنه تعالى **(لَّاتُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)**(٢٣٥). لأن الأبصار إنما تتعلق بما كان في جهة أصلاً أو تابعاً، كالأجسام والهيئات، وعلّل ذلك بأنّ الباصرة لا تكون في حيّز الممكنات ما لم تتصل أشعة البصر بالمرئي ويمتنع إتصال شيء بذاته جلّ وعلا.

(٢٣٢) الأنعام: ١٠٣.
(٢٣٣) الأعراف: ١٤٣.
(٢٣٤) الإمام الصادق للشيخ المظفر ص ١٧٧ ـ ١٧٨.
(٢٣٥) الأنعام: ١٠٣ .

ولمّا اشتهرت مقالة المفوضة، وهم الذين يقولون بتفويض الأفعال الى المخلوقين، ورفعوا عنها قدرة الله وقضاءه، عكس المجبرة الذين أسندوا الأفعال إليه تعالى، وأنّه أجبر الناس على فعل المعاصي، وأجبرهم على فعل الطاعات، وأنّ أفعالهم في الحقيقة أفعاله، فكان أثر هاتين الفكرتين سيّئا في المجتمع الإسلامي. فتصدّى الإمام (عليه السلام) لردّ هؤلاء، وأعلن العقيدة الصحيحة في جوابه البليغ وردّه الشهير وهو قوله: «**لا جبر ولا تفويض، ولكن أمر بين أمرين**».[٢٣٦]

وخلاصته: أنّ أفعالنا - من جهة - هي أفعالنا وتحت قدرتنا واختيارنا، ومن جهة أخرى هي مقدورة لله تعالى، داخلة تحت سلطانه فلم يجبرنا على أفعالنا، حتى يكون قد ظلمنا في عقابنا على المعاصي، لأنّ لنا القدرة على الاختيار في ما نفعل، ولم يفوّض إلينا خلق أفعالنا حتى يكون قد أخرجها عن سلطانه، بل له الخلق والأمر وهو قادر على كلّ شيء ومحيط بالعباد.

وبهذا تعتقد الشيعة، ومذهبهم وسط بين المذهبين كما بيّنه أئمّة الهدى ودلّت عليه كلمة الإمام الصادق (عليه السلام)، في جوابه هذا.

وقال محمد بن عجلان قلت لأبي عبد الله الصادق: فوض الله الأمر الى العباد؟ فقال (عليه السلام)**: «الله اكرم من أن يفوّض إليهم»**.

قلت: فأجبر العباد على أفعالهم؟ فقال (عليه السلام) **: «الله أعدل من أن يجبر عبداً على فعل ثم يعذّبه عليه»**.[٢٣٧]

وبلغه (عليه السلام) مقالة الجعد بن درهم[٢٣٨] وهي أنّه جعل في قارورة تراباً وماءً، فاستحال دوداً وهواماً، فقال الجعد: أنا خلقت هذا لأني سبب كونه. فقال الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام)**: «ليقل كم هي وكم الذكران والإناث إن كان خلقها، وكم وزن كل واحدة منهن، وليأمر الذي سعى الى هذا الوجه أن يرجع الى غيره!»**[٢٣٩]

قال ابن حجر: فبلغه ذلك - أي قول الإمام الصادق (عليه السلام) - فانقطع ورجع.[٢٤٠]

(٢٣٦) التوحيد ص ٣٦٢ ح ٨.

(٢٣٧) التوحيد ص ٣٦١ ح ٦.

(٢٣٨) الجعد بن درهم: أصله من خراسان، ويقال أنه من موالي بني مروان، سكن دمشق وكانت له بها دار، وإليه ينسب مروان الحمار آخر خلفاء بني أمية، لأنه كان معه أو مؤدبه فيقال مروان الجعدي، والجعد هو أوّل من أظهر القول بخلق القرآن، وقد غضب عليه بنو أمية فتطلبوه وهرب الى الكوفة، فقبض عليه خالد القسري فقتله يوم الأضحى سنة (١٢٤ هـ)، وقال للناس، ضحوا يقبل الله منكم فإني مضح بالجعد، فنزل إليه وذبحه تحت المنبر.

(٢٣٩) لسان الميزان لابن حجر ج ٢ ص ١٠٥ .

(٢٤٠) لسان الميزان ج ٢ ص ١٨٦ الرقم ١٩٦٤.

وسأله سدير الصيرفي عن معرفة الله تعالى، فأجابه (عليه السلام) عن المعرفة بالوهم، والمعرفة بالاسم، والمعرفة بالصفة، وفصّل له جميع هذه الأنواع، وذكر له المعرفة الصحيحة، ثم ذكر صفة الإيمان الصحيح، وكيف يصبح الرجل مؤمناً حقّاً، وأنّ ذلك لا يحصل إلاّ بالإقرار والخضوع لله والتقرّب إليه، والأداء له بما فرض من صغير وكبير، ثم أخذ في التفصيل والبيان، وذكر بعد ذلك صفات الإسلام العامة، والأشياء التي يستحقّ الإنسان بها إطلاق الإسلام عليه.

ثم ذكر أسباب الخروج من الإيمان، وذكر معنى الفسق، وبيّن الكبائر التي يكون بها فساد الإيمان الى آخر ما ذكر في الجواب عن ذلك تفصيلاً.[٢٤١]

طرق معيشة العباد

وسأله سائل فقال: كم جهات معائش العباد التي فيها الاكتساب والتعامل ووجوه النفقات؟ فقال (عليه السلام) : **«جميع المعائش كلّها من وجوه المعاملات فيما بينهم ممّا يكون لهم فيها المكاسب أربع جهات من المعاملات.**

فقال السائل: أكلّ هذه الأربع جهات حلال، أو كلّها حرام، أو بعضها حلال وبعضها حرام؟ فقال (عليه السلام)**: في هذه الأجناس الأربعة حلال من جهة، وحرام من جهة، وهذه الأجناس معروفات، فأوّل هذه الجهات الأربع الولاية وتولية بعضهم على بعض، ثم التجارة في جميع البيع والشراء بعضهم من بعض، ثم الصناعات من جيمع صنوفها، ثم الإجارات، وكلّ هذه تكون حلالاً من جهة وحراماً من جهة، والفرض من الله على العباد في هذه المعاملات الدخول في جهات الحلال منها، والعمل بذلك الحلال واجتناب جهة الحرام منها.**

ثم أخذ (عليه السلام) في التفصيل : فذكر الولاية وقسّمها الى حلال، وهي ولاية ولاة العدل الذين أمر الله بولايتهم وتوليتهم على الناس. وأمّا الحرام منها، فهي الولاية لأئمة الجور والعمل لهم، والكسب معهم بجهة الولاية لهم، فهو حرام ومحرم، معذب من فعل ذلك قليلاً أو كثيراً. وعلّل (عليه السلام) ذلك بأنّ ولاية الوالي الجائر دروس للحقّ كلّه، وإحياء الباطل كلّه، وإظهار الظلم والفساد، وإبطال الكتب، وهدم المساجد، وتبديل سنّة الله وشرائعه، ولذلك حرّم العمل معهم ومعونتهم، والكسب معهم إلاّ بجهة الضرورة، نظير الضرورة الى الدم والميتة.

ثم ذكر التجارة ومايحلّ من البيع وما يحرم منه، فالحلال ما هو غذاء العباد وقوامهم في أُمورهم، في وجوه الصلاح الذي لا يقيمهم غيره الى آخر بيانه في ذلك،

(٢٤١) تحف العقول ص ٣٢٥ ـ ٣٢٩ .

والحرام منه هو كلّ أمر يكون فيه الفساد مما هو منهيّ عنه من جهة أكله وشربه، أو كسبه أو نكاحه، أو ملكه، أو إمساكه، أو هبته أو عاريته.

ثم ذكر (عليه السلام) بقيّة الجهات من الصناعة والإجارة، ووجوه إخراج الأموال وإنفاقها وما يحلّ للإنسان أكله وما لا يحلّ، وما يجوز من اللباس وما لا يجوز، إلى آخر بيانه وتفصيله في جوابه لسائله.

سلوك الوالي مع الرعية

وسأله عبد الله النجاشي[٢٤٢]: عمّا يقرّبه الى الله تعالى والى رسوله بما يعمله في ولايته مع الرعية. فأجابه (عليه السلام) بجواب طويل، ورسالة مفصّلة منها قوله: «**فإنّي ملخص لك جميع ما سألت منه، إن أنت عملت به ولم تجاوزه رجوت أن تنجو إن شاء الله تعالى، أخبرني أبي عن آبائه عن رسول الله** (صلى الله عليه وآله)، **أنّه قال: من استشاره أخوه المؤمن فلم يمحضه النصيحة سلبه الله لبه، واعلم أني سأشير عليك برأي إن أنت عملت به تخلصت ممّا أنت متخوفه، واعلم أنّ خلاصك ونجاتك في حقن الدماء، وكفّ الأذى عن أولياء الله والرفق بالرعية، والتأنّي وحسن المعاشرة مع لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف، ومداراة صاحبك ومن يرد عليك من رسله، وارتق فتق رعيتك بأن توافقهم على ماوافق الحقّ والعدل إن شاء الله.**

وإيّاك والسعاة وأهل النمائم، فلا يلتزقن منهم بك أحد، ولا يراك الله يوماً وليلة وأنت تقبل منهم صرفاً ولا عدلاً فيسخط الله عليك...

ومنها : «**ولا تستصغرن من حلو أو فضل طعام تصرفه في بطون خالية، ليسكن بها غضب الله تبارك وتعالى، واعلم أني سمعت من أبي يحدث عن آبائه عن أمير المؤمنين**(عليه السلام)، **أنّه سمع النبيّ**(صلى الله عليه وآله) **يقول: ما آمن بالله واليوم الآخر من بات شبعاناً وجاره جائع.** فقالوا: هلكنا يا رسول الله، فقال (صلى الله عليه وآله) **: من فضل طعامكم ومن فضل تمركم ورزقكم تطفون بها غضب الربّ...» يا عبد الله إيّاك أن تخيف مؤمناً، فإنّ أبي محمداً حدّثني عن أبيه عن جدّه علي بن أبي طالب أنّه كان يقول: من نظر الى مؤمن نظرة ليخيفه بها أخافه الله يوم لا ظل إلاّ ظلّه».**

ثم أخذ (عليه السلام) يوجه له نصائحه ويذكر له مكارم الأخلاق وما يلزم أن يتحلّى بها كلّ مسلم، ويروي له أحاديث رسول الله (صلى الله عليه وآله) في ذلك، ويختم جوابه بقوله: «**أوصيك بتقوى الله وإيثار طاعته، والاعتصام بحبله، فإنّه من اعتصم بحبل الله فقد هدي الى**

(٢٤٢) هو أبو بجير عبد الله بن غنيم بن سمعان الأسدي البصري. كان والياً للمنصور على الأهواز، وكان يرى رأي الزيدية، وقدم المدينة ودخل على الإمام الصادق (عليه السلام)، وسأله بمسائل عديدة فخرج منه وقد عدل عن رأيه وقال: هذا عالم آل محمد (صلى الله عليه وآله)، ولا زال يراسل الإمام ويسأله عن أهمّ الأمور.

صراط مستقيم، فاتق الله ولا تؤثر أحداً على رضاه، واعلم بأنّ الخلائق لم يوكلوا بشيء أعظم من التقوى، وأنّه وصيتنا أهل البيت، فإن استطعت ألا تنال شيئاً من الدنيا تسأل عنه غداً فافعل».[٢٤٣]

و ذكر الحلواني في نزهة الناظر، أنّ كاتب المهدي المعروف بأبي عبد الله سأل الإمام الصادق عمّا يستطيع به مداراة السلطان وتدبير أمره، فأجابه [٢٤٤]الإمام (عليه السلام) بما يرشده لذلك، وشرح له طرق السلوك في مداراة السلطان، وأوصاه بأُمور هامة، ونصحه في أشياء كثيرة، ولا يخفى أنّ السائل كان كاتباً للمهدي وهو في ولاية عهده، وكان ممّن يوالي أهل البيت شأنه شأن كثير من القوّاد والأُمراء والكتاب، الذين دخلوا في سلطان بني العباس لمساعدة الضعفاء، ودفع الظلم عنهم قدر استطاعتهم.

التوحيد في أجوبة الإمام للمفضّل بن عمر

وهو جوابه للمفضل بن عمر [٢٤٥] حينما سمع كلام ابن أبي العوجاء وإنكاره للصانع، فناظره المفضل ثم بادر الى الصادق (عليه السلام) وطلب منه أن يملي عليه مايقوى به على مناظرة الزنادقة، فأجابه بتلك الدروس القيّمة، و الحكم النافعة، التي تحتوي على دلائل التوحيد، ومحكم البراهين على وجود الصانع الحكيم، من بيان هيئة العالم، وتأليف أجزائه، ممّا يلزم الكلّ أن يرفضوا فكرة المصادفة في تجمع هذه الكائنات، وفكرة خلود المادة التي يقول بها الدهرية والملحدون .

وبعد ذلك ذكر كيفية خلق الإنسان وتكوينه، و كيفية ولادته وتغذيته، وغرائزه، وطبائعه وبيان الدماغ وعظمته، وما فيه من سائر الأعضاء من عجيب الصنع، وعظيم القدرة، إلى آخر ما يتعلّق بالحلقة الأُولى من حديثه، وهو المجلس الأوّل.

وفي الحلقة الثانية تحدّث عن الحيوان وأنواعه، والحكمة في خلقه مفصلاً موضحاً، مفنداً أقوال الخصوم، ثم ربط تفصيله لخصائص الكائنات الحية، أنواعها وطبقاتها بفكرة الله ووجود الخالق والمخلوق.

(٢٤٣) بحار الأنوار ج ٧٥ ص ٢٧١ ـ ٢٧٦ .

(٢٤٤) نزهة الناظر: ص ١١٤ / ح ٥٢.

(٢٤٥) هو أبو عبد الله المفضل بن عمر الجعفي الكوفي، ولد في الكوفة في نهاية القرن الأوّل أيام الإمام الباقر(عليه السلام) ، وتوفي في أواخر القرن الثاني عن عمر يناهز الثمانين سنة، وقد أدرك أربعة من أئمة أهل البيت، وهم الباقر، والصادق، والكاظم، والرضا(عليهم السلام)، ولم يرو عن الباقر لأنه كان صغيراً في أيامه، واتصل بالإمام الصادق اتصالاً وثيقاً، وكان من ثقاة أصحابه وكان وكيلاً على أمواله بعد موت عبد الله بن أبي يعفور.

وفي اليوم الثالث بدأ يملي حلقته فتحدّث مطولاً عن نظام الكواكب العجيب، وعقلانية تنظيم الأجواء، وعلاقة الإنسان بهذه وتلك، رابطاً هذا كلّه أيضاً بفكرة الوجود الإلهي ووحدانيّة الله.

وفي اليوم الرابع تحدّث عن الأوبئة والأمراض، والآفات المختلفة التي تصيب الإنسان والحيوان والنبات، وعقلانية علاقتها بخالق الوجود ووحدانيته أيضاً.

ونرى من اللازم الإشارة لذلك اختصاراً، إذ لا سبيل لنقل النصوص كاملة، كما وردت لطولها، ولذلك نكتفي بذكر البعض من آيات علم الإمام الصادق التي تحوي خصائص منطقه ومزايا أسلوبه في بحث دلائل التوحيد من خلال عرض الدقائق التي ليس بمقدور الآخرين التعرّف عليها، فضلاً عن التدليل وجعلها مادّة في المناظرة، ولابدّ لهذه الأجوبة أن تجد حظّها من البحث والبيان، فهي من آثار الإمام التي يجدر بالباحثين تناول مضامينها ومنهجها الذي قامت عليه.

المجلس الأوّل في خلق الإنسان

قال (عليه السلام) بعد أن ذكر الملحدين وأسباب شكّهم وتهيئة هذا العالم وتأليف أجزائه: **نبتدي يامفضل بذكر خلق الإنسان فاعتبر به، فأوّل ذلك مايدبر به الجنين في الرحم، وهو محجوب في ظلمات ثلاث: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، حيث لا حيلة عنده في طلب غذاء ولا دفع أذى، ولا استجلاب منفعة، ولا دفع مضرة، فإنّه يجري إليه من دم الحيض مايغذوه، كما يغذو الماء النبات، فلا يزال ذلك غذاءه حتى إذا كمل خلقه، واستحكم بدنه، وقوي أديمه على مباشرة الهواء وبصره على ملاقاة الضياء، هاج الطلق بأمه فأزعجه أشد إزعاج وأعنفه حتى يولد، وإذا ولد صرف ذلك الدم الذي كان يغذوه من دم أمّه الى ثدييها، فانقلب ذلك الطعم واللون الى ضرب آخر من الغذاء وهو أشدّ موافقة للمولود من الدم، فيوافيه في وقت حاجته إليه، فحين يولد تلمظ وحرّك شفتيه طلباً للرضاع، فهو يجد ثدي أمه كإداوتين لحاجته إليه، يغتذي باللبن مادام رطب البدن رقيق الأمعاء ليّن الأعضاء، حتى إذا تحرّك واحتاج الى غذاء فيه صلابة ليشتد ويقوى بدنه، طلعت له الطواحن من الأسنان والأضراس، ليمضغ بها الطعام ويسهل له إساغته، فلا يزال كذلك حتى يدرك...**

ثم قال (عليه السلام): **اعتبر يامفضل فيما يدبّر الإنسان في هذه الأحوال المختلفة، هل يمكن أن تكون بالإهمال؟** الى أن يقول (عليه السلام): **فمن هذا الذي يرصده حتى يوافيه بكل شيء من هذه المآرب؟ إلاّ الذي أنشأه خلقاً بعد إن لم يكن، ثم توكل له بمصلحة بعد أن كان، فإن كان الإهمال يأتي بمثل هذا التدبير فقد كان يجب أن يكون العمد والتقدير يأتيان بالخطأ والمحال، لأنّهما ضد الإهمال،**

وهذا فظيع من القول، وجهل من قائله، لأنّ الإهمال لا يأتي بالصواب، والتضاد لا يأتي بالنظام، تعالى الله عمّا يقول الملحدون علوّاً كبيراً.

ثم قال (عليه السلام) **: ولو كان المولود يولد فاهماً عاقلاً لأنكر العالم عند ولادته، ولبقي حيران تائه العقل إذا رأى ما لم يعرف، وورد عليه ما لم ير مثله، من اختلاف صور العالم من البهائم والطير، الى غير ذلك ممّا يشاهده ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم.**

ثم لو ولد عاقلاً كان يجد غضاضة إذا رأى نفسه محمولاً مرضعاً، معصّباً بالخرق مسجى في المهد لأنّه لا يستغني عن هذا كلّه لرقة بدنه ورطوبته حين يولد، ثم لا يوجد له من الحلاوة والوقع من القلوب ما يوجد للطفل، فصار يخرج الى الدنيا غبياً غافلاً عمّا في أهله، يتلقى الأشياء بذهن ضعيف، ومعرفة ناقصة، ثم لا يزال يتزايد في المعرفة قليلاً قليلاً، وشيئاً بعد شيء، وحالاً بعد حال، حتى يألف الأشياء ويتمرن ويستمر عليها، فيخرج من حدّ التأمل لها والحيرة فيها الى التصرف والاضطرار الى المعاش بعقله وحيلته، والى الاعتبار والطاعة، والسهو والغفلة والمعصية، وفي هذا أيضاً وجوه أُخر: فإنّه لو كان يولد تام العقل مستقلاً بنفسه لذهب موضع حلاوة تربية الأولاد، وما قدر أن يكون للوالد في الاشتغال بالولد من المصلحة، وما يوجب التربية للآباء على الأبناء من المكافأة بالبرّ، والعطف عليهم عند حاجتهم الى ذلك منهم، ثم كان الاولاد لا يألفون آباءهم، ولا يألف الآباء أبناءهم، لأنّ الأبناء إذا كانوا يستغنون عن تربية الآباء، وحياطتهم، فيتفرقون عنهم حين يولدون، فلا يعرف الرجل أباه وأمه. ثم ذكر (عليه السلام) فوائد البكاء للطفل، وساق البيان الى ذكر أعضاء البدن على الشكل الموجود.

فقال المفضّل: يامولاي، إنّ قوماً يزعمون أنّ هذا من فعل الطبيعة. فأجابه الإمام (عليه السلام) **: سلهم عن هذه الطبيعة أهي شيء له علم وقدرة على هذه الأفعال؟ أم ليست كذلك؟ فإن أوجبوا لها العلم والقدرة، فما يمنعهم من اثبات الخالق، فإنّ هذه صفته، وإن زعموا أنها تفعل هذه الأفعال بغير علم ولا عمد، وكان في أفعالها ما قد تراه من الصواب والحكمة، علم أن هذا الفعل للخالق الحكيم، وأنّ الذي سمّوه طبيعة هو سنته في خلقه الجارية على ما أجراه عليه».**

ويستمر (عليه السلام) في بيان وصول الغذاء الى البدن، وكيفية انتقال صفوه من المعدة الى الكبد، في عروق رقاق، ثم كيفية تقسيمه في البدن، وبروز الفضلة منه، وذكر نشوء الأبدان ونموّها، والحواس التي خصّ الله بها الإنسان. الى أن يقول: **لو رأيت تمثال الإنسان مصوراً على حائط فقال لك قائل: إنّ هذا ظهر ههنا من تلقاء نفسه، لم يصنعه صانع. أكنت تقبل ذلك؟ بل كنت تستهزئ به، فكيف تنكر هذا في تمثال مصور جماد، ولا تنكر في**

الإنسان الحيّ الناطق؟ ثم أخذ في البيان عن خلقة الإنسان وعجيب صنعه وما أودع فيه من القوى.

المجلس الثاني في ذكر الحيوان

قال (عليه السلام): «**أبتدي لك بذكر الحيوان ليتّضح لك من أمره ما وضح لك من غيره، فكر في أبنية الحيوان وتهيئتها على ما هي عليه، فلا هي في صلابة كالحجارة، ولو كانت كذلك لا تنثني ولا تتصرف في الأعمال، ولا هي على غاية اللين والرخاوة، فكانت لا تتحامل ولا تستقلّ بأنفسها، فجعلت من لحم رخو ينثني، تتداخله عظام صلاب، يمسكه عصب، وعروق تشدّه، وتضمّ بعضه الى بعض، غلّفت فوق ذلك بجلد يشمل على البدن كلّه** إلى أن يقول: **وفكر بعد هذا في أجسام الأنعام، فإنها خلقت على أبدان الإنس من اللحم، والعظم والعصب، وأعطيت السمع والبصر، ليبلغ الإنسان حاجياته منها، ولو كانت عمياً صماً لما انتفع بها الإنسان، ولا تصرفت في شيء من مآربه، ثم منعت الذهن والعقل لتذل للإنسان فلا تمتنع عليه إذا كدّها الكد الشديد**».

ثم أخذ (عليه السلام) يذكر مميّزات كلّ نوع من أنواع الحيوان الثلاثة وهي: الإنسان، وآكلات اللحوم، وآكلات النبات، وما يقتضي كلّ نوع منها حاجته، من كيفية الأعضاء والجوارح، فيأتيك بلطائف الحكمة وبدائع القدرة.

ثم يستمرّ (عليه السلام) في كلامه للذرّة، والنملة، والليث.

واستطرد ذكر الطائر وكيف خفّف جسمه، وأدمج خلقه، وجعل له جؤجؤاً ليسهل عليه أن يخرق الهواء، إلى غير ذلك من خصوصيات خلقته، وهكذا في خلق تلك الخصوصيّات، ويستطرد الحكمة في خصوصيات خلقة الدجاجة، ثم العصفور، ثم الخفاش، ثم النحل وغيرها من صغار الطيور، وما جعل الله فيها من الطبائع، والفطن، والهداية لطلب الرزق.

ثم استعرض خلق السمك ومشاكلته للأمر الذي قدر أن يكون عليه فيقول: **فإذا أردت أن تعرف سعة حكمة الخالق، وقصر علم المخلوقين، فانظر الى ما في البحار من ضروب السمك، ودواب الماء، والأصداف، والأصناف، التي لاتحصى منافعها إلاّ الشيء بعد الشيء يدركه الناس بأسباب تحدث.**

ثم ينهي كلامه على وحدانية واجب الوجود.

المجلس الثالث في ذكر السماء

قال (عليه السلام) بعد أن تحدّث عن السماء ولونها، وما فيه من صواب التدبير وعظم الحكمة: «**فكّر يا مفضل في طلوع الشمس وغروبها، لإقامة دولتي الليل والنهار، فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كلّه، فلم يكن الناس يسعون في معاشهم ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم، ولم يكن يتهنأون مع فقدهم لذة النور وروحه، والإرب في طلوعها ظاهر، مستغن بظهوره عن الإطناب في ذكره والزيادة في شرحه، بل تأمل المنفعة في غروبها، فلولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار، مع عظم حاجتهم الى الهدوء والراحة، لسكون أبدانهم ووجوم حواسهم، وانبعاث القوة الهاضمة لهضم الطعام وتنفيذ الغذاء الى الأعضاء، ثم كان الحرص يستحملهم من مداومة العمل ومطاولته، على ما يعظم نكايته في أبدانهم، فإنّ كثيراً من الناس لولا جثوم هذا الليل لظلمته عليهم لم يكن لهم هدوء ولا قرار، حرصاً على الكسب والجمع والادّخار، ثم كانت الأرض تستحمي بدوام الشمس، وتحمي كلّ ما عليها من حيوان ونبات، فقدّرها الله بحكمته وتدبيره، تطلع وقتاً وتغرب وقتاً**».

ثم تعرّض لبعض العقاقير وخواصها ومنافعها الى آخر الفصل.

المجلس الرابع في ذكر آفات الدهر

تحدّث فيه (عليه السلام) عن الآفات الحادثة في بعض الأزمان التي اتخذها أُناس من الجهال ذريعة الى جحود الخالق والخلق، وانكرت المعطلة والمانوية من المكاره والمصائب وما أنكروه من الموت والفناء الى أن انتهى في البيان الى الخالق في شُبَه الملحدين، الى آخر بيانه ونير برهانه، وقال في آخر كلامه للمفضل: «**خذ ما آتيتك وكن لله من الشاكرين، فقد شرحت لك من الأدلّة على الخلق، والشواهد على صواب التدبير، قليلاً من كثير وجزءاً من كلّ، فتدبره وفكّر فيه واعتبر به**».(٢٤٦)

ولهذه الأجوبة - الموجزة والمطولة منها - أمثال كثيرة منثورة في كثير من الكتب بمختلف العلوم من تفسير وفقه، وحكمة وكلام وطب، وغير ذلك، وقد اقتصرنا على هذا القدر في ناحية واحدة وهي ناحية التوحيد، وما يتعلّق بصفاته تعالى ممّا هو مذكور في محلّه بكثرة، وقد تركنا الكثير منها نظراً لما ألزمنا أنفسنا من الاختصار.

مناظرات الإمام حول الإسلام ومبادئه

أمّا مناظراته واحتجاجه على كثير من أهل الأديان المختلفة، والفرق المتعددة، فهي كذلك في الكثرة والتعدّد بمختلف العلوم وشتّى المواضيع، فقد ناظر (عليه السلام)

(٢٤٦) التوحيد للمفضل ص ١٢٢ .

علماء الأديان الأخرى حول الإسلام ونبيّه (صلى الله عليه وآله)، بأسلوب الإقناع والحجة الدامغة.

وكذلك ناظر المرتابين وأهل الزيغ والضلال والملحدين والزنادقة، بمناظرات عديدة يدعوهم فيها الى سبيل الله وتوحيده، ونبذ الخضوع لغير الله، وعدم الشرك به، ليخرجهم بذلك من الظلمات الى النور، ويهديهم الى صراط مستقيم، والاستقامة عليه، بأسلوب قويّ، نافذ للعقول والقلوب معاً، مراعياً في ذلك قابلية المخاطب واستعداده.

وله مناظرات كثيرة مع رؤساء الفرق الإسلامية، من معتزلة ومجسّمة، وقدرية وجبرية، ومفوضة، وغيرهم، وهو يحاول بذلك نبذ الآراء المختلفة، وترك الهوى والانقسام في الدين، والتفرّق فيه، فكان له (عليه السلام) من الحجج البوالغ ما رفع به العذر، وأزال الريب، وعلى سبيل المثال نذكر بعضاً من مناظراته، ومن أراد الاستزادة فليرجع الى كتب العقائد والكلام والحديث، فقد تضمّنت الشيءالكثير منها.

جاء أحد الزنادقة ممّن يبثّون الشبهات حول الدين الى الإمام الصادق (عليه السلام)وهو في البيت الحرام، وبعد أن قابله وتبادلا حديثاً قصيراً; قال له الإمام (عليه السلام): **انتظر حتى أفرغ من الطواف، ثم ائتنا نحدثك فنرى ما عندك.**

ولمّا فرغ أبو عبد الله من طوافه وصلاته، أتاه الرجل وجلس وتلامذة الإمام ـ ومنهم هشام بن الحكم مجتمعون عنده ـ فقال أبو عبد الله (عليه السلام): **أتعلم أن للأرض فوقاً وتحتاً؟** قال: نعم.

قال أبو عبد الله : **فهل دخلت تحتها؟** قال: لا.

قال الإمام (عليه السلام): **مايدريك ما تحتها؟** قال: لا أدري إلاّ أنّي أظنّ أن ليس تحتها شيء.

قال أبو عبد الله: **فالظن عجز فلمَ لا تستيقن؟** ثم أردف الإمام الصادق يقول: **أفصعدت الى السماء ؟**

قال : لا .

قال (عليه السلام) : **أفتدري ما فيها؟** قال : لا.

قال الإمام (عليه السلام) : **عجباً لك لم تبلغ المشرق ولم تبلغ المغرب، ولم تصعد الى السماء ولم تجز هناك، فلم تعرف ما خلفهنّ وأنت مع ذلك جاحد بما فيهن؟!**

ثم قال (عليه السلام) **: أيّها الرجل، ليس لمن لا يعلم حجة على من يعلم، ولا حجة للجاهل، فيا عبد الملك** ـ وهو اسم الرجل ـ **إفهم عنّا فإنّا لا نشك في الله أبداً، أما ترى الشمس والقمر والليل**

والنهار يلجان فلا يشتبهان ويرجعان واضطرا ليس لهما مكان إلاّ مكانهما؟ فإن كانا يقدران على أن يذهبا فلم لا يصير الليل نهاراً والنهار ليلاً؟ لقد اضطرا إلى دوامهما والذي اضطرهما هو أعظم منهما وأكبر.

ثم أخذ (عليه السلام) يناظره في أُمور كثيرة حتى أدّى به الأمر الى الاعتراف بخطئه ورجع عن مقالته، فأمر الإمام (عليه السلام) هشام بن الحكم أن يتولّى توجيهه .[٢٤٧]

وله مناظرات مع ابن أبي العوجاء[٢٤٨] في التوحيد وغيره، وكان ابن أبي العوجاء من الزنادقة المشهورين، وقتل على الزندقة، واعترف عند قتله بدسّه الأحاديث الكاذبة في أحاديث النبي (صلى الله عليه وآله).

فمن تلك المناظرات: أنّه كان هو وابن المقفع[٢٤٩] في المسجد الحرام يلاحظان الجمع الذي كان يقوم بالطواف حول الكعبة، فقال ابن المقفع لأصحابه: لا واحد من هؤلاء يستحقّ اسم الإنسانية إلاّ هذا الشيخ الجالس وأشار الى جعفر بن محمد الصادق، أمّا الباقون فرعاع وبهائم، فقام ابن أبي العوجاء الى الشيخ وتحدّث معه ثم رجع وقال: ما هذا ببشر! وان كان في الدنيا روحاني يتجسّد إذا شاء ظاهراً، ويتروح إذا شاء باطناً فهو هذا.

وحينما اقترب من الإمام واصبحا منفردين، قال له الإمام الصادق: **لو كان الأمر كما يقول هؤلاء** - وأشار الى الجمع القائم بالطواف - **وهو حقّ كما يقولون**، نجا هؤلاء وعطبتم، أمّا إذا انعكس الحال وكان على ما تقولون - وهو ليس كما تقولون - فأنتم وإياهم سواء .

فسأله ابن أبي العوجاء: رحمك الله أيّها الشيخ أيّ شيء نقوله نحن، وأي شيء يقولونه هم ؟

(٢٤٧) كتاب الإمام الصادق للأستاذ رمضان لاوند ص ١٨٣ - ١٨٥، وكتاب حياة الإمام الصادق للسبيتي ص ٧٧ - ٧٩، وكتاب الإمام الصادق للشيخ المظفر ج ١ ص ٢١١ - ٢١٢ .

(٢٤٨) ابن أبي العوجاء: هو عبد الكريم بن أبي العوجاء، خال معن بن زائدة، وكان من الزنادقة المشهورين، يقول جرير بن حازم كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام: واصل بن عطاء، وعمر بن عبيد، وبشار بن برد، وعبد الكريم بن أبي العوجاء، ورجل من الأزد، فكانوا يجتمعون في مجلس الأزد، فأما عمرو وواصل فقد صارا الى الاعتزال، وأما عبد الكريم وصالح فصححا الثنوية، وامّا بشار فبقي متحيراً ، وكان عبد الكريم يفسد الأحداث، فتهدده عمر بن عبيد فلحق بالكوفة فدل عليه محمد بن سليمان فقتله وصلبه وذلك سنة (١٦١ هـ) ولما أخذ لتضرب عنقه قال: لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحرم فيها الحلال وأحلل الحرام - لسان الميزان ج ٤ ص ٥١ - ٥٢ .

(٢٤٩) هو عبد الله بن المقفع، ولد سنة (١٠٦ أو ١٠٧ هـ) في قرية من قرى فارس اسمها(جور) وموضعها فيروز آباد، ويقول ابن النديم: إنه اسمه بالفارسية (روزبه) ومعناه (المبارك) واسم أبيه (داذوبه) فلما أسلم تسمّى بعبد الله وتكنّى بأبي محمد، وكان حسن الأدب، واسع العلم حاد الذكاء، ويعدّ في طليعة الكتاب الحاذقين، وقد استعمله بعض الولاة والأمراء للكتابة في دواوينهم. رمي بالزندقة والإلحاد، وحقد عليه المنصور لأمور كثيرة، وقد قتله سفيان بن يزيد قتلة شنيعة، ذلك أنه أمر بتنور فأُسجر ثم أمر بابن المقفع فقطع وألقي في التنور وأطبق عليه.

فأجابه الإمام جعفر: **أنّى لما تقولون أن يكون كما يقولون!؟ هم يقولون بالمعاد، والوعد والوعيد، وأنّ للسماء إلهاً، وبها عمراناً، بينما تزعمون أنّ السماء خراب وليس بها أحد.**

فقال ابن أبي العوجاء: لو كان الأمر كما تقول، فما منع الله من الظهور لجميع خلقه ودعوتهم الى عبادته، حتى لا يصبح اثنان فيهم على خلاف؟ لماذا اختفى عنهم، ومع ذلك أرسل إليهم رسلاً؟ لو كان قد ظهر بذاته لهم، لكان ذلك أسهل الى الاعتقاد به.

فأجابه الإمام جعفر : **كيف اختفى عنك من أظهر قدرته في نفسك أنت، وفي نمائك؟!** وكان جواباً بليغاً حتى قال ابن أبي العوجاء لأصحابه: وظلّ يحصي لي قدرة الله التي في نفسي، والتي لم استطع رفضها حتى ظننت أنّ الله قد نزل بينه وبيني.(٢٥٠)

وله مناظرة أُخرى :

كان ابن أبي العوجاء وابن طالوت وابن المقفع في نفر من الزنادقة مجتمعين في الموسم بالمسجد الحرام، وأبو عبد الله جعفر بن محمد (عليهما السلام) فيه إذ ذاك يفتي الناس ويفسّر لهم القرآن، ويجيب عن المسائل بالحجج والبيّنات، فقال القوم لابن أبي العوجاء: هل لك في تغليط هذا الجالس وسؤاله عمّا يفضحه عند هؤلاء المحيطين به، فقد ترى فتنة الناس به وهو علاّمة زمانه ؟

فقال لهم ابن أبي العوجاء: نعم. ثم تقدّم ففرّق الناس فقال: يا أبا عبد الله أفتاذن لي في السؤال؟ فقال له أبو عبد الله: سل إن شئت. فقال ابن أبي العوجاء: إلى كم تدوسون هذا البيدر، وتلوذون بهذا الحجر، وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر، وتهرولون حوله هرولة البعير إذا نفر ؟ من فكر في هذا وقدر علم أنّه فعل غير حكيم ولا ذي نظر، فقل فإنّك رأس هذا الأمر وسنامه، وأبوك أسسه ونظامه.

فقال له الإمام الصادق (عليه السلام) : **«إنّ من أظلّه الله وأعمى قلبه، استوخم الحقّ فلم يستعذبه، وصار الشيطان وليّه وربّه، يورده مناهل الهلكة وثم لا يصدره. وهذا بيت استعبد الله به عباده ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحثّهم على تعظيمه وزيارته، وجعله محلّ أنبيائه وقبلة للمصلّين له، فهو شعبة من رضوانه وطريق يؤدي إلى غفرانه، منصوب على استواء الكمال، ومجتمع العظمة والجلال، خلقه الله قبل دحو الأرض بألفي عام، فأحق من أُطيع فيما أمر، والنهي عمّا نهى عنه وزجر، هو الله المنشئ للأرواح والصور».**

(٢٥٠) من تاريخ الإلحاد للأستاذ عبد الرحمن بدري ص ٦٩.

فقال له ابن أبي العوجاء : ذكرت يا أبا عبد الله فأحلّت على غائب.

فقال الإمام الصادق (عليه السلام) : **«كيف يكون غائباً من هو مع خلقه شاهد، وهو أقرب إليهم من حبل الوريد، يسمع كلامهم، ويعلم أسرارهم، لايخلو منه مكان ولا يشغل به مكان، ولا يكون إلى مكان أقرب منه الى مكان، تشهد بذلك آثاره، وتدلّ عليه أفعاله، والذي بعث بالآيات المحكمة والبراهين الواضحة محمداً** (صلى الله عليه وآله) **الذي جاءنا بهذه العبادة، فإن شككت في شيء من أمره فاسأل عنه أوضّحه لك».**

فابلس ابن أبي العوجاء ولم يدر ما يقول، فانصرف من بين يديه، فقال لأصحابه: سألتكم أن تلتمسوا لي خمرة فالقيتموني على جمرة. فقالوا له: اسكت فو الله لقد فضحتنا بحيرتك وانقطاعك، وما رأينا أحقر منك اليوم في مجلسه. فقال: ألي تقولون هذا؟ إنّه ابن من حلق رؤوس من ترون، وأومأ بيده الى أهل الموسم .[٢٥١]

هذا أنموذج من أجوبته (عليه السلام) ومناظراته في باب التوحيد، وقد اقتصرنا على هذا البعض ولا يسعنا ذكر أكثر منه لضيق المجال ورعاية للاختصار.

خلاصة الصراع بين دعوة الإمام الاصلاحية ودولة المنصور العباسية

رأينا فيما مضى من الأبحاث السابقة عن حياة الإمام الصادق (عليه السلام)، كيف كانت دعوته الاصلاحية في ذلك العصر الذي سادت فيه موجة عاتية من الفتن، عندما انطلقت الأفكار، وعصفت الآراء، واختلف الناس فيما بينهم، فتكالبوا على حبّ الذات والظفر، وتطاحنوا على الغلبة والتفوّق، فانتشرت البدع والخرافات، وظهرت الفرق التي تتشح بثوب الإسلام، ولكنّها تتجافى عن تعاليمه وتتنكر لمبادئه، والتي هي في الواقع أشدّ ضرراً على الإسلام من سائر الملل والديانات الأُخرى، وكان أعظمها عليه أولئك المندسون في صفوف المسلمين وفيهم من يدّعى حبّ أهل البيت(عليهم السلام)، والانتماء إليهم، ولكنّهم خصوم لهم وأعداء لدعوتهم، لذلك كان اهتمامه (عليه السلام)في أمرهم عظيماً، وموقفه تجاههم حاسماً، فحاربهم حتى استأصل شأفتهم ومحا صفحتهم، وقد أشرنا لذلك فيما سبق.

ولكنّ المغرضين من خصوم الشيعة اتخذوا ذلك وسيلة للتحامل عليهم والوقيعة بهم، ووصفهم بكلّ ما هو شائن. وبمزيد الأسف أن يتأثر بتلك الدعاية كثير من ذوي الثقافة فوقعوا في إثم الاتهام الكاذب، وتلبّسوا بجريمة مخالفة الواقع.

(٢٥١) التوحيد ص ٢٥٣ - ٢٥٤ / ح ٤.

وعلى أيّ حال فقد كان الإمام الصادق يدعو الى الاصلاح بين الناس والتمسّك بتعاليم الدين، والأخذ بمبادئ الإسلام لحياتهم الفردية، والاجتماعية والاقتصادية، ونبذ الآراء المختلفة، وترك الهوى والإنقسام في الدين، والتفرّق فيه، لتتكون وحدة إسلامية تجمع المسلمين تحت راية القرآن. وتعاليم الرسول (صلى الله عليه وآله)، ولتحصل الأُخوة العامة، والمساواة التامة، والتضامن الاجتماعي، وما يقوم عليه من تعاون وتعاطف ، وتراحم وعدل وإحسان، وصدق وصبر، وبر وخير، إذ أنّ الدين الإسلامي قد وضع نظام المعاونة والمساعدة بين أفراده لتحصل بينهم روابط الإلفة والمحبّة، وقد سبق جميع الأمم الى هذا النظام.

كما قد رأينا فيما سبق كيف اعتزل الإمام الصادق (عليه السلام) السياسة، ونهج منهج التماسك، واحتفظ بمكانته العلمية، وهو الشخصية التي كانت الأنظار متجهة إليه، والناس ينظرون إليه نظرة إجلال وإكبار، لما منحه الله تعالى من طهارة النفس، وشرف المحتد، وفضل القربى، وقوّة العقل والإدراك والفقه في الدين، ممّا جعل مدرسته يؤمّها طلاب العلم من مختلف الأقطار، على اختلافهم في النزعات والآراء، فكان يعلّم الجاهل، ويرشد الضال، ويهدي إلى سواء السبيل.

وحسبنا دلالة على ذلك انتماء العلماء المبرزين لمدرسته من الذين أصبحوا رؤساء مذاهب، وأئمّة فرق، وكلّ معترف بفضله ومقرّ بعلمه، ومفتخر بانتمائه لمدرسته. حتى كان أهل العلم الذين سمعوا منه إذا رووا عنه قالوا: أخبرنا العالم[٢٥٢].

سار الإمام الصادق في طريق الدعوة الاصلاحية وترك الجانب السياسي، ولم يزجّ نفسه في المعترك الذي عظم خطره، لأنّه كان يرى أنّ الوقت غير ملائم. ولم يكن له من العدّة والعدد مايستطيع أن يخوض تلك المعركة، فأراد(عليه السلام) أن يخوض معركة علميّة عن طريق التوجيه والإصلاح الاجتماعي، ليهذّب النفوس من نزعات الشرّ والفساد، وقد رأينا كيف كانت دعوته، وكيف أنّه ألزم الدعاة الى العمل بما يدعون إليه، كما عبّر عن ذلك (عليه السلام) بالدعوة الصامتة.

وقد كان أثر هذه الدعوة الى الإصلاح الذي كان ينشده الإمام الصادق (عليه السلام)عظيماً على المنصور، فلم ترق في عينه ولم تقع منه موقعاً حسناً، بل كان يظهر غضبه مرة ويكتمه أُخرى، لأنّه يعتبر إقبال الناس على الإمام الصادق(عليه السلام)،

(٢٥٢) تاريخ ابن واضح ج٣ ص١١٥ .

وانتشار دعوته الى الإصلاح الاجتماعي، منهاج ثورة يستفحل خطرها وليس في إمكانه إخمادها.

لذلك بقي المنصور متخوّفاً من آل علي بصورة عامة ومن الإمام الصادق(عليه السلام)بصورة خاصة، وكان يعبّر عنه «بالشجى المعترض بحلقه» فلم يزل يقلّب وجوه الرأي ويدبّر المكيدة وينصب له حبال الحيل، لكي يقع الإمام الصادق (عليه السلام) في قبضته، فزوّر الكتب وأرسل إليه من يستميله الى الثورة، ولكنّه (عليه السلام) كان أمنع من عقاب الجو، فحلّق بسداد رأيه وصفاء تفكيره، وعلْمه بما وراء الحوادث، فكشف القناع عن تلك الدسائس، وفشل المنصور بما افتعله من تهم ليدين الإمام بذلك، فيأخذه بحجة الخروج على الدولة التي ادعى أنّها دولة شرعية، والخروج عليها خروج على سلطان الله.

ولقد استعمل المنصور تلك الخطط مع زعماء آل علي، فكانت هناك ثورات دموية استطاع المنصور أن يقضي بواسطتها على البقيّة من آل علي، والظفر بهم، وقتلهم بصورة بشعة، بعد أن أذاقهم أنواع الأذى وضروب التنكيل والمحن، وهذا ما كان يخشاه الصادق عليهم عندما أمرهم بالتريّث وعدم الاستجابة للدعاة في الثورة; فلقد كان الإمام الصادق يدفع عن نفسه سيف المنصور بكلّ السبل، ويحذر أن يصدر منه ما يتذرّع به ذلك الطاغية للقضاء عليه، فكان يلحّ عليه بالطلب. ولولا معرفة المنصور ويقينه بأنّه(عليه السلام)كان يتحاشى أن يجعل للسلطان سبيلاً عليه ويحذر ذلك كل الحذر لما كانت استدعاءاته التي قاربت العشرة لاستفزازه وإثارة حفيظته حتى لجأ إلى اساءة الأدب والتطاول عسى أن يبدر من الإمام ما يعتذر به المنصور لقتله، فهذا حال الإمام مع المنصور، وهو على هذا الاحتراز والاحتياط، فكيف يفعل المنصور بمن يشهر السيف؟ وكان المنصور يحجّ ولا يهمّه إلاّ أمر الإمام ووجوده، فرواية الربيع صاحب أبي جعفر: حججت مع أبي جعفر المنصور، فلما صرت في بعض الطريق، قال لي المنصور: يا ربيع إذا نزلت المدينة فاذكر لي جعفربن محمد فوالله العظيم لا يقتله أحد غيري، احذر أن تدع أن تذكّرني به. وفي إحدى المرّات كان المنصور ينتضي سيفه شيئاً فشيئاً وهو يخاطب الإمام الصادق[٢٥٣].

وكانت الدولة العباسية منذ نشأتها الأولى تنتحل وراثة النبي (صلى الله عليه وآله)، وأنّهم أولى الناس بأمر الأمة، وهم الذين يمثّلون الخلافة الراشدة، من العدل في الحكم،

(٢٥٣) مهج الدعوات للسيد ابن طاووس ص ١٨٤، ١٩٤، ١٩٥ .

والاستقامة في الأمر، والمحافظة على الإسلام، لأنّهم حاولوا أن يصبغوا دولتهم بصبغة الدين، وأن يظهروا أمام الناس بمظهر المحافظة على مبادئه، وأنّ سلطانهم هو سلطان الله، ويحكمون بأمره، ويسيرون على هدى الرسول (صلى الله عليه وآله)، فمنحوا أنفسهم ألقاب الحماية عن الدين، وإمامة المسلمين، وأنّهم يسيرون بالعدل، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأنّهم أهل بيت النبي وورثته، إلى غير ذلك من الألفاظ الفارغة التي يحاولون من ورائها الاستئثار بالحكم، وعدم السماح لأيّ أحد أن يصيح في وجوههم مطالباً بحقّ، أو يرفع صوته استنكاراً لسوء السيرة التي ساروا عليها في حكمهم، لأنّهم يريدون أن يبقى الناس مسخّرين لإرادتهم، وأداة طيّعة لهم، إذ يزعمون أنّ الله أوجب حقّهم وأنّ سلطانهم هو سلطان الله، وأنّهم جاءوا لخير الناس ولا يعملون إلاّ الصالح، ويتجنّبون الضار.

فالخليفة عندهم ليس ملكاً على دولة سياسية فقط، بل هو ملك على دولة دينية تحيط به رسوم دينية، ويريد أن يعتبر إماماً للمسلمين، وأنّه خليفة رسول الله(صلى الله عليه وآله) في قيادة الأمة قيادة روحية، وأنّ الله منحه منزلة خاصة، فبينما كان الأمويون يتقلّدون الصولجان ويلبسون الخاتم رمزاً على الحكم، وعلى أنّهم ورثوا ذلك عن أسلافهم، ترى العباسيين يتقلّدون البردة، التي كان الرسول(صلى الله عليه وآله)منحها لكعب بن زهير [٢٥٤] عندما مدحه بقصيدة «بانت سعاد» وكان الخليفة العباسي الأوّل هو أوّل من سن هذا التقليد، ثم ورثها الخلفاء من بعده، فكانوا يلبسون هذه البردة في حفلات البيعة وغيرها، حتى في الحفلات الحربية، وكثيراً ما كانوا يلبسونها في صلاة الجماعة.

يقول هلال الصّابي عند كلامه عن جلوس الخلفاء وما يلبسونه في المواكب الذي جرت به العادة : إنّ جلوس الخليفة على كرسيّ مرتفع، ويكون لباسه السواد، ويجعل على رأسه عمامة سوداء رصافية، ويتقلد سيف النبي(صلى الله عليه وآله)ويلبس خفّاً أحمر ويضع بين يديه مصحف عثمان (رحمه الله) الموجود في الخزائن، وعلى كتفيه بردة النبي(صلى الله عليه وآله) .[٢٥٥]

وبهذه الصفة والمظاهر الخلاّبة استطاعوا التأثير على مشاعر الكثير من الناس، لينظروا إليهم نظرة التقديس والاعتقاد بأنّهم ورثة النبي (صلى الله عليه وآله) وهم أحقّ

(٢٥٤) أسد الغابة ج ٤ ص ٥٠١ الرقم ٤٤٥٥.
(٢٥٥) نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي ص ١٩٣.

بالأمر، وهنا يعتبر كلّ من أنكر أعمالهم أو خرج عليهم خارجاً على المسلمين، متعدّياً لحدود الله.

وسرى هذا الاعتقاد في نفوس البسطاء منذ نشأة الدولة. يحدّثنا الطبري أنّ وفداً دخل على أبي العباس السفاح يقدمهم غيلان بن عبد الله الخزاعي، فقال للسفاح : أشهد أنّك أمير المؤمنين وأنّك حبل الله المتين، وأنّك إمام المتقين. فقال السفاح: حاجتك ياغيلان. قال: استغفرك. قال السفاح: غفر الله لك.[٢٥٦]

والواقع أنّ نجاح العباسيين في مهمة هذه الادعاءات كان بحاجة الى بذل الجهد، وإلى دعاية قويّة، لتركيز هذه العقيدة، ووضع كثير من الأساطير حولها، وادعاء البشارة بالدولة الجديدة التي تكفل للناس سعادتهم، وتقضي على الشقاء الذي عاناه الناس في العهد الأموي، وقد قام علماء الدولة ـ وهم الذين تمكّن الضعف من نفوسهم وأخذ الطمع بزمام عقولهم ـ بنشر تلك الدعوة الكاذبة، وحياكة الأساطير وخلق الأحاديث، حتى استمرّ الاعتقاد يعمل عمله في نفوس كثير من الناس، فأصبح من لا يؤمن بشرعيّة السلطان العبّاسي زنديقاً، وهذا ما نعبّر عنه بالزندقة السياسية التي وسم بها كثير من الناس الذين استنكروا على العباسيين سوء سيرتهم، وأدركوا على مرور الأيام وتكرر الحوادث زيف ما يدّعونه من العدل الشامل والحكم العادل، وأنّهم ورثة النبي وأهل بيته، وهم أحقّ الناس بالأمر وأولاهم بالحكم، فكان المنكرون لتلك الأوضاع يتهمون بالزندقة ويكون نصيبهم القتل، لأنّهم عارضوا سلطان الله وخليفة رسوله، مع تظاهره بما يخالف ذلك، وأنّهم أبعد ما يكون عن اتباع أوامر الإسلام، ففي عهد السفاح سُفِكت دماء بريئة وهُدِمت قرى آمنة، واستُبيحت حرمات وهُتِكت أعراض.

وكان القوّاد يستعملون مادة الفناء والإبادة اتباعاً لأمر الخليفة العباسي، وهي من اتهمته فاقتله [٢٥٧] ولما ولي يحيى بن محمد العباسي على الموصل من قبل أخيه السفاح، بعد أن أنكروا أعمال عامله السابق وهو محمد بن صول، فلما دخل يحيى بلد الموصل لم يظهر لأهله شيئاً ينكرونه، ولم يعترضهم فيما يفعلونه، ثم دعاهم فقتل منهم اثني عشر رجلاً، فنفر أهل البلد وحملوا السلاح فأعطاهم الأمان، وأمر فنودي من دخل الجامع فهو آمن، فأتاه الناس يهرعون إليه، فأقام يحيى الرجال على أبواب الجامع فقتلوا الناس قتلاً ذريعاً أسرفوا فيه، فقيل إنّه قتل عشرين ألفاً ممّن لهم خواتيم،

(٢٥٦) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٦٢ .
(٢٥٧) تاريخ الطبري ج ٩ ص ١٤٢، حوادث سنة ١٣٢ هـ .

فلما كان الليل سمع يحيى صراخ النساء اللاتي قتل رجالهن فسأل عن ذلك فأخبر به، فقال: إذا كان الغد فاقتلوا النساء والصبيان. ففعلوا ذلك واستباح الزنوج نساء البلد، فلما فرغ يحيى من قتل أهل الموصل ركب في اليوم الرابع وبين يديه الحراب والسيوف المسلولة، فاعترضته امرأة وأخذت بعنان دابته فأراد أصحابه قتلها فنهاهم عن ذلك فقالت له: ألست ابن عم رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟ أما تأنف للعربيات المسلمات!. فأمسك عن جوابها وسيّر معها من يبلغها مأمنها، فلما كان من الغد جمع الزنوج للعطاء وكان عددهم أربعة آلاف فأمر بهم فقتلوا عن آخرهم[٢٥٨]، إلى غير ذلك من الأمور التي جرت في عهده على قلة أيّامه.

أمّا في عهد المنصور فكان الأمر أدهى وأمرّ، فقد واجه الناس في عهده ألواناً من الظلم، ممّا لا عهد لهم به من قبل، كما صبّ جام نقمته على العلويين، فعاملهم معاملة لم يشهد التاريخ مثلها، وطاردهم وضيّق عليهم الدنيا، وأذاقهم أنواع الأذى وضروب المحن، فلم يرحم كبيراً ولم يعطف على صغير، ولم ينكسر لصوت ثاكل ونياح امرأة.

ومع هذا كلّه فقد كان يسبغ على أعماله أبراد القداسة، وينتحل السلطان الشرعي، وأنّ ما يفعله بإرادة الله وإذنه، فقد صرّح بذلك على المنبر في عدّة مواطن، وكما جاء في بعض خطبه يوم عرفة بقوله:

«أيها الناس، إنّما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده، وأنا خازنه على فيئه أعمل بمشيئته، وأعطيكم بإذنه، فقد جعلني الله عليه قفلاً، إذا شاء أن يفتحني لأعطياتكم وقسم فيئكم فتحني، وإذا شاء أن يقفلني أقفلني، فارغبوا الى الله أيّها الناس، وسلوه في هذا اليوم الشريف أن يوفّقني للصواب، ويسدّدني للرشاد، ويلهمني الرأفة فيكم، والإحسان إليكم».[٢٥٩]

فأنت ترى أنّ المنصور يحاول أن يوجّه الناس الى الاعتقاد بشخصيته، اعتقاداً يجعلهم يؤمنون بصحة أعماله، لأنّها تصدر بمشيئة الله، إذ جعله والياً للأمر، حاكماً للأمة، ليركز بذلك عرشه الذي بات يضطرب فوق تيارات المؤاخذات، بل الثورات المتلاحقة، لسوء سيرته التي لا تتناسب مع واقع ادّعائه، ومع علمه بأنّ قلوب أكثر الناس مع أهل البيت (عليهم السلام)، كما أزعجه موقف الإمام الصادق وانتشار ذكره.

(٢٥٨) الكامل لابن الاثير ج ٥ ص ٢١٢، حوادث سنة ١٣٥ هـ .

(٢٥٩) تاريخ الطبري ج ٩ ص٣١٠، الكامل لابن الأثير ج ٦ ص ١٢ .

ويمكننا أن نعتبر ما يصدر منه من تقريب العلماء والتظاهر بالزهد، والإصغاء للوعظ، إنّما هي أساليب يستعين بها على تحقيق أهدافه، وليجعل في شخصيّته ثقة للناس الذين تخدعهم المظاهر، وتسحرهم الألفاظ، كما يحاول أن يهدم ثقة الناس بمن هو أولى به من أهل البيت(عليهم السلام).

فنراه يصغي لوعظ عمرو بن عبيد، ويبكي أمامه من خشية الله كأنه لم يرتكب جريمة، خشية من الله وخوفاً من عقابه. ويحاول أن يؤثر على عمرو بن عبيد فلا يميل الى ما يدعوه محمد بن عبدالله، الثائر الذي هزّت ثورته أركان سلطانه وجعلت المنصور لا يهدأ ليلاً ولا نهاراً. فقد بلغه أنّ محمد بن عبد الله، ذا النفس الزكية، كتب الى عمرو بن عبيد - رئيس المعتزلة - يستميله، فضاق المنصور بذلك ذرعاً وأرسل الى عمرو بن عبيد، فلما وصله أكرمه وشرّفه، وقال: بلغني أن محمد بن عبد الله كتب إليك كتاباً، قال عمرو: قد جاءني كتاب يشبه أن يكون كتابه، فقال المنصور: فبم أجبته؟

قال عمرو: لم أجبه الى ما أراد. ثم قال المنصور لعمرو : عظنا يا أبا عثمان.

فقال عمرو: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (**بسم الله الرحمن الرحيم ألَم تَرَ كَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بعاد* إرَمَ ذاتِ العِمَاد...**)[٢٦٠] إلى آخرها.

فبكى المنصور بكاءً شديداً كأنّه لم يسمع تلك الآيات إلاّ الساعة.

ثم قال عمرو: اتّق الله قد أعطاك الدنيا بأسرها، فافتد نفسك ببعضها، واعلم أن الأمر الذي صار إليك إنّما كان بيد غيرك ممّن كان قبلك، ثم أفضى إليك الخ .

فعاد المنصور الى بكائه حتى كادت نفسه تفيض.[٢٦١]

هكذا أظهر المنصور نفسه أمام رجل من العلماء وزعيم من زعماء الطوائف بمظهر السلطان الخائف من الله، الباكي من خشيته، لتنطبع في ذهنه صورة عن إمام المسلمين، فيبلغها أصحابه حتى تبرد عزائمهم عن مؤاخذته ، والإنكار على أعماله، وقد نجحت حيلة المنصور; فلم يلتحق عمرو بثورة النفس الزكية، كما أنّ المعتزلة لم يخرجوا عليه ولم يستنكروا أعماله حتى مات عمرو بن عبيد.

وعلى أيّ حال فالمنصور لم يزل يقلّب وجوه الرأي، ويدبّر الحيل في القضاء على الإمام الصادق (عليه السلام)، ولا تروق له تلك الشهرة العلمية التي اكتسبتها مدرسته، ولذلك حاول أن يحصر الفتوى بمالك بن أنس عندما رفع منزلته، ونوه باسمه ونادى

(٢٦٠) الفجر: ٦ و ٧ .

(٢٦١) حور العين لأحمد بن فارس ص ٢١٠.

مناديه «أن لا يفتين إلاّ مالك» كما طلب من مالك أن يضع كتاباً يكون هو المرجع في الفقه رسميّاً، فلا يمكن الرجوع لغيره، أو الأخذ عن أحد سواه.[٢٦٢]

وإنّما خصّ مالكاً بذلك دون غيره من علماء المدينة، لعلمه بانحرافه عن آل علي (عليه السلام)، وأنّ نزعته نزعة أموية.

واستمر المنصور في تقديم العلماء ليسند عرشه، الذي أصبح مهدّداً من خطر الدعوة لأهل البيت(عليهم السلام)، وعدم الاعتراف له بأهليّة الخلافة، لما اتّصف به من العسف والجور، ومخالفة أحكام الإسلام.

وقد اشتهرت كلمة الإمام الصادق عندما سئل عمن يصلح للخلافة فأجاب (عليه السلام) :

«إنّ الإمامة لا تصلح إلاّ لرجل فيه ثلاث خصال: ورع يحجزه عن المحارم، وحلم يملك به غضبه، وحسن الخلافة على من ولي، حتى يكون له كالوالد الرحيم».[٢٦٣]

وهذه الكلمة تجرّد المنصور من أهليّة الخلافة، لعدم إتصافه بواحدة منها، فلا يمكن الاعتراف له بذلك.

كما أنّه (عليه السلام) منع الناس من الترافع الى الحكام ووصفهم بأنّهم حكام جور وأئمّة ضلال، فحكمهم غير نافذ، وطاعتهم غير لازمة، وأنّ الركون إليهم، والعمل لهم ضياع للحقّ ومعاونة على الظلم .[٢٦٤]

وكان يؤنّب أصحابه الذين يتعاملون مع رجال الدولة وينهاهم عن ذلك، قال لعذافر: **«بلغني إنك تعامل أبا أيوب والربيع**[٢٦٥] **فما حالك إذا نودي بك في أعوان الظلمة»؟.**

ونهى عن العمل لهم حتى في بناء المساجد وكراية الأنهر، وعندما سئل عن ذلك أجاب بقوله: ما أحبّ أن أعقد لهم عقدة، أو وكيت لهم وكاء .[٢٦٦]

ويقول (عليه السلام) : **«العامل بالظلم والمعين له والراضي به شركاء».**[٢٦٧]

(٢٦٢) سير أعلام النبلاء ج ٧ ص ٣٨٢ الرقم ١١٨٠.

(٢٦٣) بحار الأنوار ج ٢٥ ص ١٣٧ ح ٦ .

(٢٦٤) وسائل الشيعة ج ٢٧ ص ١١، ب ١ من أبواب صفات القاضي.

(٢٦٥) أبو أيوب هو سليمان بن مخلد كاتب المنصور والمقرب عنده، ثم قلّده الدواوين والوزارة وأصبحت له عند المنصور منزلة عظيمة دون سائر الناس، حتى قالت العامة أنّه قد سحر أبا جعفر، وبعد ذلك غضب عليه ونكبه وصادر أمواله، وذلك في سنة (١٥٣ هـ) .

أما الربيع بن يونس: فهو الربيع بن يونس بن أبي فروة مولى كيسان، كان من أعيان الدولة، وتولّى نفقات المنصور، ثم قلّده الوزارة وقلّد ابنه الفضل بن الربيع الحجابة.

(٢٦٦) الكافي ج٥ ص ١٠٧ ح٧.

(٢٦٧) الكافي ج ٢ ص ٢٥٠ ح ١٦ .

ويقول (عليه السلام): **«من أعان ظالماً على مظلوم لم يزل الله عليه ساخطاً حتى ينزع عن معونته».**[٢٦٨]

ولم يهن على الدولة كلّ هذه الأُمور التي تقف في سبيل تحقيق أهدافها، كما عظم عليها اختصاص مدرسة الإمام بطابع الانفصال عن الدولة، فلم يمكنهم التدخل في شؤونها، أو تكون لهم يد في توجيهها، وتطبيق نظامها، ولم تكن بينها وبين الدولة رابطة من روابط الإلفة والانسجام، ومعنى ذلك عدم الاعتراف بشرعية الدولة، وأنّها دولة جائرة لا يمكن الركون إليها، وإن تظاهر الحكام بالمحافظة على المبادئ الإسلامية، فتلك أُمور سياسية لا واقع لها في نفس الواقع.

وكما قدّمنا بأنّ الصراع بين مدرسة الإمام وبين الدولة يشتدّ على ممرّ الأيام، وقد اتخذت أنواع الأساليب، واستعملت شتى الحيل لإخضاع تلك المدرسة لأوامر الدولة، والسير في ركابها، فلم تنجح الوسائل ولم تنفع الأساليب. وهكذا يستمر هذا الصراع عبر الدهور، ومدرسة الإمام الصادق(عليه السلام)عرضة لأخطار النقمة، وهدفاً لسهام الاتهام، وقد رمي المنتمون إليها بالزندقة والإلحاد والخروج على سلطان الله، وذلك طبقاً لمنطق السياسة.

ولعلّ الرجوع الى ما كتبناه سابقاً عن هذا الصراع، يغني عن الاسهاب في ذلك، فإنّا قد ذكرنا هناك عوامل انتشار المذاهب، ومقومات شخصيات رؤسائها، وإنّ العامل الوحيد هو قوة السلطان ومناصرة الدولة، كما أشرنا إليه في البحث عن عوامل المذهب الحنفي، والمالكي، والشافعي. والآن نشرع في ذكر المذهب الرابع، وهو الحنبلي. فلننتقل بك أيها القارئ الكريم الى دراسة صحيحة عن حياة رئيس المذهب الحنبلي - الإمام أحمد بن حنبل - لنرى على ضوء المعلومات التاريخية، مقومات شخصيته، وعوامل انتشار مذهبه، والله المسدّد للصواب.

(٢٦٨) عقاب الأعمال للصدوق ص ٣٢٣ ح ١٧.

الإمام أحمد بن حنبل
نسبُه ونشأتُهُ

الإمام أحمد بن حنبل نسبُه ونشأتُهُ

تمهيد

نحن الآن مع الإمام أحمد بن حنبل، الإمام الرابع من أئمة المذاهب الإسلامية، وقد حاولنا قدر الجهد والإمكان التعرّف على كلّ واحد من أئمة المذاهب الأربعة، في دراسة مجرّدة عن التحيّز، كما أهملنا الكثير من الزوائد التي لا نلمس من ورائها شيئاً جوهرياً عن شخصيّة كل واحد منها، فهناك كثير من الأساطير التي وضعت في ظروف خاصة، حول تكوين تلك الشخصية، وإبرازها في اطار الإعجاب، والخروج عن حدود الواقع.

وقد ظهر لنا فيما سبق أسباب إيجاد تلك الأمور، كما وقفنا على عوامل انتشار مذاهبهم، دون غيرهم، ولنا فيما سبق من البحث في الأجزاء السابقة كفاية عن الإطالة، وقد بقيت أمور تتعلق في البحث عنهم ستأتي في الأجزاء القادمة إن شاء الله.

أمّا الإمام أحمد فإنّ دراسة حياته لا تخلو من الأساطير والحكايات والأطياف، التي جعلت في جدول تكوين شخصيته، ممّا لا تتفق مع الواقع، ولا يمكن قبولها من دون تمحيص، ولا بدّ لنا من الوقوف على الحقيقة من طريق البحث العلمي، لا التخمين والوهم.

كما أنّ هناك آراء وعقائد نسبها الحنابلة الى أحمد بن حنبل، وهي بعيدة عن الاعتقاد الصحيح، وقد عدّ هذا من ابتلاء أحمد في أصحابه، لأنّ نسبتها إليه مما يثير الشك والريبة في أمره.

وفي عصر أحمد ماجت المدن الإسلامية بعناصر مختلفة، من أمم متباينة الأرومة، وترجمت العلوم الفلسفية من اللغة السريانية واليونانية وغيرهما، وامتزجت مدنيّات وتصادمت حضارات.

ومن طبيعة العصر الذي تكثر فيه المنازعات، ويضطرم باحتكاك المدنيات المختلفة بعضها ببعض، أن تظهر فيه آراء وأخلاق منحرفة، ويكثر الشذوذ الفكري والشذوذ الاجتماعي، حتى يصبح الشاذ هو الكثير، والغريب هو المألوف.

فالبحث عن شخصية علمية عاشت في ذلك العصر، المائج بالاختلاف وشذوذ الآراء، لا بدّ من أن يتصف بصعوبة أمام الباحث الذي يتجرّد عن العاطفة، والغلوّ والتحيّز.

ونحن الآن ندرس حياة الإمام أحمد على ضوء الواقع، تاركين وراءنا كثيراً من زوائد المغالين، لأنها لا تكشف عن ناحية من نواحي تلك الشخصية التي يتطلّبها البحث المتجرّد عن العاطفة.

نسبه

هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن حيان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة ابن صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن قصي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار.

هكذا ساق ابن الجوزي هذا النسب في مناقب أحمد [٢٦٩] وكذلك ذكره القاضي ابن أبي يعلى في الطبقات .[٢٧٠]

وقد اختلف في مازن بن ذهل بن شيبان، فبعضهم يقول: مازن بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة. وبعضهم يقول: مازن بن شيبان بن ثعلبة، ولا يهمّنا هذا الاختلاف فقد ورد نسبه بهذه الصورة، ولكن المهم في ذكر هذا النسب على طوله، والاختلاف فيه، أنّه جعل من مناقب أحمد ومن مؤهلاته العلمية.

يقول ابن رجب بعد ذكر هذه السلسلة: وهذا النسب فيه منقبة عميمة، ورتبة من وجهين:

أحدهما حيث تلاقى في نسب رسول الله (صلى الله عليه وآله): لأنّ نزاراً - وهو الجدّ السابع والعشرين لأحمد - كان له ابنان أحدهما مضر ونبينا من ولده والآخر ربيعة وإمامنا أحمد من ولده.

والوجه الثاني أنّه عربيّ صحيح النسب، وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): **أحبّ العرب لثلاث: لأني عربي، والقرآن عربي، ولسان أهل الجنة عربي.**[٢٧١]

فهذا النسب على ماذكروه هو أول مناقب أحمد، لأنّ الاتصال برسول الله (صلى الله عليه وآله)وإن بعدت الواسطة، واتسعت الدائرة، هو منقبة عظيمة، ولعلّ ذلك هو أحد

(٢٦٩) المناقب لابن الجوزي ص ١٦.

(٢٧٠) طبقات الحنابلة ج ١ ص ٤.

(٢٧١) الموضوعات لابن الجوزي ج ٢ ص ٤١.

المرجّحات عندهم لمذهبه، ولزوم اتباعه، ونحن لاننكر أنّ الاتصال برسول الله (صلى الله عليه وآله) شرف عظيم، ولكنّنا نستغرب هذا التمحّل في الاستدلال والتكلّف في الإثبات، لأنّ هذا أمر لا يختص به أحمد بن حنبل، فهو شامل لملايين من البشر، فلا يمكن جعله مرجحاً لمذهبه وعدّه في مناقبه.

وأما الوجه الثاني وهو كونه عربياً ليكون الحديث المذكور كالبشارة بأحمد ولزوم محبته، مع أنّ هذا الحديث قد نصّ كثير من الحفاظ على وضعه [٢٧٢]، ومع صحته فليس من الصحيح الاستدلال به، وجعله من مقوّمات شخصية الإمام أحمد.

ولادته ونشأته

ولد أحمد في المشهور في ربيع الأول من سنة (١٦٤) من الهجرة النبوية، وقد ذكر ذلك ابنه صالح وحكاه ابنه عبد الله أيضاً، قال: سمعت أبي يقول: ولدت في شهر ربيع الأول سنة أربع وستين; وذلك في عهد المهدي. واختلفت الروايات في محل ولادته، فقيل إنه ولد ببغدد، إذ جاءت به أُمه حملاً من مرو، وقيل إنها ولدته في مرو، والأوّل أشهر كما تضافرت الروايات في ذلك، وقد روي عنه أنّه قال: قدمت بي أُمي حملاً من خراسان، وولدت سنة (١٦٤ هـ).

وفي رواية أُخرى، أنّه قال: قدم بي من خراسان وأنا حمل، ولم أر جدّي ولا أبي.[٢٧٣]

وروى صالح العجلي عن أبيه: أنّ أحمد بن حنبل سدوسي بصري، من أهل خراسان، ولد ببغداد ونشأ بها.

وقول العجلي أنّه بصري: لأنّ شيبان كانت منازلها بالبصرة وباديتها، وكان أحمد إذا جاء الى البصرة صلى في مسجد مازن، وهم من بني شيبان، فقيل له في ذلك فقال: مسجد آبائي .[٢٧٤]

أما أُمّه فيقال: أنّها شيبانية أيضاً، واسمها صفية بنت ميمونة بنت عبد الملك الشيباني، وقيل إنّها ليست بشيبانية.[٢٧٥]

(٢٧٢) اللآلي المصنوعة ج ١ م ٤٠٤ .
(٢٧٣) أحمد بن حنبل، لمحمد أبو زهرة ص ١٨.
(٢٧٤) المناقب لابن الجوزي ص ٢١.
(٢٧٥) أنظر مناقب أحمد بن حنبل لابن الجوزي ص ١٦ - ٢٠.

وعلى الجملة فقد نشأ أحمد يتيماً في حجر أمّه، وهي التي تولّت تربيته، لأنّها دخلت به بغداد حملاً فولدته، وليس له كافل غيرها، وما يقال: من أنّه كان يعيش على عقار أبيه في بغداد [٢٧٦]، فهو قول بغير مستند.

ولا نعلم هل أنّ عمه تولى شؤونه لأنّه كان حيّاً عندما قدمت أم أحمد من خراسان، وكان عمله إيصال الأخبار الى الولاة بأحوال بغداد، ليعلم بها الخليفة إذا كان غائبا عنها؟ وكان أحمد يتورّع عن حملها، وإيصالها الى الولاة.

ونشأ أحمد ببغداد وتربّى بها تربيته الأولى، وكانت بغداد حاضرة العالم الإسلامي، وعاصمة دولته، وهي تموج بأناس اختلفت مشاربهم، وتخالفت مآربهم، وزخرت بأنواع المعارف والفنون، وكانت تموج برجال العلم وحملة الحديث، ففيها القرّاء والفقهاء والمتصوفة، وعلماء اللغة، والفلاسفة، والمحدثون، وقد توجه الى علم الحديث، بعد أن قرأ القرآن وتعلّم اللغة والكتابة، ولقد قال هو في ذلك: كنت وأنا غلام أختلف الى الكتاب، ثم اختلفت الى الديوان وأنا ابن عشر سنين.[٢٧٧]

ثم إتّجه الى طلب العلم وهو ابن خمس عشرة سنة، وبعد ذلك رحل الى الأقطار، وكتب عن شيوخها وأخذ عن الشافعي واتّصل به اتصالاً وثيقاً، وقويت بينهم عرى المودّة، ولازمه مدّة إقامته في بغداد، وكان يعترف للشافعي بعلوّ المنزلة ويقول : ما من أحد مسّ بيده محبرة وقلماً إلاّ وللشافعي في عنقه منه. وقال: إنّه لم يبت مدة ثلاثين سنة إلاّ ويدعو الله للشافعي ويستغفر له.

وكان أوّل تلقّيه العلم على القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة المتوفى سنة (١٨٢ هـ) فقد قال : أوّل من كتبت عنه الحديث أبو يوسف .[٢٧٨]

وابتدأ رحلاته لتلقي الحديث في سنة ١٨٦ هـ ، فرحل الى الحجاز، والبصرة واليمن، والكوفة وكان يودّ أن يرحل الى الري ليستمع إلى جرير بن عبد الحميد، ولم يكن قد رآه في بغداد، ولكن أقعده عن الرحلة إليه عظيم النفقة عليه في هذا السبيل، وكان يقول [٢٧٩] : لو كان عندي تسعون درهماً; لخرجت إلى جرير بن عبد الحميد، لأنّه كان في ضنك عيش، يتحمل في سبيل ذلك المتاعب ،إذ لم يكن له كافل من أسرته، كما تقدّم بيانه. كما أنّه لم يتمكن من الرحلة الى الشافعي في مصر إذ وعده بذلك.

(٢٧٦) ابن حنبل لمحمد أبو زهرة ص ٧٣ - ٧٤ .
(٢٧٧) أحمد بن حنبل لمحمد ابو زهرة ص ٢١.
(٢٧٨) المناقب لابن الجوزي ص ٢٢ .
(٢٧٩) أحمد بن حنبل لمحمد ابو زهرة ص ٢٨ .

نبوغه وشهرته

ونبغ أحمد في مجتمعه وعُرف بين أقرانه، ولكن شهرته لم تكن تبلغ حدّها الذي بلغت إليه في آخر حياته إلاّ بعد وقوع المحنة، فهو في ذلك المجتمع الذي كان يزخر برجال العلم وحملة الحديث لم يكن مبرزاً، أو له شهرة تفوق غيره، لذلك لم يكن في أول الأمر معدوداً في قائمة الرجال من أهل العلم الذين تهتم الدولة في مواقفهم بمشكلة خلق القرآن، أو يسوؤها مخالفتهم، فقد جاء في كتاب المأمون الأوّل ذكر جماعة من العلماء، ولم يكن أحمد فيهم، ولكنّه ورد بعد ذلك.

ومهما يكن من أثر الأسباب في شهرة أحمد، فإنّ ذلك لا يتعدّى حدود صموده في الامتناع عن القول بخلق القرآن، وكما سيأتي أنه لم يكن الوحيد في ذلك، فإنّ جماعة من العلماء، قد وقفوا موقفاً مشهوداً، وقد تحمّلوا في سبيل ذلك الأذى، وقد تجرّعوا الغصص، وكانت خاتمة المطاف أن لقوا حتفهم في السجون، وتحت ضرب السياط وحد السيوف.

وبطبيعة الحال أن يكون ذلك الصراع العقائدي، قد فسح المجال لمعرفة الأشخاص الذين يبرزون في هذا الميدان، ومن حسن الحظ أن يبقى أحمد إلى عهد المتوكل، الذي غيّر مجرى الحوادث بمحاولته جلب الرأي العام الذي كان مستاءً من تصرفات المعتزلة، وشدّة سطوتهم، وتنكيلهم بمن يخالف عقيدتهم، فكان انتصار المتوكل للمحدثين قد أحدث انقلاباً في سياسة الدولة وتوجيه الرأي العام، فانهزم المعتزلة، وانتصر المحدثون، وسطع نجم أحمد في ذلك الأفق المتلبّد بسحب الخلافات والمنازعات العقائدية، واتجه الرأي العام الى تعظيمه، والالتفاف حوله، وقد أبدى المتوكل عنايته التامة في احترام أحمد وتعظيمه، وأصبحت له منزلة سامية، وظهر أتباعه بمظهر العظمة. كما ظهر المتوكل بمظهر محيي السُنة وراحوا يمجّدون عرشه ويبالغون في مدحه ولم يقصر هو في رعايتهم والاعتماد عليهم فبدأت موجة من الكبت والاضطهادات كانت ردّ فعل لما وقع فيه المعتزلة الذين كانوا يدعون الى حرية الرأي واحترام العقل، لكن السلطة عدلت بهم الى السياسة التي كانوا يستنكرونها وكان بطل هذا الدور القاضي أحمد بن أبي داود.

وكان المتوكل يصل أحمد بصلات سنية، ويعطف عليه، وعيّن له في كلّ شهر أربعة آلاف درهم [٢٨٠] وطلبه إلى سامراء ليتبرك برؤياه، وينتفع بعلمه فامتنع أحمد، ولكنّه أجبر على الموافقة.

وكان الأمراء يدخلون عليه ويبلغونه سلام الخليفة، ولا يدخلون عليه حتى ينزعو ما عليهم من الزينة، وقد بلغ من تقدير المتوكل لأحمد واحترامه أنه أصبح لا يسمع عليه وشاية، ولا يصغي لقول خصم فيه، إلاّ الاتهام بالميل للعلويين، فإنّ المتوكل كان يأخذ في ذلك على الظنّة والتهمة، وقد تمكّن الوشاة بأن يبلغوا المتوكل عن أحمد بالميل للعلويين، وأنّه يبايع لرجل منهم سراً، فكبست داره وفتشت أدق تفتيش [٢٨١]. فلم يجدوا مايدلّ على ذلك.

وبهذا برأت ساحته من هذه التهمة، التي كادت أن تطيح بكيانه، وتعود عليه بالعذاب والنكال، شأنه شأن غيره من العلماء، الذين أُخذوا بهذا الاتهام، الذي ليس من ورائه إلاّ القتل بدون رحمة.

صلته بالمتوكّل

وكان المتوكل يوصي الأمراء باحترام أحمد وتقديره، ولما مرض أحمد كان المتوكل يبعث إليه برسله يستعلم أخباره، ويسأل عن حاله، ولما مات اهتم أمير البلد بأمره، وتولّت رجال الدولة القيام بواجب تجهيزه، وحضر من بني العباس نحو مائة رجل مع سائر القواد والأعيان والوزراء فكان يوماً مشهوداً.

والذي يظهر من سيرة أحمد أنّه كان منكمشاً من المتوكل غير مرتاح الى مودته، فهو لايقبل هديته إلاّ خوفاً، ويقال: أنّه كان يفرّقها سراً على المحتاجين، ولا يجلس على بساطه ولم يظهر عليه ذلك أو يتظاهر بالمخالفة، ولكنه كان يذهب الى صحة خلافته وإمامته ولزوم طاعته.

لم تكن عناية المتوكل هذه بالإمام أحمد لدافع ديني فهو أبعد الناس عن تعاليم الدين، ولكنها أمور سياسية دعت لذلك، وظروف خاصة اقتضت إظهار هذه المودة، لأنّ العامة أصبح لهم تعلق بشخصية أحمد، الأمر الذي جعل الدولة تلحظ ذلك، وتقيم له وزناً، كما أنّه كان يساير الدولة.

(٢٨٠) تاريخ ابن كثير ج ١٠ ص ٢٣٩ .
(٢٨١) مناقب أحمد لابن الجوزي ص ٣٦ .

ولقد كانت سياسة الدولة العباسية أبّان قوتها تؤكد طابعها الديني، فقرّبت إليها العلماء والفقهاء، والمشتغلين بالعلوم الإسلامية، وكانت ترقب أيضاً حركات فريق منهم، ممن يؤدي اشتهارهم بالعلم والورع الى تعلّق الجماهير بهم، إذ قد يؤثر ذلك في مركز الخلفاء، وقد يزعزع ولاء المسلمين لهم، فكان الخلفاء يهتمّون بما يجري في حلقات الفقهاء والمحدّثين، ويراقبون من يتعرض منهم بالنقد للنظام القائم وقد يبطشون به، كما رأينا في إهتمام المنصور بأمر الإمام الصادق (عليه السلام)، ومحاولة القضاء عليه عندما وقف (عليه السلام)موقف المعارضة لحكمهم، ووصفهم بحكام جور، وأئمّة ضلال، وأمر بمقاطعتهم والابتعاد عنهم.

وكذلك فعل الرشيد مع الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام)، فقد اهتم بأمره وسجنه وعذّبه، حتى مات في السجن مسموماً.

وقد رأينا ما لقيه أحمد نفسه من تعذيب وتنكيل عندما خالف رأي الدولة، وأنّه أُمتحن ونكل به، كما ستقف عليه قريباً، وبعد أن اتحد الرأي وتغيّر الوضع، فلم يكن من أمر أحمد ما يخشى منه على الدولة، بل كان يؤيد موقفها ويشدّ أزرها، فقد جاء في إحدى رسائله: والسمع والطاعة للأئمة، وأمير المؤمنين، البر والفاجر، ومن ولي الخلافة فاجتمع الناس عليه، ورضوا به ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة، وسمي أمير المؤمنين، والغزو ماض مع الأمراء الى يوم القيامة، البر والفاجر، وقسمة الفيء، وإقامة الحدود الى الأئمة ماض ليس لأحد أن يطعن عليهم ولا ينازعهم، ودفع الصدقات إليهم جائزة نافذة، من دفعها إليهم أُجزأت عنه، براً كان أو فاجراً، وصلاة الجمعة خلفه، وخلف كلّ من ولي جائزة إمامته، ومن أعادها فهو مبتدع تارك للآثار، مخالف للسنة، ليس له من فضل الجماعة شيء، إذ لم ير الصلاة خلف الأئمة من كانوا، برهم وفاجرهم، فالسنة أن تصلي معهم ركعتين، وتدين بأنّها تامة، لايكن في صدرك شك، ومن خرج على إمام من أئمة المسلمين، وقد كان الناس اجتمعوا عليه، وأقرّوا له بالخلافة بأيّ وجه كان بالرضا أو الغلبة; فقد شقّ عصى المسلمين، وخالف الآثار عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) فإن مات الخارج عليه مات ميتة جاهلية.(٢٨٢)

فأقوال أحمد ناطقة نطقاً صريحاً، بأنّه يرى لزوم الطاعة لمن يتولى الأمر، لا فرق بين البر والفاجر، فطاعة الكلّ لازمة حتى في أمر محض للمعصية، ولكن يؤخذ من أفعاله الخاصة، كما أسندوا إليه ذلك، أنّه لا يرى الطاعة في المعصية. أما أقواله فهي عامة لا تخصيص فيها، ولم يكن له موقف معارضة أو دعوة الى مخالفة.

(٢٨٢) مناقب أحمد لابن الجوزي ص ٧٥ ـ ٧٦ .

ويقول محمد أبو زهرة: لم يؤثر عنه أنه عمد الى دعوة الأمراء والحكام الى الامتناع عن الظلم والى توجيههم الى إقامة السنة، بل كان موقفه سلبياً، لايسايرهم فيما هم فيه، ولا يدعوهم بالقول الى غيره، فهل كان ناشئاً من أنّه كان يمتنع عن الخوض في السياسة، ومعالجة شؤونها، وترك الأمر والدعوة الى السياسة الصالحة للصالحين من أهل الخبرة فيها؟[٢٨٣]

وقد عرض القضاء على أحمد بن حنبل فرفض قبوله، وذلك أن الشافعي رشّحه للقضاء في اليمن عندما سافر أحمد إليها، للاستماع من عبد الرزاق بن همام، وكان الشافعي هناك يتولّى بعض وظائف الدولة، فامتنع أحمد عن القبول ، ولم يكن امتناعه لعدم شرعية الدولة، فهو يرى أنّ الخلافة في ذلك الوقت صحيحة ويجب الطاعة لمن يتولّى الأمر براً كان أم فاجراً، وذلك بخلاف امتناع الإمام أبي حنيفة عن تولي القضاء في عهد الدولة الأموية، وقد ضربه ابن هبيرة ليرضخه على قبول هذه الوظيفة فامتنع، وفي أيام المنصور عرض عليه القضاء فرفضه حتى سجنه المنصور وضربه بالسياط، وكان ذلك سبب موته، كما يقال: لأنّ أبا حنيفة لا يرى صحة خلافة العباسيين والأمويين وكان رأيه عدم المعاونة معهم .[٢٨٤]

ولكن الإمام أحمد يرى لزوم المعاونة ووجوب الطاعة، فامتناعه عن قبول القضاء يبعث على التساؤل، ولعلّ هذه القضية لا أصل لها.

(٢٨٣) أحمد بن حنبل لمحمد أبو زهرة ص ١٦١.

(٢٨٤) أبو حنيفة لأبي زهرة ص ٢٣ و ٣٢، مناقب ابن البزازي ج ٢ ص ١٩، أنظر تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٢٣٧.

الإمام أحمد بن حنبل
في محنته

الإمام أحمد بن حنبل في محنته

المحنة

ظهرت مقالة القول بخلق القرآن في بداية القرن الثاني للهجرة، فقد أعلن بها الجعد بن درهم، وقتل من أجلها، قتله خالد بن عبدالله القسري حاكم العراق[٢٨٥].

وبقيت هذه الفكرة في طي الكتمان، ولم يكن لها أيّ أثر أو تطوّر في التأريخ، إلى زمن هارون الرشيد عندما نبغت المعتزلة، ونشطت الحركة الفكرية وثاروا على الجمود، ولم يستطيعوا أن يجاهروا في ذلك; لأنّ هارون الرشيد كان يحارب هذه الفكرة، حتى أنّه قال يوماً: بلغني أنّ بشر المريسي يقول: القرآن مخلوق، والله والله لئن أظفرني الله به لأقتلنّه قتلة ماقتلها أحد. ولمّا علم بشر بذلك ظل متوارياً أيام الرشيد[٢٨٦].

وقال بعضهم: دخلت على الرشيد وبين يديه رجل مضروب العنق، والسياف يمسح سيفه في قفا الرجل المقتول، فقال الرشيد: قتلته لأنّه قال القرآن مخلوق[٢٨٧].

واستمرّت المسألة في دور الكتمان والتستر إلى زمن المأمون، ولما ظهرت الفلسفة، وأثيرت مسائل حول صفات الله من المتكلمين والمعتزلة، كان أهمّها مسألة كلام الله، وخلق القرآن، وهي أبرز شيء في تأريخ المعتزلة، لما اتصل بها من أحداث تاريخية وسياسية.

وكما قلنا أنّ المسألة وجدت في آخر الدولة الأموية، وبقيت تنمو ويدور حولها الجدل، وتتسع فيها المناظرة، وتؤلّف فيها الكتب حتى جاء عصر المأمون، فإنّه كان يميل إلى حرية الفكر، وبذلك استطاع المعتزلة أن يواصلوا نشاطهم فقد كانوا يتحرقون إلى نشر أصولهم، فوجدوا في المأمون بغيتهم، ونظروا إليه بعين الإكبار; لأنّ الاصلاح الذي يرومونه يتحقق على يديه فالتفّوا حوله، إذ وجدوا فيه ركناً شديداً.

فكان مذهبهم أقرب المذاهب إلى نفس المأمون، فقرّبهم وأصبحوا ذوي نفوذ في القصر، وكان من أظهرهم ثمامة بن الأشرس، وأحمد بن أبي داود، وكان هو حامل

(٢٨٥) أحمد بن حنبل لمحمد أبو زهرة ص ٤٧.
(٢٨٦) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٦٤٧.
(٢٨٧) تاريخ ابن كثير ج ١ ص ٢١٥.

لوائهم إذ رجحت كفته وتولى القضاء، وبقيت هذه المسألة من سنة (٢١٨ هـ) إلى (٢٣٤ هـ) وسميت في التاريخ بالمحنة وهي في الأصل الخبرة.

واستغل المعتزلة الموقف، واغتنموا فرصة استمالة المأمون والمعتصم والواثق لهم، فأطلقوا أيديهم في السياسة، فنكّلوا بخصومهم وأذاقوا الناس العذاب، إذ هم لم يقولوا بخلق القرآن، وأقاموا ضجّة ليس لها مثيل من محاكم تقام، ويعرض فيها على العلماء والقضاء القول بخلق القرآن، فمن لم يقل عدّب وأهين، وسمّى المؤرخون هذه الفترة بمحنة خلق القرآن، وكانت سطوتهم ـ أي المعتزلة ـ في ذلك بلغت الذروة، فلمّا بلغوها أخذوا ينحدرون عنها.

وجاء المتوكل فرأى ناراً تُقد في كل مكان وامتحانات ومحاكمات، وضرباً، ونفياً وتشريداً، والرأي العام ساخط على هذه الحالة، ومن لم يقل بخلق القرآن وتحمل العذاب عدّ بطلاً.

فأراد الخليفة المتوكل أن يحتضن الرأي العام وأن يكتسب تأييده، فأبطل القول بخلق القرآن، وأبطل الامتحانات والمحاكمات ونصر المحدثين [٢٨٨].

اتسع الأفق أمام المعتزلة، وواصلوا نشاطهم العلمي والسياسي، عند ماعزل يحيى بن أكثم عن منصب قاضي القضاة سنة (٢١٧ هـ) وتولى مكانه ابن أبي داود، وهو كبير المعتزلة وفي رعيلهم الأوّل، وفي سنة (٢٠٦ هـ) مات يزيد بن هارون، وكان هو ويحيى بن أكثم يحولان بين المأمون وبين إظهار القول بخلق القرآن، فقد جاء في تصريح للمأمون قال فيه: «لولا يزيد بن هارون[٢٨٩] لأظهرت القول بخلق القرآن».

فقال له بعض جلسائه: ومن يزيد بن هارون حتى يتّقيه أمير المؤمنين؟

فقال المأمون: إني أخاف إن أظهرته يردّ علي فيختلف الناس فتكون فتنة وأنا أكره الفتنة[٢٩٠].

وبهذا يظهر أن الفكرة أُخذت من المأمون مكانها من قديم، ولكنّه كان يمانع من قبل خواصه، وهو يحذر الفرقة ويخشى الفتنة، وبعد أن وجد الطريق قد مهّد لذلك أعلن رأيه وحمل الناس بالقوة إلى تأييده واتباع رأيه، وبدأ بذلك في سنة (٢١٨ هـ).

(٢٨٨) ظهر الإسلام ج ٤ ص ٨.

(٢٨٩) يزيد بن هارون أبو خالد الواسطي، المتوفى سنة (٢٠٦ هـ) كان من الحفاظ والعلماء المشهورين، قال علي ابن المديني: مارأيت رجلاً قط أشهر من يزيد بن هارون. وكان له مكانة في المجتمع وأثر في قلوب الناس.

(٢٩٠) تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٣٤٣ الرقم ٧٦٦١.

وعلى أيّ حال فإنّ المأمون قد اشتد في امتحان الناس ولزوم إقرار الفقهاء بما يراه، فجعل يرسل لعامله الكتب وكانت تزداد شدّة وعنفاً، وتهديداً وتوعيداً، وكان من نتائج هذا الامتحان أن أجاب جميع الفقهاء لذلك، ولم يمتنع منهم إلاّ نفر قليل، منهم أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح، وأحمد بن نصر الخزاعي، وأبويعقوب البويطي، ونعيم بن حماد، وهؤلاء قد ذاقوا حتفهم لامتناعهم عن الإجابة، وبقي أحمد ولم يكن حظّه كحظهم من السجن والقتل، فتركزت شخصية أحمد، فكانت أنظار المحدثين تتجه إليه، بعد أن غلبوا على أمرهم وأصبحوا مضطهدين أمام ذلك التيار الذي يحاول القضاء على الجمود الفكري، واعطاء العقل حرية التصرف في نصوص الشريعة، إن لم تكن مؤيدة بالكتاب، أو صحيحة السند من السنة.

أدوار المحنة

كانت الخطوة الأولى التي خطاها المأمون ليضمن انصياع رعيته بالنحلة التي انتحلها، والرأي الذي ارتآه، أن دعا الفقهاء والمحدثين إلى أن يقولوا بمقالته في خلق القرآن، فيقولوا إنّ القرآن محدث، كما يقول المعتزلة الذين اختار منهم وزراءه وصفوته، وجعلهم بمنزلة نفسه، فأرسل كتاباً إلى عامله على بغداد: إسحاق بن إبراهيم، وهو ابن عم طاهر بن الحسين، وقد أمره فيه أن يشخّص لديه القضاة والمحدثين، وأن يمتحنهم في موضوع خلق القرآن. كما أرسل كتبه إلى الأقطار لحمل الناس على ذلك، وإرغامهم على الأخذ بهذه الآراء، واتّباع الأمر الذي يدعو فيه إلى التفكير الحر، واستخدام العقل في فهم العقائد الدينية، كما تشير لذلك كتبه، وخاصة كتابه الأوّل الذي أطال فيه بذكر السبب الذي ألجأه إلى حمل الناس على القول بخلق القرآن، حيث قال فيه: «إنّ خليفة المسلمين واجب عليه حفظ الدين وإقامته، والعمل بالحقّ في الرعية، وقد عرف أمير المؤمنين أنّ الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية، وسفلة العامة، ممن لا نظر له ولا روية، ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته، ولا استضاء بنور العلم وبرهانه، في جميع الأقطار والآفاق أهل جهالة بالله وعمى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده، والإيمان به، ونكوب عن واضحات أعلامه، وواجب سبيله، وقصور عن أن يقدروا الله حقّ قدره، ويعرفونه كنه معرفته، ويفرّقوا بينه وبين خلقه، لضعف آرائهم ونقص عقولهم، وجفائهم عن التفكّر والتذكّر، وذلك أنّهم ساووا بين الله تبارك وتعالى وما أنزل من القرآن، فأطبقوا مجتمعين على أنّه ـ أي القرآن ـ قديم أزلي لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه.

وقد قال الله عزّ وجلّ في محكم كتابه الذي جعله لما في الصدور شفاء، وللمؤمنين رحمة: (**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا**) [٢٩١]. فكل ماجعله الله فقد خلقه.

وقال: (**ا لْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**)[٢٩٢].

وقال عزّ وجلّ: (**كَذَالِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ**) [٢٩٣].

فأخبر أنه قصص لأمور قد أحدثها، وتلا به متقدمها، فقال تعالى: (**الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**) [٢٩٤]. وكلّ محكم مفصل، والله محكم كتابه ومفصله، فهو خالقه ومبتدعه، ثم هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم، ونسبوا أنفسهم إلى السنة، وفي كلّ فصل من كتاب الله قصص من تلاوته، مبطل قولهم ومكذّب دعواهم، يرد عليهم قولهم ونحلتهم، ثم أظهروا ذلك أنّهم أهل الحقّ والدين والجماعة، وأنّ من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة، فاستطالوا بذلك على الناس، وغرّوا بهم الجهال، حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب، والتخشّع لغير الله، والتقشّف لغير الدين، إلى موافقتهم عليه، ومواطأتهم على سيء آرائهم، تزيّناً بذلك عندهم، وتصنّعاً للرياسة والعدالة فيهم، فتركوا الحقّ إلى باطلهم، واتخذوا دون الله وليجة إلى ضلالتهم».

ثم ذكر أنّ هؤلاء قد زكّوا أمثالهم، وقبلت شهادتهم، ونفذت الأحكام بهم، مع دغل دينهم وفساد عقيدتهم:

«وأولئك شرّ الأمة، ورؤوس الضلالة المنقرضون من التوحيد، وأحقّ من يتهم في صدقه وتطرح شهادته، ولا يوثق بقوله ولا عمله، فإنّه لا عمل إلاّ بعد يقين، ولا يقين إلاّ بعد استكمال حقيقة الإسلام واخلاص التوحيد».

ثم قال: «فاجمع من بحضرتك من القضاة، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون، وتكشيفهم عمّا يعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه، وأعلمهم أنّ أمير المؤمنين غير مستعين في عمله، ولا واثق فيما قلّده الله واستحفظه من أمور رعيّته بمن لا يوثق بدينه، وخلوص توحيده ويقينه، فإذا أقرّوا بذلك; فمرهم ومن بحضرتهم من الشهود على الناس، ومسألتهم من علمهم في القرآن وترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدَث... وأكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء الله»[٢٩٥].

(٢٩١) الزخرف: ٣ .
(٢٩٢) الأنعام: ١.
(٢٩٣) طه: ٩٩.
(٢٩٤) هود: ١.
(٢٩٥) أحمد بن حنبل لمحمد أبو زهرة ص ٥٢ ـ ٥٤ .

فكان هذا الكتاب خطوة أولى لامتحان الرعية في انصياعهم وتسليمهم لما ينتحله من هذه المقالة، التي يرى القيام بها واجباً عليه; لأنّ ذلك يستلزم تصحيح عقائد الناس، ولا سيّما إذا تغلغل الفساد إلى أصل من أُصول الدين، كالإشراك مع الله شيئاً آخر وهو القرآن، وبهذا لا يصحّ أن يستقضي من ضعفت عقيدته، ولا تقبل شهادته، إذ لا يوثق بمن ضعف إيمانه، ولا سلطان لمن لا تصح عقيدته وإشراك في توحيده، فهو غير مأمون من الظلم والحيف على الرعية، والسلطان مسؤول عنه أمام الله.

وهذه الخطوة مقصورة على التوعيد والعزل عن القضاء، وعدم قبول شهادة من لا يتبع رأي الخليفة، فلا تعذيب ولا تنكيل، فهو يحاول الاصلاح بهذه الأُمور، وإن تعذّر ذلك فإنّه يستعمل القوة.

وأرسل نسخة من الكتاب إلى مصر، وكان قاضيها يومئذ هارون بن عبدالله الزهري، فأجاب لذلك، كما أجاب الشهود المعتمدون، ومن توقف منهم أُسقطت عدالته، وأُبطلت شهادته.

وقد أصدر المأمون أمراً عاماً يأخذ الناس بالمحنة في كافة أرجاء المملكة الإسلامية، ففي سنة (٢١٨ هـ) ذهب المأمون بنفسه إلى دمشق، وربّما كان في طريقه وهو ذاهب إلى حملته الأخيرة على آسيا الصغرى. وهنالك في دمشق أشرف بنفسه على امتحان الفقهاء والعلماء، في مسائل حرية الإرادة، ووحدانية الذات الإلهية، أي العدل والتوحيد، وعنده أنّ عقيدة التوحيد تعدّ اختباراً يؤدي إلى القول بخلق القرآن، وبذلك سمّى المعتزلة أنفسهم أهل التوحيد والعدل.

وسارع إسحاق بن إبراهيم والي بغداد إلى تنفيذ رغبة المأمون، فأحضر المحدّثين والفقهاء والمفتين، وأنذرهم بالعقوبة الصارمة والعذاب العتيد، إن لم يقرّوا بما يطلب منهم، وينطقوا بما سئلوا أن ينطقوا به، ويحكموا بالحكم الذي ارتآه المأمون من غير تردّد أو مراجعة، فنطقوا جميعاً بما طلب منهم وأعلنوا اعتناق ذلك المذهب [٢٩٦].

ويعلّل ابن كثير: أنّ إجابتهم كانت مصانعة، لأنّهم كانوا يعزلون من لا يجيب عن وظائفه، وإن كان له رزق على بيت المال قطع، وإن كان مفتياً منع من الافتاء، وإن كان شيخ حديث ردع عن الاستماع[٢٩٧].

وإليك ثبتاً في أسماء بعض من أجاب من العلماء منهم :

(٢٩٦) أحمد بن حنبل لمحمد أبو زهرة ص ٥٧ ـ ٥٩ .

(٢٩٧) تاريخ ابن كثير ج ١٠ ص٢٧٣.

يحيى بن معين المتوفى سنة (٢٣٢ هـ)، وهو من شيوخ أحمد بن حنبل والبخاري وغيرهم، وقال فيه أحمد: حديث لا يعرفه يحيى فليس بحديث[٢٩٨].

وإسماعيل بن أبي مسعود البصري المتوفى سنة (٢٤٨ هـ).

وعلي بن الجعد الهاشمي مولاهم أبو الحسن الجوهري المتوفى سنة (٢٣٠ هـ).

وأبو حسان الزيادي المتوفى سنة (٢٤٢ هـ).

وعلي بن مقاتل.

وأبو معمر القطيفي المتوفى سنة (٢٣٦ هـ).

وأحمد بن الجواري المتوفى سنة (٢٤٦ هـ).

ومحمد بن سعد كاتب الواقدي مؤلف الطبقات المتوفى سنة (٢٣٠ هـ).

وأبو خيثمة زهير بن حرب المتوفى سنة (٢٣٤ هـ).

وأبو مسلم المستميلي.

وأحمد بن الدورقي المتوفى سنة (٢٤٦ هـ).

وقتيبة بن سعيد المتوفى سنة (٢٤٠ هـ).

وبشر بن الوليد الكندي المتوفى سنة (٢٣٨ هـ).

وأبو علي بن عاصم.

وأبو شجاع.

وإسحاق بن إسرائيل المتوفى سنة (٢٢٥ هـ).

وسعدويه الواسطي المتوفى سنة (٢٢٥ هـ).

ومحمد بن حاتم بن ميمون المتوفى سنة (٢٣٥ هـ).

وغيرهم: كابن العوام، ويحيى بن حميد العمري، وأبي نصر التمار.

وقد ذكر ابن كثير منهم النظر بن شميل، وهذا خطأ لأن ابتداء الدعوة إلى القول بخلق القرآن كانت في سنة (٢١٨ هـ) وكانت وفاة النظر في سنة (٢٠٣ هـ) أي قبل المحنة بخمس عشرة سنة[٢٩٩].

امتحان أحمد بن حنبل

(٢٩٨) سير أعلام النبلاء ج ٩ ص ٣٦٤ / الرقم ١٨٢٥.

(٢٩٩) البداية والنهاية لابن كثير ج ١٠ ص ٢٩٩.

جاء في كتاب المأمون الرابع لعامله إسحاق يأمره بأن يستدعي بشر بن الوليد، فإن أصرّ على الامتناع تضرب عنقه، وكذلك أمره في إبراهيم بن المهدي، وأما الباقون يعيد عليهم الكرّة فمن أبى منهم يحمل موثقاً إلى عسكر المأمون مع من يقوم بحفظهم.

فجمعهم إسحاق وقرأ عليهم كتاب المأمون، فأجاب كافة الفقهاء ماعدا أحمد ابن حنبل، وسجادة والقواريري، ومحمد بن نوح، فأمر بهم إسحق بن إبراهيم فشدوا في الحديد، فلما أصبحوا أعاد امتحانهم، فاعترف سجادة بخلق القرآن فأطلقه. وبعد يوم آخر أجاب القواريري بأن القرآن مخلوق فأخلى سبيله، ولم يبق إلاّ أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح [٣٠٠].

فكتب حاكم بغداد إلى المأمون بذلك فأمره بأن يشخص إليه أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح موثقين في الأغلال، ولما وصلا في طريقهما إلى قرب الأنبار، وفي أثناء الطريق جاءهم نعي المأمون.

فأمّا محمد بن نوح فقد مات وهو عائد إلى بغداد بعد موت المأمون، ففك قيده وصلّى عليه أحمد بن حنبل [٣٠١]، وبهذا ينتهي دور أحمد في عصر المأمون.

في عهد المعتصم

لم تنقطع المحنة عن العلماء بوفاة المأمون بل اتّسع نطاقها، وزادت ويلاتها، وكانت شرّاً مستطيراً، فقد بلغ البلاء أشدّه، والمحنة أقصاها في عهد المعتصم، ثم في عهد الواثق.

لقد أوصى المأمون قبل وفاته أخاه المعتصم بالاستمساك بمذهبه في القرآن، ودعوة الناس إليه بقوة السلطة، وكأنه فهم أن تلك الفكرة دين واجب الأتباع، لا يبرأ عنقه منها من غير أن يوصي خلفه به فوصاه، فقد جاء في مطلع وصيته: هذا ماأشهد عليه عبدالله بن هارون الرشيد. أمير المؤمنين بحضرة من حضره، أشهدهم جميعاً على نفسه. أنه يشهد هو ومن حضره، أن الله عزّ وجلّ وحده لا شريك له في ملكه، ولا مدبر لأمره غيره، وأنّه خالق، وماسواه مخلوق، ولا يخلو القرآن أن يكون شيئاً له مثل كلّ شيء، ولا شيء مثله تبارك وتعالى.

وجاء في وسط الوصية: ياأبا إسحاق، أدن مني ـ كنية المعتصم ـ واتعظ بما يرى وخذ بسيرة أخيك في خلق القرآن[٣٠٢].

(٣٠٠) البداية والنهاية لابن كثير ج ١ ص ٣٠٠ .

(٣٠١) تاريخ بغداد ج ٤ ص ٩٢ / ١٧٤١ .

(٣٠٢) ابن حنبل لمحمد أبو زهرة ص ٤٧.

فاشتدّ المعتصم في امتحان الناس، اتباعاً لسيرة أخيه وجرياً على نهجه الذي لم يتصف بصفة الرأفة، ولا يحول بينه وبين إيقاع المكروه بمن يريد أيّ حائل، مع ما فيه من النشاط العسكري، وقوّة الإرادة والشجاعة التي امتاز بها، ولم يكن رجل علم، بل رجل سيف لا يضعه عن عاتقه.

ولا حاجة لنا بذكر جميع أطراف المحنة، والمؤاخذة، ولكنّا نشير لما يخصّ صاحبنا ـ أحمد بن حنبل ـ في ذلك وموقفه في مجابهة تلك الشدّة، وكيف نجا من سطوة المعتصم، وشدّة ابن أبي داود، وهو كبير المعتزلة، وبطل هذه المعركة، فهل أجاب أحمد لما أراد الخليفة فخلّى سبيله؟ أم أنّ المعتصم خشي وقوع الفتنة عندما يقتله إن أصر على الامتناع؟ أم أنّه رق عليه وأعجب بشجاعته وثباته؟ وقد ذكر بعض المؤرخين أنّ أحمد أجاب في المحنة وانقطع عن المناظرة كما سنبيّنه قريباً.

وعلى وجه الإجمال فإنّ المعتصم اشتّد في امتحان الناس، وكان أحمد سجيناً عنده فأمر بحمله إليه، وقال حاكم البلد: إنّ الخليفة قد أقسم إلاّ أن يقتله بالسيف، وأنّه سوف يضربه ضرباً بعد ضرب، وانه سيزجه في مكان مظلم لا يرى فيه النور. وسار أحمد إلى المعتصم، فلما دخل عليه وابن أبي داود وأصحابه في حضرته، والدار غاصة بأهلها وبالقضاة والفقهاء من أتباع الدولة، فناظروه ولم يستطيعوا اخضاعه.

فقال ابن أبي داود: ياأمير المؤمنين، «أنّه ضالّ مضلّ مبتدع».

وبقي أحمد ثلاثة أيام يؤتى به كلّ يوم للمناظرة، عسى أن يرضخ أحمد لحكم السلطة ولكنّه استعصم ولم يجب، فلما يئس المعتصم منه أمر بضربه بالسياط، وقد اختلف في عددها فقيل ثمانية وثلاثين وقيل أقل من ذلك(٣٠٣).

وعلى أيّ حال: فإنّ تعذيب أحمد لم يدم، بل إنّ المعتصم أطلق سراحه، وخلع عليه، وقد ذكر بعضهم أنّ السبب هو أنّ العامة قد تجمّعوا على دار السلطان أو همّوا بالهجوم، فأمر المعتصم بإطلاقه وهذا لا يتمشى مع واقع الأمر، فإنّ المعتصم لم يعرف بضعف الإرادة، وكانت دولته في إبّان عظمتها وقوة سلطانها فلا يؤثر فيها استنكار عدد قليل من الناس، على مايفعله من الأمور.

وذهب بعض إلى أنّ أحمد أجاب الخليفة فأطلق سراحه كما جاء في رسالة الجاحظ التي تمثل وجهة نظر المعتزلة تمثيلاً صادقاً، فهي تنسب لأحمد انقطاعه عندما ناقشه أحمد بن أبي داود بمحضر المعتصم، وأقام عليه أدلّة من الكتاب وأدلّة عقلية.

(٣٠٣) المنتظم ج ١١ ص٤٣ ـ ٤٤.

قال الجاحظ في رسالته مخاطباً لأهل الحديث، بعد أن ذكر المحنة والامتحان: وقد كان صاحبكم هذا ـ أي الإمام أحمد ـ يقول: لا تقيّة إلاّ في دار الشرك، فلو كان ما أقرّ به من خلق القرآن، كان منه على وجه التقية، فلقد أعملها في دار الإسلام. وقد أكذب نفسه، وإن كان ما أقر به على الصحة والحقيقة فلستم منه وليس منكم، على أنّه لم ير سيفاً مشهوراً، ولا ضرب ضرباً كثيراً، ولا ضرب إلاّ بثلاثين سوطاً مقطوعة الثمار، مشبعة الأطراف، حتى أفصح بالإقرار مراراً، ولا كان في مجلس ضيّق ولا كانت حاله مؤيسة، ولا كان مثقلاً بالحديد، ولا خلع قلبه بشدة الوعيد.

ولقد كان ينازع بألين الكلام ويجب بأغلظ الجواب، ويرزنون ويخفّ ويحلمون ويطيش[٣٠٤].

هذا ماأردنا إثباته من هذه الرسالة التي تعتبر وثيقة معاصرة نجت ممّا أتلفه أهل السنة من مؤلفات المعتزلة، وهي تدلّنا على إقرار أحمد واعترافه بأنّ القرآن مخلوق، مؤيدة بما ذكره اليعقوبي في تاريخه:

وامتحن المعتصم أحمد بن حنبل في خلق القرآن، فقال أحمد: أنا رجل علمت علماً ولم أعلم فيه بهذا، فأحضر له الفقهاء وناظره عبد الرحمن بن إسحاق وغيره، فامتنع أن يقول إن القرآن مخلوق، فضرب عدّة سياط، فقال إسحاق بن إبراهيم: ولني ياأمير المؤمنين مناظرته. فقال: شأنك به فقال إسحاق: هذا العلم الذي علمته نزل به عليك ملك أو علمته من الرجال؟

فقال أحمد: بل علمته من الرجال.

فقال إسحاق : شيئاً بعد شيء أو جملة؟

قال: علمته شيئاً بعد شيء.

قال إسحاق : فبقي عليك شيء لم تعلمه.

قال أحمد: بقي عليّ شيء لم أعلمه.

قال إسحاق: فهذا ممّا لم تعلمه، وعلمكه أمير المؤمنين.

قال أحمد: فإني أقول بقول أمير المؤمنين.

قال إسحاق: في خلق القرآن؟

قال أحمد: في خلق القرآن. فأشهد عليه وخلع عليه وأطلقه إلى منزله.

(٣٠٤) تاريخ اليعقوبي ج٣ ص ١٩٨، مقدمة كتاب أحمد بن حنبل والمحنة ص ١٤، نقلاً عن هامش الكامل ج ٣ ص ١٣١ ـ ١٣٩.

هذا مايستدل به على إجابة أحمد للمعتصم، من أقوال رجال، هم أقرب الناس من عهده، وأطلعهم على حوادثه[٣٠٥].

وبدون شك أنّ امتحان أحمد كان من أكبر العوامل لإنتشار ذكره واتجاه الناس إليه، وأنّه بعد أن استقر في بيته بعدما عفى عنه المعتصم، التفّ حوله جماعة للسماع منه في المسجد يدرس مدة بقاء المعتصم، وبعد وفاته تقلّد ولده الواثق الخلافة صار أحمد محدثاً مشهوراً، فعظم ذلك على قاضي بغداد الحسن بن علي بن الجعد، فكتب إلى أبي داود[٣٠٦] بذلك، فلما سمع أحمد امتنع من تلقاء نفسه.

ولما قام الواثق بالأمر، أعاد امتحان أحمد، ولكنه لم يتناوله بأذى، كما فعل المعتصم، واكتفى بمنعه من الاجتماع بالناس، فأقام أحمد مختفياً لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق.

ومن الحقّ والإنصاف أن نقول : إنّ المحنة لم تكن مقصورة على أحمد بن حنبل، وإن كان تصوير موقفه قد أخذ يتّسع ويتطور، وحيكت حوله أساطير وأقوال، فإنّ هناك من فقهاء ذلك العصر من كان موقفهم أشدّ من موقف أحمد في الامتناع، ومواجهة الخطر، ومكابدة المحنة، فقد استشهد الكثير منهم في سبيل معتقده، وقاوم حتى لقي حتفه، كما رأينا في موقف محمد بن نوح وموته، وهو مثقل بالحديد، وإليك ذكر البعض منهم.

شركاء في المحنة

١ ـ أحمد بن نصر بن مالك الخزاعي المقتول سنة (٢٣١ هـ)، وهو مروزي من مدينة مرو، ينتمي لإحدى العشائر الكبيرة في قبيلة خزاعة، ومن تلامذة مالك بن أنس، روى عنه ابن معين ومحمد بن يوسف الطباع.

(٣٠٥) تاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ١٩٨.

(٣٠٦) أحمد بن أبي داود بن جرير القاضي الأيادي، المتوفى سنة (٢٤٠ هـ) كان من أقوى شخصيات عصره، وله الأثر الكبير في المجتمع، وكان من أصحاب واصل بن عطاء، فصار إلى الاعتزال.

وهو بطل الثورة الفكرية أيام المحنة، لمكانته في الدولة ونفوذه، وقد اتصل بالمأمون فأعجب به لعقله وحسن منطقه; فقربه وأصبح ذا نفوذ كبير في قصره، وكان من وصيّة المأمون للمعتصم: وأبو عبدالله أحمد بن أبي داود لا يفارقك الشركة في المشورة في كل أمرك، فإنه موضع ذلك.

فلما ولي المعتصم جعل بن أبي داود قاضي القضاة مكان يحيى بن أكثم، وكان كذلك قاضي القضاة في أيام الواثق، فلما ولي المتوكل أصيب بالفالج وأفل نجمه، فكانت مدة عظمة بن أبي داود ونفوذه نحواً من ثمان وعشرين سنة، أي من سنة (٢٠٤ هـ) إلى سنة (٢٣٢ هـ)، وقد تابع ابن أبي داود بنفسه معاقبة الناس المخالفين للمعتزلة وأشرف على إنزال الأذى بهم.

وكان من أهل العلم، صلباً في عقيدته، قوياً في معارضته، وقال أحمد بن حنبل فيه بعد أن قتل: «لقد جاد بنفسه»، كما أنّ له مكانة في المجتمع، فقد شغل أبوه وجدّه المناصب العالية في عهد الخلفاء العباسيين، كما اشتهر هو في الوقت بالأمانة، والعدالة بين المحدثين من أهل السنة.

قبض عليه والي بغداد وامتحنه الواثق وسأله: ماتقول في القرآن؟

قال: كلام الله ليس بمخلوق. فحمله أن يقول أنّه مخلوق فأبى.

وسأله عن رؤية الله يوم القيامة - والمعتزلة ينكرونها- فقال بها، وروى له الحديث في ذلك.

فقال الواثق: ويحك! هل يُرى كما يُرى المحدود المتجسم، ويحويه مكان، ويحصره الناظر، إنّما كفرت بربّ هذه صفته.

ولما أصرّ أحمد الخزاعي على رأيه، دعا الخليفة بالسيف المسمّى الصمصامة وقال: إني احتسب خطاي إلى هذا الكافر الذي يعبد ربّاً لا نعبده، ولا نعرفه بالصفة التي وصفه بها، ثم مشى إليه بنفسه، فضرب عنقه، وأمر به فحمل رأسه إلى بغداد، فنصب بالجانب الشرقي أياماً، ثم بالجانب الغربي أياماً، ولما صلب كتب الواثق ورقة وعلقت في رأسه: «هذا رأس أحمد بن نصر بن مالك دعاه عبدالله الإمام هارون - وهو الواثق - إلى القول بخلق القرآن ونفي التشبيه فأبى إلاّ المعاندة فعجّل الله به إلى ناره.

ووكّل بالرأس من يحفظه ويصرفه عن القبلة[٣٠٧]، وقد تنوقلت قصّة خرافية فحواها: أنّ الرأس منذ أن نصب إلى أن دفن كان يتلو القرآن، وتضاهيها قصة أُخرى تحكى: أنّه بعد مقتل أحمد بن نصر بسنين طويلة وجد رأس أحمد بن نصر وجسده مطمورين في الرمال، لم يلحقهما أي أثر [٣٠٨].

وقتل أحمد بن نصر في آخر شعبان سنة (٢٣١ هـ)، وظلّ رأسه والجذع الذي نصب عليه معروضين للأنظار طيلة ست سنوات، ولا يعقل ترك رأس قتل لجريمة الكفر في نظر الدولة، وهو يتلو القرآن طيلة هذه المدة، ممّا يدل على فضيحة تلك الدعوى، واستنكار الناس، ولكن الاندفاع العاطفي خلق حول كثير من الأشخاص أساطير وخرافات يكذّبها الوجدان.

(٣٠٧) تاريخ بغداد ج٥ ص١٧٧، طبقات الشافعية ج ١ ص ٢٧٠.

(٣٠٨) أحمد بن حنبل والمحنة ص ١٦٦.

٢ - يوسف بن يحيى البويطي تلميذ الشافعي وخليفته على حلقة درسه، حمل من مصر إلى بغداد، مثقلاً بأربعين رطلاً من الحديد، وامتحن فأبى أن يقول : إنّ القرآن مخلوق، وقال: والله لأموتن في حديدي هذا، حتى يأتي من بعدي قوم يعلمون أنّه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم، ولئن دخلت عليه - يعني الواثق - لأصدقنه، ومضى على امتناعه حتى مات في سجنه سنة (٢٣٢ هـ).

وكان وهو في الحبس يغتسل كلّ جمعة ثم يخرج إلى باب السجن إذا سمع النداء، فيردّه السجان ويقول له: ارجع رحمك الله، فيقول البويطي: اللهم إنّي أجبت داعيك فمنعوني[٣٠٩].

٣ - عمرو بن حماد بن زهير التيمي مولى آل طلحة الكوفي، المتوفى سنة (٢١٩ هـ)، وهو من شيوخ أحمد والبخاري، ويحيى بن معين، وقد امتحن وعذب لأجل امتناعه عن القول بخلق القرآن، لمّا بلغ كتاب المأمون إلى الكوفة، سئل عن فحواه، فقال: إنّما هو ضرب الأسواط، ثم أمسكهم بزر ثوبه، وقال: رأسي أهون عليّ من هذا، ولم يزل مصرّاً على امتناعه حتى مات سنة (٢١٩ هـ)[٣١٠].

٤ - نعيم بن حماد بن معاوية بن الحرث الخزاعي أبو عبد الله المروزي، المتوفى سنة (٢٢٨ هـ)، كان من الذين ثبتوا في المحنة، ولم يجب إلى ماطلب منه عندما أمر الواثق بحمله من مصر، وامتحن في القول بخلق القرآن، فلم يقل: إنّ القرآن مخلوق، وأصرّ على التمسك بعقيدته، فزج في السجن إلى أن مات فيه.

ونعيم هذا هو الذي قد ألف كتاباً في الرد على أبي حنيفة، وكان يعرف بوضع الحديث في تقوية السنة في مقابل المعتزلة وغيرهم[٣١١].

٥ - عفان بن مسلم بن عبدالله الأنصاري أبو عثمان البصري الصفار، أحد الأئمة الأعلام، ومن رجال الصحاح الستة، وعنه أخذ أحمد بن حنبل والبخاري، وابن معين، وابن المديني، قال أبو حاتم: هو إمام ثقة متقن متين. وقال ابن عدي: عفان أوثق من أن يقال: فيه شيء[٣١٢].

نزل عفان بغداد، ونشر بها علمه، وحدث عن شعبة وأقرانه، قال يحيى بن معين: أصحاب الحديث خمسة: ابن جريح، ومالك، والثوري، وشعبة.

قال حنبل: كتب المأمون إلى متولي بغداد يمتحن الناس فامتحن عفان.

(٣٠٩) طبقات الشافعية ج ١ ص ٢٧٦، وأحمد بن حنبل والمحنة ص ٣٦٧ .
(٣١٠) المنتظم ج ١١ ص ٤٦ / ١٢٥٠.
(٣١١) شذرات الذهب ج ٢ ص ٦٧.
(٣١٢) الخلاصة للخزرجي ص ١٣٧.

وقال المأمون: فإن لم يجب عفان فاقطع رزقه، وكان له في الشهر خمسمائة درهم، فلم يجبهم عفان لذلك وقال: (**وَفِى السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ**) [٣١٣].

فقطع المأمون رزقه الذي كان يتقاضاه منه، وثبت على عقيدته في المحنة، وقد غضب عليه أهل بيته، لأنّه حرمهم بامتناعه ممّا يقيم أودهم، إذ كان يعول أربعين نفساً، ولكن ذلك لم يقع عنده موقع الاهتمام، وأصرّ على امتناعه، إلى أن مات سنة (٢٢٠ هـ)[٣١٤].

٦ - عبد الأعلى بن مسهر الغساني أبو مسهر الدمشقي، المتوفى سنة (٢١٨ هـ) ، عالم الشام وعظيم القدر عند أهلها، ولعظيم مكانته عندهم أنّه كان إذا خرج اصطف الناس يقبلون يده، وهو من رجال الصحاح الستة، ومن شيوخ أحمد بن حنبل، وابن معين. قال أحمد: ماكان أثبته. وقال ابن معين: منذ خرجت من باب الأنبار إلى أن رجعت لم أر مثل أبي مسهر. وقال أبو حاتم: مارأيت أفصح منه ومارأيت أحداً في كورة من الكور، أعظم قدراً ولا أجلّ عند أهلها من أبي مسهر بدمشق، إذا خرج اصطف الناس يقبلون يديه.

وقد ثبت عبد الأعلى ولم يجب في المحنة فحبسه المأمون ببغداد في شهر رجب لمحنة القول بخلق القرآن، ومات في الحبس سنة (٢١٨ هـ) [٣١٥]، وأما قول ابن سعيد أنّه مات سنة (٢١٠ هـ)، فهو خطأ، لأنّ المحنة ابتدأت في سنة (٢١٨ هـ)[٣١٦].

هؤلاء الرجال هم أشهر من وقف في ذلك المعترك العقائدي، الذي أثارته الدولة، وحملت الناس على الخضوع لإرادتها بالتهديد والتوعيد، والضرب بالسياط، والقتل والسجن. وإنّ من ظلامة التاريخ أن تخصّ هذه المحنة بأحمد ابن حنبل فيكون فارسها المحنك، وبطلها الأوّل، وموقفه الوحيد في نصرة الإسلام منذ بزوغ شمسه في الجزيرة العربية، ونحن لاننكر موقفه ولا نبخس حقّه، ولكنّا نقول: أنّ هناك زوائد يجب أن تهمل، واطياق وأساطير لا تزيد البحث إلاّ تعقيداً كما نشير إليها في المناقب.

أوضاع المحنة في عصر الإمام أحمد

(٣١٣) الشذرات ج ٢ ص ٤٧، والآية ٢٢ من سورة الذاريات.
(٣١٤) المنتظم ج ١١ ص ٦١ / ١٢٥٥ .
(٣١٥) الخلاصة للخزرجي ص ١٨٧، وشذرات الذهب ج ٢ ص ٤٤.
(٣١٦) المنتظم ج ١١ ص ٣٧ / ١٢٤٠.

إنّ مايمتاز به عصر أحمد وجود معسكرين متخاصمين، كلّ يحاول أن ينال السبق والتغلّب، ويحاول القضاء على الطرف الآخر، وهم المعتزلة وأهل الحديث. ولقد بلغ الصراع أشدّه، وقامت ثورة فكرية، وعاطفية. والسياسة من وراء ذلك تلعب دورها، وكان كلّ من المعسكرين، يأمل آمالاً واسعةً، فالمعتزلة كانوا يأملون أن يصبح الاعتزال مذهب الدولة الرسمي، كما أنّ الإسلام دينها الرسمي، فإذا تمّ ذلك; انتشر الاعتزال تحت حماية الدولة، وأصبح أكثر المسلمين معتزلة، فوحدوا الله كما يوحدون، واعتنقوا أصول الاعتزال كما يعتنقون، وتحرر المسلمون في أفكارهم، فأصبح المشرعون لا يتقيدون بالحديث تقيد المحدثين، وإنّما يستعملون العقل، ويزنون الأمور بالمصالح العامة، ولا يرجعون إلى نص إلاّ أن يكون قرآناً أو حديثاً مجمعاً عليه، وتحرر عقول المؤرخين من المسلمين، فيتعرّضون للأحداث الإسلامية، بعقل صريح، ونقل حر، فيشرحون أعمال الصحابة والتابعين، ويضعونها في نفس الميزان الذي توزن به أعمال غيرهم من الناس [٣١٧].

ولقد تدخّلت الحكومة في مناصرة المعتزلة، وأخذوا الناس إلى اتّباع آرائهم بالقوة. ومرّ المعتزلة في نشاطهم أيام المأمون والمعتصم والواثق، وكان المحدثون يقفون أمام هذا الرأي بشتى الأساليب، وظهر القول بخلق القرآن وقدمه، فكانت هناك محنة عامة، فأجاب من أجاب وامتنع من امتنع، حتى جاء عهد المتوكل فأراد أن يستجلب الرأي العام، لأنّ المسألة بلغت إلى أقصى حدّ من العنف والشدّة، فأعلن إبطال ذلك في سنة (٢٣٤ هـ) وهدد من أثار هذه المسألة، وأظهر الميل للمحدثين، ووقف بجانبهم فكانت لأصحابهم الغلبة، وفي ذلك العهد طلع نجم أحمد بن حنبل، وظهر اسمه لأنه بقية الرجال المبرزين، الذين امتنعوا من الإجابة كما هو المشهور.

وانتصر المحدثون وشملهم المتوكل بعطفه ورعايته وأشخص منهم مائتين، وكان فيهم مصعب الزبيري، وإسحق بن أبي إسرائيل، وإبراهيم بن عبد الله الهروي، وعبد الله وعثمان ابنا أبي شيبة، فقسمت بينهم الجوائز، وأجريت عليهم، وأمرهم المتوكل أن يجلسوا للناس، وأن يحدثوا بالأحاديث التى فيها الرد على المعتزلة والجهمية، وأن يحدثوا بالأحاديث في الرؤية، فجلس عثمان بن أبى شيبة في مدينة المنصور، ووضع له منبر واجتمع عليه الناس، وجلس أبو بكر بن أبي شيبة في مسجد الرصافة، وقام القصاصون بنشاط واسع، ووضعت الأحاديث عن صاحب الرسالة (صلى الله عليه

(٣١٧) ضحى الإسلام ج ٣ ص ١٩٦.

وآله)ونسبوا له زوراً أنه صلى الله عليه وآله قال: «ماقيل من قول حسن فأنا قلته»[٣١٨].

والتف الناس حول أنصار الدولة من المحدثين، واستمعوا إلى القُصّاص الآمنين من المؤاخذات، لأنّ الدولة لهم تحرسهم والظروف تساعدهم، وقد أنكر أحمد بن حنبل على ابن أبي شيبة، وعلى مصعب والهروي وضعفهم، وكان انتصار المتوكل للمحدثين حدثاً هاماً، فقد أفل نجم المعتزلة، وسقطت دولتهم، وقام أهل الحديث باغتنام هذه الفرصة، فارتفع لواؤهم وتبوأوا المكانة الرفيعة، وانتقموا من خصومهم المعتزلة، بل من كل من يتهم بالميل إليهم، وحدثت حوادث إنتقامية بدون تدبر وترو، وهكذا شأن من انتصر بعد ظلم، واعتز بعد ذلة، فأوقع الحنابل نقمتهم على كثير ممن لم يشارك المعتزلة في سلطانهم.

أمّا الإمام أحمد فقد علت منزلته عند المتوكل وقرّبه إليه وطلب منه أن يتولّى تعليم ولي العهد، كما كان يتعاهده بالإكرام ويشيد بذكره ويتشوق لرؤيته، وطلب أن يزوره في عاصمة ملكه ليراه ويتبرك بقربه.

وعندما لمس الناس هذا العطف من المتوكل الذي عرف بقساوة القلب، والظلم والاستبداد وسفك الدماء، والانهماك في الشهوات; إنهال الناس على أحمد من مناصريه وغيرهم، وازدحموا على بابه، وتهافت رجال الدولة وأعيانها عليه، فكان الطريق إلى بيته مزدحماً بالناس، وإذا سار في الطريق احتشدوا خلفه، وتحدّثوا في الأندية والمجتمعات عن عظمته وعلوّ مكانته، ويأتون إليه بالمنامات المبشّرة والحوادث الدالة على عظمته، فهذا يقول: إنّ أُمي كانت مقعدة فأقسمت على الله باسم أحمد بن حنبل فعوفيت[٣١٩].

وهذا يقول: إنّ الجندي المسلم في غزو الروم أيام أحمد إذا رمى وذكر اسم أحمد أصاب، وإن الفارس الرومي المتحصّن بدرعه وترسه وخوذته لا يصيبه السهم إلاّ إذا ذكر اسم أحمد[٣٢٠].

ومن الغرائب أنّه زار تلميذه (بقي بن مخلد) في خان بأطراف بغداد، فازدحم الناس عليه، وبعد أن رجع أحمد تهافت الناس على ذلك الخان للتبرك بالمكان الذي جلس فيه، والمكان الذي وقف فيه، فربح صاحب الخان لكثرة الوفود وكتب ألواحاً وعلّقها وفيها: هنا جلس أحمد، وهنا تكلّم، وهنا وقف[٣٢١]، إلى غير ذلك من الأُمور التي شاعت في بغداد.

(٣١٨) مسند ابن ماجة ج١ ص ١٠ ح٢١، عن أبي هريرة، القول المسدد في مسند أحمد لابن حجر العسقلاني ص٨٧ .

(٣١٩) جامع كرامات الأولياء ج ٩ ص ٤٨١.

(٣٢٠) أنظر مناقب أحمد بن حنبل لابن الجوزي ص ١٤٩.

(٣٢١) الدولة العباسية، لحسن خليفة ص ١٤٧.

الإمام أحمد بن حنبل
حياته العلمية

الإمام أحمد بن حنبل حياته العلمية

مناقبه

تقدّم الكلام حول المناقب والمؤلفين فيها، وأنّهم جاءوا بأشياء لا واقع لها، وأنّها من نسيج الوهم وتصوير الخيال، وأنّ أكثرهم اندفع وراء العاطفة العمياء، فحال بينهم وبين التفكير الحرّ والوصول إلى الواقع، حتى جعلوا من لا شيء شيئاً، ووضعوا أحاديث تدلّ بمنطوقها على عظمة الشخصية التي يحاولون إبرازها في إطار العظمة التي خرجت بهم عن نطاق البشرية، وارتفعت بها إلى أسمى رتبة من الكمال النفساني.

وقد تعرّضنا في الأجزاء السابقة إلى ذكر بعض المناقب لرؤساء المذاهب الثلاثة بصورة إجمالية، وأنّهم أوردوا أحاديث مبشرات عن النبي (صلى الله عليه وآله)، كلّ ذلك نتيجة التطاحن الطائفي والصراع العقائدي.

أمّا الحنابلة فلم يأتوا بشيء من تلك المبشرات تصريحاً، لتكون في قائمة المرجّحات للاتّباع، ولكنّهم استندوا إلى البعض منها تلميحاً، أو على وجه العموم دون تخصيص، ولكنهم امتازوا بوضع المنامات، وكثرة الأطياف، ولعلّ الكثير منهم جعلها هي المرجحة لاتّباع أحمد واعتناق مذهبه، ويشهد لذلك قول أبي الخطاب المتوفى سنة (٤٧٦ هـ) :

وعن مذهبي إن تسألوا فابن حنبل *** به أقتدي مادمت حياً أمتّع

وذاك لأني في المنام رأيته *** يروح ويغدو في الجنان ويرتع[٣٢٢].

ويقول بعضهم: رأيت أبا الخطاب في المنام فقلت: مافعل الله بك؟ فأنشد:

أتيت ربي بمثل هذا *** فقال ذا المذهب السديد

محفوظ ثم في الجنان حتى *** ينقلك السائق الشهيد[٣٢٣]. ومحفوظ هو اسمه وهو من كلواذ، وكان من شيوخ الحنابلة وأعيانهم، لمّا مات دفن إلى جنب قبر أحمد.

وكثرت المنامات التي تعطي بمؤدّاها صورة عن عظمة شخصية أحمد، وتعلّق العامة به.

(٣٢٢) طبقات الحنابلة ج ١ ص ٤٧.

(٣٢٣) سير أعلام النبلاء ج ١٤ ص ٣٣٥ / الرقم ٤٦٠٥ .

نقل ابن الجوزي عن علي بن إسماعيل، أنّه قال: رأيت أنّ القيامة قد قامت وكأنّ الناس قد جاءوا إلى موضع عند قنطرة، لا يترك أحد يجوز حتى يجيء بخاتم، ورجل ناحية يختم للناس ويعطيهم، فمن جاء بخاتم جاز، فقلت: من هذا الذي يعطي الخواتيم؟ فقالوا: هذا أحمد بن حنبل [٣٢٤].

وقد سبقتهم الحنفية لهذه المنقبة في الاختراع، فقد ذكر المكي في المناقب أن أبا حنيفة رؤي على سرير في بستان، ومعه رق يكتب جوائز قوم، فسئل عن ذلك فقال : إنّ الله قبل عملي ومذهبي وشفّعني في أُمتي، وأنا أكتب جوائزهم.

فقيل له: إلى أيّ غاية يكون علمه حتى تكتب جائزته؟

فقال أبو حنيفة : إذا علم أن التيمّم لا يجوز بالرماد [٣٢٥]. وناهيك مالهذه الأمور من أثر في توجيه شعور العامة. وتعلّق قلوبهم بمن يكون اتّباعه نجاة من عذاب يوم القيامة، وما أكثر هذه الترغيبات في كتب المناقب، والتساهل في نقلها، كما أنّ المالكية يدّعون أنّ مالكاً يمنع منكراً ونكيراً عن مساءلة أصحابه في القبر. ونحن لا نطيل الحديث عن هذه الأمور، ولكنا نشير للبعض منها ممّا جعل كالبشارة بأحمد وترجيح اتّباعه.

ويقول الأسود بن سالم: أتاني آت وقال لي يا أسود الله يقرأ عليك السلام ويقول لك هذا أحمد بن حنبل يرد الأمة عن الضلالة فما أنت فاعل؟ وإلاّ هلكت.

ويقول الحسن الصواف: رأيت ربّ العزّة في المنام فقال لي ياحسن، من خالف أحمد بن حنبل عذّب[٣٢٦].

ويقول أبو عبدالله السجستاني: رأيت رسول الله في المنام، فقلت: يارسول الله، من تركت لنا في عصرنا هذا من أمتك نقتدي به في ديننا؟ قال : عليك بأحمد بن حنبل [٣٢٧].

إلى غير ذلك من المنامات والأطياف التي وضعها أنصار المذهب الحنبلي، ليوجّهوا الناس إليه في عصر طغى فيه تيار التعصّب وجعلت الطائفية أداة لأغراض الولاة، وستاراً تعمل من ورائه الأيدي العابثة التي تحمل معول الهدم وأداة التخريب.

وقد حبذوا القصاصين في استخدام هذه الوسائل تحقيقاً للهدف، ونيلاً للغرض الذي يحصل من وراء ذلك. فتراهم يقومون في الأندية، والمساجد والطرقات، يحدّثون بما

(٣٢٤) مناقب أحمد بن حنبل لابن الجوزي ص ٤٤٦.
(٣٢٥) مناقب أبي حنيفة للموفق ج ٢ ص ٢٠٧.
(٣٢٦) مناقب أحمد بن حنبل لابن الجوزي ص ٤٦٦.
(٣٢٧) مناقب أحمد بن حنبل لابن الجوزي ص ٤٦٨.

يعضد المذهب وانتشاره، فهذا يقصّ عمّن لا يعرفه: بأنه رأى في المنام بعض الصالحين في النوم، فقيل له: مافعل الله بك؟ فقال: غفر لي.

قيل: من وجدت أكثر أهل الجنة؟ قال: أصحاب الشافعي، فقال له: فأين أصحاب أحمد بن حنبل; فأجابه: إنك سألتني عن أكثر أهل الجنة، وماسألتني عن أعلى عليين، أصحاب أحمد في أعلى أهل الجنة، وأصحاب الشافعي أكثر أهل الجنة[٣٢٨].

ويقول الحسين بن أحمد الحربي: رأيت في المنام كأني في الجماعة، وكأنّا قد اعتقلنا، وكأنّي مكروب من الاعتقال، فإذا بقائل يقول: أيّ شيء أنتم؟ فقلت: حنابلة. فقال: قوموا فإنّ الحنابلة لا يعتقلون، وكأن قائلاً يقول: مامن أحد اشتمل على هذا المذهب فحوسب[٣٢٩].

وعن يحيى الحماني، قال: رأيت في المنام كأني في صفة لي إذ جاء النبي (صلى الله عليه وآله)فأخذ بعضادتي الباب، ثم أدّن وأقام، وقال: نجا الناجون وهلك الهالكون.

فقلت: من الناجون؟ قال: أحمد بن حنبل وأصحابه[٣٣٠].

وبهذا النشاط استغل كثير من الكذابين وضع منامات لجلب قلوب العامة، كماترى من رواية الحماني، وهو المعروف بالوضع، والمشهور بالكذب، كما نصّ الحفاظ على ذلك[٣٣١].

وعلى وجه الإجمال فقد كثرت المنامات في شخصية أحمد مرة، وفي مذهبه أخرى، وفي قبره وفضل زيارته ثالثة. وبذلك انتشر لأحمد ذكر ورفعوه عن مستوى البشر.

قال أحمد بن حسين: سمعت رجلاً من خراسان يقول : عندنا أحمد ابن حنبل يرونه أنّه لا يشبه البشر، يظنون أنّه من الملائكة. وقال رجل: نظرة عندنا من أحمد تعدل عبادة سنة[٣٣٢].

وقال بعضهم: ماكنت أحبّ أن أقتل في سبيل الله ولم أصلّ على الإمام أحمد[٣٣٣].

وآخر يقول يوم دفنه: دفن اليوم سادس خمسة وهم: أبو بكر وعمر، وعثمان، وعلي، وعمر بن عبد العزيز وأحمد بن حنبل[٣٣٤].

(٣٢٨) مناقب أحمد بن حنبل لابن الجوزي ص ٥٠٤.
(٣٢٩) مناقب أحمد بن حنبل لابن الجوزي ص ٥٠٥.
(٣٣٠) مناقب أحمد بن حنبل لابن الجوزي ص ٤٧٣، ٥٠٤ .
(٣٣١) وهو يحيى بن عبدالحميد الحماني: راجع ضعفاء العقيلي ج٤ ص٤١٢ ـ ٤١٥، رقم ٢٠٣٩ .
(٣٣٢) مناقب أحمد بن حنبل لابن الجوزي ص ١٥٠.
(٣٣٣) المناقب لابن الجوزي ص ٥٠٤.
(٣٣٤) مناقب أحمد بن حنبل لابن الجوزي ص ٤٢٣ ـ ٤٢٤.

إلى كثير من الأقوال التي صدرت عن أناس تأثروا بدعايات دعاة المذهب عندما سنحت الفرصة، ورجحت الكفّة وانتصر أهل السنة على خصومهم، وفسح الطريق أمامهم لمناصرة السلطة لهم بكلّ شيء.

يحدّثنا ابن الجوزي: أنّه ذكر عند المتوكل بعد موت أحمد أنّ أصحاب أحمد يكون بينهم وبين أهل البدع - وهم غيرهم من الطوائف - الشر، فقال لصاحب الخبر: لا ترفع إليّ من أخبارهم، وشدّ على أيديهم، فإنّهم وصاحبهم من سادة أمة محمد .

وكذلك كان لا يصغي لقول أيّ أحد في أحمد عندما رفع منزلته وقرّبه. يحدثنا ابن كثير أنّ بعض الأمراء أخبر المتوكل أن أحمد لا يأكل لك طعاماً، ولا يشرب لك شراباً، ولا يجلس لك على فراش، ويحرّم ماتشربه.

فقال المتوكل: والله لو نشر المعتصم، وكلّمني في أحمد ماقبلت منه[٣٣٥].

وكتب رجل للمتوكل: أنّ أحمد يشتم آباءك ويرميهم بالزندقة، فكتب المتوكل جواباً يتضمّن عدم الاعتناء، وأمر أن يضرب الرجل الذي رفع إليه الرقعة مائتي سوط، فأخذه عبدالله بن إسحاق فضربه خمسمائة سوط ، فقال له المتوكل: لم ضربته خمسمائة سوط؟

فقال: مائتين لطاعتك وثلثمائة لكونه قذف هذا الشيخ الصالح أحمد ابن حنبل[٣٣٦].

وكما ذكرنا أنّ المتوكل أمر القصاصين وبعض الفقهاء بالحديث عن الرؤية ومايتعلق بذم المعتزلة والجهمية، فلا غرابة أن يتقولوا على الشافعي، (أنه قال: من أبغض أحمد بن حنبل فهو كافر، فقيل له تطلق عليه اسم الكفر؟ فقال: نعم من أبغض أحمد بن حنبل عاند السنة، ومن عاند السنة، قصد الصحابة، ومن قصد الصحابة، أبغض النبي، ومن أبغض النبي (صلى الله عليه وآله) كفر بالله العظيم.

فيكون الناتج: من أبغض أحمد كفر بالله العظيم[٣٣٧].

وبعد وفاته حدثوا عن رؤيتهم أحمد بن حنبل في النوم، عن إسحاق بن إبراهيم: رأيت أحمد بن حنبل في النوم فقلت: يا أبا عبدالله أليس قدْ مُتّ؟ قال: بلى. قلت: فما فعل الله بك؟ قال: غفر لي ولكلّ من صلّى عليّ. قلت: يا أبا عبدالله فقد كان فيهم أصحاب بدع؟ قال: أُولئك أُجرو[٣٣٨] .

(٣٣٥) البداية والنهاية لابن كثير ج١٠ ص ٣٧٣، سير أعلام النبلاء ج١١ ص٢٧٧ الرقم ١٨٧٦.

(٣٣٦) البداية والنهاية لابن كثير ج ١٠ ص ٣٤٠.

(٣٣٧) طبقات الحنابلة ج ١ ص ١٣ .

(٣٣٨) المصدر السابق ج١ ص ١١٠، وانظر مناقب أحمد لابن الجوزي ترى سيلاً من الأحلام والمنامات .

ولسنا نريد هنا استقصاء ماوضع في تلك الفترة حول شخصيّته، ولا نطيل الحديث في ذلك; بعد أن أظهر لنا التحقيق مدى ذلك النشاط الذي سار عليه كثير من رواة المناقب، فهي لا تعطي لنا صورة واقعية.

إنّنا نريد التعرّف على تلك الشخصيات من طريق الواقع، وستقف على أقوال العلماء في الإمام أحمد كما وقفت على أقوالهم في غيره.

شيوخه

ابتدأ أحمد في طلب العلم في سنة (١٧٩ هـ)، أي بعد مضي خمس عشرة سنة، وأوّل شيخ تلقّى عليه العلم هو هشيم بن بشير السلمي المتوفى سنة (١٨٣هـ)، أبو معاوية الواسطي نزل بغداد وكان مدلساً[٣٣٩].

استغرقت دراسة أحمد على هشيم ثلاث سنوات أو أكثر، وقد كتب من إملاء هشيم كتاب الحج نحو ألف حديث، وجانباً من التفسير والقضاء وكتباً صغاراً.

وقد رحل أحمد في طلب الحديث إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والعراق، وممّن تلقى عليهم: سفيان بن عيينة، وإبراهيم بن سعيد، ويحيى بن سعيد القطان المتوفى سنة (١٩٨ هـ)، ووكيع المتوفى سنة (١٩٦ هـ)، وابن عليّة المتوفى سنة (١٩٣ هـ)، وابن مهدي المتوفى سنة (١٩٨هـ)، وعبد الرزاق بن همام المتوفى سنة (٢١١ هـ)، وجرير بن عبد الحميد المتوفى سنة (١٨٨ هـ)، وعلي بن هشام بن البريد، ومعمر بن سليمان المتوفى سنة (١٨٧ هـ)، ويحيى بن أبي زائدة، وأبو يوسف القاضي المتوفى سنة (١٨٢هـ) ، وابن نمير المتوفى سنة (٢٠٦ هـ) ، والحسن بن موسى الأشيب المتوفى سنة (٢٠٩ هـ) ، وإسحاق بن راهويه المتوفى سنة (٢٣٨ هـ) ، وعلي بن المديني المتوفى سنة (٢٣٤ هـ) ، ويحيى بن معين المتوفى سنة (٢٣٣ هـ) [٣٤٠].

واجتمع أحمد بالشافعي وأخذ عنه الفقه وأصوله، وبدأت علاقته بالشافعي في سنة (١٩٥ هـ) ، حين قدم الشافعي بغداد، ودام هذا الاتصال إلى سنة (١٩٧ هـ) ، وهي السنة التي توجّه فيها الشافعي إلى مكة[٣٤١].

ولمّا كان أكثر هؤلاء المشايخ قد تعرّضنا لترجمتهم في أبحاثنا المتقدّمة في الأجزاء السابقة; فقد رأينا أن لا نتعرّض لترجمتهم هنا.

(٣٣٩) أحمد بن حنبل لمحمد أبو زهرة ص ٩٩ - ١٠١.

(٣٤٠) تهذيب الكمال ج ١ ص ٤٣٧ الرقم ٩٦.

(٣٤١) أحمد بن حنبل لمحمد أبو زهرة ص ٣١.

أما الشخصية الأولى التي استقبلته ووجهته ونمّت نزوعه. وجعلت منه طالب سنة، دؤوباً في طلبها، يجوب الأقطار، وهي شخصية هشيم بن بشير بن حازم المتولد سنة (١٠٤ هـ) والمتوفى سنة (١٨٣ هـ).

كان هشيم بخاري الأصل، أقام أبوه في واسط، وكان طبّاخاً للحجاج بن يوسف، ولما انتقلت أسرته إلى بغداد كان يصطنع هذه الصناعة، وقد اشتهر بإعداد بعض أنواع السمك وأجادته، فلما نزع ابنه منزع العلم لم يكن ذلك مألوفاً في أسرته. وقد تلقى هشيم على بعض التابعين كعمر بن دينار، والزهري، ومغيرة بن مقسم، وغيرهم.

وروى عنه شعبة وأحمد وعلي بن المثنى الموصلي وابن معين وخلق آخرون. وقد اختص به أحمد، مدة طويلة قبل أن يتصل بالشافعي، وبعد وفاة هشيم اتصل بالشافعي عندما إلتقى به في مكة، وأثار إعجابه به، فهو يعدّ الموجّه الثاني لأحمد بن حنبل، وكانت بينهما صلة ومودّة.

وقد ذكرنا أنّ أوّل شخصية تلقّى أحمد عنه العلم. هو أبو يوسف القاضي، ولكن لم تطل ملازمته له، كما لازم هشيماً والشافعي، فهما في طليعة شيوخه والموجهين له[٣٤٢].

ولكنّ الغريب من الحنابلة هو جعل المشايخ تلاميذ، فقد ذكروا أنّ الشافعي، وعبد الرزاق بن همام، وابن مهدي، ويزيد بن هارون، والحسن بن موسى الأشيب، وهم من شيوخ أحمد، كانوا من تلامذته[٣٤٣].

وذكروا أنّ البخاري من تلامذة أحمد، وأنّه روى عنه الحديث، مع أنّ البخاري لم يرو له إلاّ حديثاً واحداً في آخر كتاب الصدقات تعليقاً، وروى له مسلم وأبو داود في صحيحيهما والباقون لم يخرّجوا حديثه.

تلامذته

كان لأحمد بن حنبل أصحاب كثيرون: منهم من روى الحديث عنه، ومنهم من روى الحديث والفقه، ومنهم من اشتهر برواية الفقه، وقد أحصاهم صاحب «المنهج الأحمد» في عدد كبير، ولعلّ الحنابلة يبالغون العدد، وأنّه إذا ذهب قدر المبالغة يبقى بعد كثيراً ولا يكون قليلاً [٣٤٤].

(٣٤٢) أحمد بن حنبل أبو زهرة ص ١٠.

(٣٤٣) طبقات الحنابلة ج ١ ص ١٣٩ و ٢٨٠ و ٢٠٩ و ٤٢٢.

(٣٤٤) أحمد بن حنبل لمحمد أبو زهرة ص ١٧٦.

ويجب أن نلحظ هنا أمراً هاماً وهو: أنّه لا خلاف بين العلماء في عدّ الإمام أحمد من المحدثين، لكن الخلاف في عدّه من الفقهاء، فإنّ أكثرهم لم يذكره في عداد الفقهاء، فابن جرير الطبري لم يعد مذهبه في الخلاف بين الفقهاء، وكان يقول: إنّما هو رجل حديث لا رجل فقه[٣٤٥]، وثارت عليه الحنابلة من أجل ذلك، ولم يذكره ابن قتيبة في كتابه (المعارف) من الفقهاء، وذكره المقدسي[٣٤٦] في المحدثين لا في الفقهاء، واقتصر ابن عبد البر في كتاب الانتقاء على الأئمة الثلاثة، أبي حنيفة ومالك والشافعي .

ومن هذا يتبيّن أنّ مدرسته الفقهية لم تكن ذات أثر في عصره، فمن الصعب تحديد نشاطها، واعطاء صورة عن رجالها في عصره، وإنّما اتسعت بعد مدة من وفاته. ولذلك كان موضوع درجه من المحدثين، وتردّد بعض الأعلام في عده من الفقهاء، فأحمد اعتنى جلّ العناية بالحديث، وصرف همّه الى الاهتمام بالرواية والحفظ، فكان مسنده حصيلة عمره، حرّر على يد غيره من تلامذته، ولقد كان شياع ذكره واحتلاله مكانته في بغداد ملابسات المحنة واحداث القول بخلق القرآن.

وعلى أيّ حال فإنّ أشهر أصحاب أحمد ورواة حديثه هم :

أحمد بن محمد بن هاني المعروف بالأثرم

المتوفّى سنة (٢٦١ - ٢٦٢ هـ) الاسكافي، كان جليل القدر عظيماً عند الحنابلة، قال سعد بن عتاب: سمعت يحيى بن معين يقول: كان أحد أبوي الأثرم جنّيّا[٣٤٧]، وقال إبراهيم بن الأصبهاني: أحفظ من أبي زرعة وأتقن.

وقد نقل الأثرم عن أحمد بن حنبل مسائل كثيرة، كجواز المسح على العمامة، وإغنائه عن المسح على الرأس، وأنّ قراءة القرآن بالألحان بدعة لاتستحسن، وأنّ المضمضة والاستنشاق ركنان من أركان الوضوء، وغير ذلك من المسائل كما ذكر ابن أبي يعلى[٣٤٨].

أحمد بن محمد بن الحجاج بن عبد العزيز المروزي

(٣٤٥) أحمد بن حنبل لمحمد أبو زهرة ص ١٦٤.
(٣٤٦) ضحى الإسلام ج ٢ ص ٢٣٥.
(٣٤٧) طبقات الحنابلة ج ١ ص ٧٣.
(٣٤٨) طبقات الحنابلة لأبي يعلى ج ١ ص ٦٦ / ٥٧.

المتوفى سنة (٢٧٥ هـ)، وكان أخصّ أصحاب أحمد به وأقربهم إليه، وأدناهم منه، وهو الذي تولّى غسله لما مات، وكان عنده أثيراً، وهو الذي روى كتاب الورع عن أحمد، ولقد نقل الخطيب البغدادي تكذيب رواية كتاب الورع عن غيره.

وكان أحمد يثق بورعه وعقله، حتى أنّه كان يقول : كلّ ما قلت على لساني فأنا قلته.

قال المروزي: قلت لأبي عبد الله أحمد بن حنبل: أترى أن يكتب الرجل كتب الشافعي؟ قال: لا. قلت: أترى أن يكتب الرسالة - أي رسالة الشافعي - ؟ قال: لا تسألني عن شيء محدث، قلت: كتبتها؟ قال: معاذ الله.

وقال أيضاً قال أحمد: لا تكتب كلام مالك، ولا سفيان، ولا الشافعي، ولا إسحاق بن راهويه، ولا أبي عبيد.

توفي المروزي في جمادى الأولى سنة (٢٧٥ هـ)[٣٤٩].

إبراهيم بن إسحاق الحربي

المتوفى سنة (٢٨٥ هـ) كان من أعيان تلامذة أحمد والمختصّ به، وقد لازمه مدة عشرين سنة، وأخذ عنه الحديث والفقه وصنّف كتباً كثيرة منها: غريب الحديث، ودلائل النبوّة وكتاب الحمام، وسجود القرآن، وذم الغيبة، والنهي عن الكذب وغير ذلك[٣٥٠].

صالح بن أحمد بن حنبل

وهو أكبر أولاده، وقد تلقّى الفقه والحديث عن أبيه، وعن غيره من معاصريه، ونقل إلى الناس كثيراً من مسائل الفقه التي أفتى فيها أبوه، وكان الناس يكتبون إليه من خراسان ليسأل أباه عن مسائل، فكان يرسل إليهم الأجوبة التي يتلقّاها عنه، وكان قد تولى القضاء بإصبهان وطرسوس ومات بأصبهان سنة(٢٦٦ هـ)[٣٥١].

عبدالله بن أحمد بن حنبل

(٣٤٩) تاريخ بغداد ج ٥ ص١٨٨ / الرقم ٢٦٣٣.
(٣٥٠) تاريخ بغداد ج ٦ ص ٢٧ الرقم ٣٠٥٩.
(٣٥١) طبقات الحنابلة ج ١ ص ١٧٣ الرقم ٢٣٢.

المتوفّى سنة (٢٩٠ هـ) روى الحديث عن أبيه وعن كثيرين غيره، كعبد الاعلى بن حماد وكامل بن طلحة، ويحيى بن معين، وأبي الربيع وغيرهم[٣٥٢].

وهو الذي روى المسند وتمّمه كما سيأتي بيانه، وقد روى عن أبيه مسائل كثيرة، ومن غريب مارواه عنه أنّه قال: قبور أهل السنة من أهل الكبائر روضة، وقبور أهل البدعة من الزهاد حفرة، فساق أهل السنة أولياء الله، وزهاد أهل البدعة أعداء الله [٣٥٣].

وهذا القول لا يمكن أن يصدر من رجل كأحمد بن حنبل واتصافه بالورع والتقوى، فإنّ مؤدّى هذا القول إبطال العمل، وترك الواجبات، والتحلل من كلّ شيء، فإذا كان مرتكب الكبيرة هو ولي الله لأنّه من أهل السنّة، فما معنى السنة هنا وكيف يصحّ ذلك؟ والعهدة على الرواة.ولنكتفِ بذكر هؤلاء من أصحاب أحمد الذين نقلوا فقهه كأنموذج. وسنتعرّض لذكر آخرين عند حديثنا عن رجال المذهب والمؤلفين فيه .

كتبه وآثاره

لم يصنّف أحمد بن حنبل كتاباً في الفقه يعدّ أصلاً يؤخذ من مذهبه أو يعتبر مرجعه، ولم يكتب إلاّ الحديث، وقد ذكر العلماء أنّ له بعض كتابات في موضوعات فقهية منها المناسك الكبير، والمناسك الصغير ورسالة صغيرة في الصلاة قصيرة، ظهرت في عدّة طبعات في القاهرة.

وهذه الكتابة هي أبواب قد توافر فيها الأثر، وليس فيها رأي أو قياس أو استنباط فقهي، بل اتّباع لعمل، وفهم للنصوص.

فرسالته في الصلاة، والمناسك الصغير والكبير وهي كتب حديث، وإن كانت في موضوعات ممّا تناولها بالبسط والشرح [٣٥٤].

وعلى الجملة فإنّ المشهور عن أحمد أنّه كان يكره وضع الكتب التي تشتمل على التفريع والرأي. فقد قال يوماً لعثمان بن سعيد: لا تنظر إلى مافي كتب أبي عبيد ولا فيما وضع إسحاق، ولا في ما وضع سفيان ولا الشافعي ولا مالك وعليك بالأصل [٣٥٥].

(٣٥٢) طبقات الحنابلة ج ١ ص ١٨٠ الرقم ٢٤٩.
(٣٥٣) طبقات الحنابلة ج ١ ص ١٨٤.
(٣٥٤) أحمد بن حنبل ص ١٦٨.
(٣٥٥) أحمد بن حنبل «لمحمد أبو زهرة» ص ١٦٥.

قال ابن بدران الدمشقي: وحيث إنّ الإمام أحمد كان يحبّ توفر الالتفات إلى النقل، ويختار التواضع، استغل أوقاته في جمع السنة والأثر وتفسير كتاب الله، ولم يؤلف كتاباً في الفقه، غاية ماكتب فيه (رسالة في الصلاة)، كتبها إلى إمام صلّى وراءه فأساء في صلاته، وهي رسالة قد طبعت ونشرت في أيامنا هذه، فعلم الله من حسن نيّته وقصده فكتب عنه أصحابه من كلامه وفتواه أكثر من ثلاثين سفراً انتشرت كلّها في الآفاق .

ثم جاء أحمد بن هارون الخلال المتوفى سنة (٣٣١ هـ)، فصرف عنايته إلى جمع علوم أحمد وإلى كتابة ماروي عنه، وطاف لأجل ذلك البلاد، وسافر للاجتماع بأصحاب أحمد، وكتب ماروي عنه بالأسناد، وصنّف كتباً في ذلك [٣٥٦].

والغرض أنّ أحمد كان ينهى عن التدوين لأقواله وآرائه، وقد صرّح بذلك مراراً.

روى ابن أبي يعلى: أنّ رجلاً قال لأبي عبدالله: أُريد أن أكتب هذه المسائل. فقال له أحمد: لا تكتب شيئاً فإني أكره أن أكتب رأيي. وأحس مرة بإنسان يكتب ومعه ألواح في كمّه. فقال أحمد: لا تكتب رأيي، لعلّي أقول الساعة بمسألة ثم أرجع غداً عنها.

وقال: إنّما كانوا يحفظون ويكتبون السنن إلاّ الواحد بعد الواحد الشيء اليسير منه، فأمّا هذه المسائل تدوّن وتكتب من ديوان الدفاتر فلست أعرف فيها شيئاً، وإنّما هو رأي لعله قد يدعه غداً، وينتقل عنه الى غيره... أُنظر الى سفيان ومالك حين أخرجا ووضعا الكتب والمسائل كم فيها من الخطأ؟ وإنمّا هو رأي يرى اليوم شيئاً وينتقل عنه غداً والرأي قد يخطئ[٣٥٧]. هذا ماعلّل به من كراهيته، ومرة أُخرى أنّه كان يرى أنّ كتابة الرأي محدثة أو بدعة.

مسند الإمام أحمد

والمسند هو مجموعة كبيرة من جملة أُصول السنة يشتمل على أربعين ألف حديث تكرر منها عشرة آلاف، ومنها ثلثمائة حديث ثلاثية الأسناد - أي بين رواتها والرسول ثلاث رواة - .

وقد سئل أحمد عن حديث فقال: أُنظروه فإن كان في المسند وإلاّ فليس بحجة[٣٥٨].

(٣٥٦) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل ص ٤٦ - ٤٧.
(٣٥٧) الطبقات لابن أبي يعلى ج١ ص ٣٩ و ٢١٤.
(٣٥٨) سير أعلام النبلاء ج ٩ ص ٥٢٩ الرقم ١٨٧٦.

وقد كان أحمد قد شرع في جمع المسند فكتبه في أوراق منفردة، وفرّقه في أجزاء متفرقة، فمات قبل تنقيحه وتهذيبه، فبقي على حاله ثم إنّ ابنه عبدالله ألحق به مايشاكله، وضمّ إليه من مسموعاته مايشابهه ويماثله.

وكثر الخلاف حول المسند وأحاديثه، وجمعه وترتيبه، ورتبته من كتب الأسانيد.

وقد حكم ابن الجوزي على عدّة أحاديث بالوضع [٣٥٩]. وقال الذهبي في سيرة النبلاء: فيه - أي مسند أحمد - جملة من الأحاديث الضعيفة ممّا لا يسوغ نقلها، ولا يجب الاحتجاج بها، وفيه أحاديث معدودة شبيهة بالموضوعة، لكنها قطرة في بحر[٣٦٠].

واعتذر ابن تيمية: بأنّ عبدالله بن أحمد قد زاد على مسند أحمد زيادات، وزاد أبو بكر القطيعي زيادات، وفي زيادات القطيعي أحاديث كثيرة موضوعة، فظنّ الجهال أنّه من رواية أحمد، رواها في المسند وهذا خطأ قبيح. وخالفه العراقي وادّعى أن في مسند أحمد موضوعات وصنّف جزءاً مستقلاً[٣٦١].

وصنّف الحافظ ابن حجر كتاب : (القول المسدّد في الذب عن مسند أحمد)، نقل فيه جزء شيخه العراقي حرفاً حرفاً، وأجاب عنه حديثاً حديثاً.

ورتبة مسند أحمد في الطبقة الثانية من كتب الأسانيد، ولا يلحق بالصحيحين وموطأ مالك، وقيل بعد الصحاح الخمسة، وبعد موطأ مالك، وصرّح الخطيب وغيره بأنّ الموطأ مقدّم على كلّ كتاب من الجوامع والمسانيد.

وقال ابن حزم: أولى الكتب الصحيحان، ثم صحيح سعيد بن السكن، والمنتقى لابن الجارود، ثم بعد هذه الكتب كتاب أبي داود، وكتاب النسائي، ومصنف الطحاوي، ومسانيد أحمد والبزار[٣٦٢].

ونرى من المناسب نقل بعض ماذكره الأستاذ محمود أبو رية في كتابه (أضواء على السنة المحمدية) بعد ذكره لرتبة بقية المسانيد:

أما مُسند أحمد خاصة فإنّنا ننقل بعض كلام أئمّة المحدثين فيه، مبتدئين بقول شيخ الإسلام وإمام الحنابلة بعد أحمد، ابن تيمية، وليس علينا بعد أن ننقل ماننقل أن يغضب أحد ممّن يدعون في عصرنا أنهم من رجال الحديث، لأنّ الحقّ أحقّ أن يتّبع،

(٣٥٩) أحمد بن حنبل لأبو زهرة ص ١٧٦.
(٣٦٠) سير أعلام النبلاء ج ٩ ص ٥٢٩ الرقم ١٨٧٦.
(٣٦١) أحمد بن حنبل لأبو زهرة ص ١٧٥ - ١٧٦.
(٣٦٢) قواعد التحديث للقاسمي ص ٢٣٧.

وماسوينا هذا الكتاب إلاّ لنرضي الحقّ وحده، فإذا ما غضب غاضب فليكن غضبه من الحقّ لا منّا[٣٦٣].

قال ابن تيميّة من كلام له عن أبي نعيم: أنّه روى - أي أبو نعيم - كثيراً من الأحاديث التي هي ضعيفة، بل موضوعة باتفاق العلماء المحدثين أمثاله، يروون جميع مافي الباب لأجل المعرفة بذلك، وإن كان لا يحتجّ من ذلك إلاّ ببعضه، والناس في مصنّفاتهم، منهم من لا يروي عمّن يعلم انّه يكذب مثل مالك وشعبة وأحمد بن حنبل، فإنّ هؤلاء لا يروون عن شخص ليس بثقة عندهم، ولا يروون حديثاً يعلمون أنّه عن كذاب، من الذين يعرفون بتعمّد الكذب، لكن قد يتفق فيما يرون مايكون صاحبه أخطأ فيه، وقد يروي الإمام أحمد وإسحاق وغيرهما أحاديث تكون ضعيفة عندهم لإتهام رواتها بسوء الحفظ ونحو ذلك; ليعتبر بها ويستشهد بها، فإنّه قد يكون لذلك الحديث مايشهد له أنّه محفوظ، وقد يكون له مايشهد بأنّه خطأ، وقد يكون صاحبه كذاباً في الباطن، ليس مشهوراً بالكذب، بل يروي كثيراً من الصدق فيروى حديثه، وكثير من المصنّفين يعزّ عليه ذلك على وجهه، بل يعجز عن ذلك. فيروي ماسمعه كما سمعه، والدرك على غيره لا عليه [٣٦٤]. وقال: وليس كلّ مارواه أحمد في المسند وغيره يكون حجة عنده، بل يروي مارواه أهل العلم، وشرطه في المسند أن لا يروي عن المعروفين بالكذب عنده وإن كان في ذلك ماهو ضعيف... وأما كتب الفضائل فإنّه لم يقصد أن لا يروي في ذلك إلاّ ماثبت عنده. ثم زاد ابن أحمد زيادات، وزاد أبو بكر القطيعي زيادات، وفي زيادات القطيعي أحاديث كثيرة موضوعة[٣٦٥].

ويقول - اي ابن تيمية - يرد على من استشهد بحديث رواه أحمد وهو كذب: وبتقدير أن يكون أحمد روى الحديث، فمجرد رواية أحمد لا توجب أن يكون صحيحاً يجب العمل به، بل الإمام أحمد روى أحاديث كثيرة لتعرف ويبين للناس ضعفها. وهذا الكتاب - مسند أحمد - زاد فيه ابنه عبدالله زيادات، ثم أنّ القطيعي الذي روى عن ابنه عبدالله - أي ابن أحمد - زاد عن شيوخه زيادات فيها أحاديث موضوعة باتّفاق أهل المعرفة[٣٦٦].

ثم ذكر بقية كلام ابن تيمية في كتاب التوسّل والوسيلة، وذكر قول ابن كثير في كتاب اختصار علوم الحديث، ثم قال:

(٣٦٣) أضواء على السنة المحمدية ص ٢٩٣.
(٣٦٤) منهاج السنة ج ١ ص ١٥.
(٣٦٥) منهاج السنة ج ٤ ص ٢٧.
(٣٦٦) منهاج السنة ج٤ ص ٦١.

وأما قول الحافظ بن موسى محمد بن أبي بكر المديني في مسند أحمد أنّه صحيح، فقول ضعيف، فإنّ فيه أحاديث ضعيفة بل موضوعة كأحاديث فضائل مرو، وعسقلان، والبرث الأحمر عند حمص، وغير ذلك، كما نبّه عليه طائفة من الحفاظ، ثم إن الإمام أحمد قد فاته في كتابه أحاديث كثيرة جداً، بل قد قيل : إنّه لم يقع له جماعة من الصحابة الذين في الصحيحين إلاّ قريباً من مائتين.

ثم قال: وقال بعض الناظرين في مسند أحمد: الحقّ أنّ في المسند أحاديث كثيرة ضعيفة، وقد بلغ بعضها في الضعف إلى أن أدخلت في الموضوعات.ولمّا قال الإمام أحمد: هذا الكتاب جمعته وانتقيته من (٧٥٠)ألف حديث، فما أختلف المسلمون من حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله)فارجعوا إليه، فإن وجدتموه وإلاّ فليس بحجة. قال الحافظ أبو عبدالله الذهبي: هذا القول منه على غالب الأمر، وإلاّ قلنا أحاديث قوية في الصحيحين والسنن والأجزاء ماهي في المسند، وقدر الله تعالى أنّ الإمام قطع الرواية قبل تهذيب المسند، وقبل وفاته بثلاث عشرة سنة، فنجد في الكتاب أشياء مكررة ودخول مسند في مسند، وسند في سند وهو نادر[٣٦٧].

وللحافظ ابن الجوزي كلمة في كتابه (صيد الخاطر) بشأن المسند ننقلها بحروفها عن مقدمة الجزء الأوّل من المسند، طبع دار المعارف: قال، فصل: كان قد سألني بعض أصحاب الحديث : هل في مسند أحمد ماليس بصحيح؟ فقلت: نعم. فعظم ذلك على جماعة ينسبون إلى المذهب، فحملت أمرهم على أنّهم عوام، وأهملت فكر ذلك، وإذا بهم قد كتبوا فتاوى، فكتب فيها جماعة من أهل خراسان منهم أبو العلاء الهمداني، يعظّمون هذا القول ويردّونه ويقبحون قول من قاله، فبقيت دهشاً متعجباً. وقلت في نفسي: واعجباً، صار المنتسبون إلى العلم عامة أيضاً! وماذاك إلاّ أنّهم سمعوا الحديث ولم يبحثوا عن صحيحه وسقيمه، وظنّوا أنّ من قال ماقلته قد تعرّض للطعن فيما أخرجه أحمد وليس كذلك; فإنّ الإمام أحمد روى المشهور والجيد والرديء، ثم هو قد رد كثيراً ممّا روى ولم يقل به، ولم يجعله مذهباً له. أليس هو القائل في حديث الوضوء بالنبيذ مجهول؟ ومن نظر في كتاب (العلل) الذي صنفه أبو بكر الخلال رأى أحاديث كثيرة كلّها في المسند، وقد طعن فيها أحمد.

قال القاضي: وقد أخبر عن نفسه كيف طريقه في المسند، فمن جعله أصلاً للحصة فقد خالفه وترك مقصده.

(٣٦٧) مقدمة مسند أحمد ص ٣٠ و ٣١.

قلت: - القول لابن الجوزي - قد غمّني في هذا الزمان [٣٦٨] أنّ العلماء لتقصدهم في العلم صاروا كالعامة، وإذا مرّ بهم حديث موضوع قالوا: قد روي[٣٦٩]، والبكاء ينبغي أن يكون على خساسة الهمم ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العليّ العظيم.

هذا مارأينا نقله ممّا قال الأئمة الكبار في مسند أحمد، وهو كاف في التعريف به وبيان قيمته في نفسه لا فيما هو مشهور عنه، وأنّه من المصادر التي لا يعول عليها أو يحتج بها شأنه شأن سائر المسانيد[٣٧٠].

وأحاديث المسند تنقسم إلى ستة أقسام:

١ - قسم رواه عبدالله عن أبيه سماعاً وهو المسمى بمسند الإمام أحمد.

٢ - وقسم سمعه عبدالله من أبيه ومن غيره.

٣ - وقسم رواه عن غير أبيه وهو المسمى عند المحدثين بزوائد عبدالله، وهو كثير بالنسبة للأقسام كلّها عدا القسم الأوّل.

٤ - وقسم قرأه عبدالله على أبيه ولم يسمعه منه وهو قليل.

٥ - وقسم لم يقرأه ولم يسمعه، ولكنّه وجده في كتاب أبيه بخطّه.

٦ - وقسم رواه أبو بكر القطيعي من غير عبدالله وأبيه، وكلّ هذه الأقسام من المسند إلاّ الثالث والسادس فإنّهما من زوائد عبدالله والقطيعي.

وقد تولّى شرحه واختصاره جماعة من العلماء: منهم أبو الحسن بن عبد الهادي السندي، المتوفى سنة (١١٢٩ هـ) نزيل المدينة المنورة.

واختصره زين الدين عمر بن أحمد السماع الحلبي وسمّى مختصره «در المنتقد من مسند أحمد»، ولذلك اختصره سراج الدين عمر بن علي المعروف بابن الملقني الشافعي المتوفى سنة ٨٠٥ هـ.

(٣٦٨) ولد ابن الجوزي سنة (٥١٠ هـ) ومات سنة (٥٩٧ هـ) .

(٣٦٩) مقدمة مسند أحمد ص ٥٦ - ٥٧.

(٣٧٠) أضواء على السنة المحمدية للأستاذ محمود أبو ريه ص ٢٩٣ - ٢٩٨.

الإمام أحمد بن حنبل
عصره وحوادثه

الإمام أحمد بن حنبل عصره وحوادثه

عصره

يمتدّ عصر الإمام أحمد من عهد المهدي العباسي إلى عهد المتوكل، أي من سنة (١٦٤ هـ) إلى سنة (٢٤١ هـ).

وكان عصره عصر ازدهار، فقد أخذت الدولة العباسية مكانتها في المجتمع، وثبتت قواعدها على عهد الرشيد، والمأمون، والمعتصم، فعظم شأنها وامتدّ سلطانها.

وفي عهده كانت حادثة الخلاف بين الأمين والمأمون سنة (١٩٥ هـ) وقيام حرب طاحنة بينهما على الملك، فسالت الدماء في العراق وخراسان، واستقر الأمر للمأمون بعد ذلك، وفي أيامه ابتدأت محنة القول في خلق القرآن سنة (٢١٨ هـ)، التي كانت من أعظم عوامل شهرة أحمد، كما قلنا أنّه لم يكن لأحمد نشاط يذكر في أيامه الأولى، أو اشتهر ذكره ونشر اسمه وإنّما شهرته كانت في أيام المحنة بعد عهد المأمون.

وقد كان عصره أزهر العصور لقوة الدولة، وامتداد سلطانها، وقد فاضت الثروة، وامتلأت خزائن الدولة، وزاد العمران، وامتدّت الحضارة، وتنعم أرباب المناصب والمقرّبون للسلطان بمباهج الحياة، ونعموا بخيرات البلاد وكانت لهم الثروات الطائلة، وعمرت مجالس العلم والأدب، وأمست دور الكبراء مدارس يغشاها أرباب الفكر وحملة الآثار والأشعار، وقادة الفكر، وأمراء البلاغة والبيان، كما وقد تفنّن أرباب النعيم وذوي الثراء في اتخاذ مجالس اللهو، وتباروا في اقتناء المغنيات، وتنافسوا في شرائها بأغلى الأثمان، كما كانت بيوت الخلفاء مجالس للغناء والشراب، يتبارى فيها المغنّون في إطراب الخلفاء، وفي اتحافهم بكلّ صوت.

وقد احتفظت كتب الأدب بكثير من أخبارهم، فهم يتذوقون الغناء ويطربون عليه، ويجيزون المغنين ويصلونهم بأسنى الصلات، وكان معظمهم يحسن الغناء ويعرف أصوله، ويصنع أصواتاً يغنّيها هو أو يلقيها على جواريه أو على المغنين ليغنوها، كما كان هارون الرشيد والواثق أكثر ماكان في حاشيتهما من المغنين.

وكان إبراهيم بن المهدي أخو الرشيد قد بلغ منزلة في الغناء وعرف بشيخ المغنين، وكانت عليه بنت المهدي تغني أحسن غناء، وكان أخوها يعقوب يزمر لها على الغناء[٣٧١]، وكان الرشيد يعلم ذلك، وقد غنّت جارية ذات يوم:

(٣٧١) الأغاني ج ٩ ص ٨٤.

يا موري الزند قد أعيت قوادحه *** إقبسْ إذا شئت من قلبي بمقياس
ما أقبح الناس في عيني وأسمجهم *** إذا نظرت فلم أبصرك في الناس

فأراد الرشيد أن يعرف لمن الصوت فأسرت إليه جارية إنّه لعلية أخته.

وروى أبو الفرج عن أحمد بن زيد قال حدثني أبي قال : كنّا عند المنتصر فغناه منان لحناً من الرمل الثاني.

ياربة المنزل بالبرك *** وربة السلطان والملك
تحرجي بالله من قتلنا *** لسنا من الديلم والترك

فضحكت، فقال لي: ممّ ضحكت؟ قلت: من شرف قائل هذا الشعر، وشرف من عمل اللحن فيه وشرف مستمعه.

قال: وماذاك؟ قلت: الشعر فيه للرشيد، والغناء لعلية بنت المهدي، وأميرالمؤمنين مستمعه[٣٧٢].

وكان إهتمام الرشيد بالغناء والمغنين عظيماً، فقد قرّب منهم عدداً وافراً، وأجزل العطاء عليهم، وكان يجمعهم في مجلس واحد ويقترح عليهم في الأصوات ليطرب، فمن أطربه نال أسنى الجوائز وأعظم الصلات[٣٧٣]. وقد اختار له إسحاق الموصلي من الغناء مائة صوت، وقد عرفت بالأصوات المائة المختارة، التي وضع أبو الفرج الأصبهاني فيها كتاب الأغاني[٣٧٤].

كما كانت في بغداد نواد للغناء واللهو، فيها القيان اللاتي يُحسنَّ الغناء، ويقصدهنَّ الفتيان الظرفاء يتغازلون ويشربون ويلهون.

وكان الأمين شديد الطرب إلى الغناء واسع العطاء إذا طرب، وقد وصفه إسحاق الموصلي فقال: ماكان - أي الأمين - يبالي أين قعد ومع من قعد، ولو كان بينه وبين ندمائه مائة حجاب خرقها كلّها، وألقاها عن وجهه حتى يقعد حيث قعدوا، وكان من أعطى الخلق لذهب وفضة، وأوهبهم للأموال إذا طرب أولّها، وقد رأيته أمر لبعض أهل بيته بحمل زورق ذهباً، وأمر لي ذات ليلة بأربعين ألف دينار.

(٣٧٢) الأغاني ج ٩ ص ٨١ .

ورحم الله أبا فراس الحمداني إذ يقول مقارناً بينهم وبين علي:

تنشى التلاوة في أبياتهم سحراً *** وفي بيوتكم الأوتار والنغم
منكم عليه أم منهم وكان لكم *** شيخ المغنين إبراهيم أم لهم
إذا تلوا سورة غنى أمامكم *** قف بالطلول التي لم يعفها القدم
مافي بيوتهم للخمر معتصر *** وفي بيوتكم للسوء معتصم
الركن والبيت والأستار منزلهم *** وزمزم والصفا والحجر والحرم

(٣٧٣) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٧٨.

(٣٧٤) الأغاني ج ١ ص ١ ومابعدها.

وحتى في أعسر ساعات حياته عند ماأحيط به كان يستمع إلى الغناء.

فبينما كانت حجارة المنجنيق تصل بساطه كانت إحدى الجواري تغنيه[٣٧٥].

وقد كان البذخ والإسراف وتبذير الأموال في وجوه الملذّات أمراً يبعث على الدهشة والاستغراب، وبلغ الترف إلى أقصى حدّ. ولم يكن هذا الترف والبذخ يعم طبقات الناس، بل كان هناك ملايين من أبناء الأمة يعانون الحرمان، ويقاسون ألم الفاقة، ومنهم المظلومون الذين جار عليهم جباة الأموال فسلبوهم مايسدون به الحاجة، ومنهم من غصبهم السلطان وأعوانه أموالهم وضياعهم، ولا يجدون من يسمع أصواتهم إذا رفعوها بالتظلّم، كما ليس لهم طمع في ردّ ظلامتهم.

وسار العمال في إرهاق الرعيّة على الوجه الذي يخالف نظام الإسلام، فأصبحت الأموال تجبى بأقسى وسائل الظلم، وتصرف في ضروب من الإسراف وأنواع من الترف.

أحداث عصره

وظهرت في عصر أحمد العصبية العنصرية، فاشتدّ النزاع بين العرب والفرس والترك، (وكان العرب قد ضعف أمرهم في نزاعهم مع الفرس فجاءت قوة الترك ضغثاً على إبالة).

واستولى الأتراك على الأمور عندما كثر جمعهم وعظمت شوكتهم، وبدأت العصبية ضد الأتراك من عهد دخولهم بغداد في عهد المعتصم، وشكا إليه الناس من جورهم وسوء تصرّفهم، وقد هجاه دعبل الخزاعي بقوله:

لقد ضاع أمرالناس حيث يسوسهم *** وصيف واشناس وقد عظم الخطب

وإني لأرجو أن ترى من مغيبها *** مطالع شمس قد يغصّ بها الشرب

وهمك تركي عليه مهانة *** فأنت له أمّ وأنت له أب[٣٧٦]

واشتدت محنة أهل بغداد من عبث الأتراك وتعسّفهم، وكانوا لا يستطيعون مقابلتهم، لأنّ السلطان قد لحظهم بالعناية وجعلهم محل ثقته، حتى بلغ الأمر بالمعتصم أنّه كتب إلى واليه على مصر، وهو كيدر- واسمه نصر بن عبدالله - ، يأمره بإسقاط من في الديوان من العرب وقطع أعطياتهم.

(٣٧٥) التاج ص ٤٢ - ٤٣.

(٣٧٦) ديوان دعبل الخزاعي ص ٤٢.

وعلى أيّ حال، فقد أصبحت الأمور في يد الأتراك، وأصبحوا مصدر قلق واضطراب، فهم يكرهون العرب، وهم أنفسهم ليسوا في وفاق بعضهم مع بعض، وهم لا ينقطعون عن المؤامرات والدسائس، وتعصّب كلّ فريق لقائد منهم، وبهذا أصبحت دار السلام وماحولها ليست دار سلام، إذ غلبت على ذوي السلطة شهواتهم الآثمة، فلا تطرق سمعهم صرخات المفجوعين ولا استغاثة المتظلمين، ولا ينفذ بصرهم إلى مايعانيه ذلك المجتمع المنكوب، الذي دبّ في جسمه داء الجهل والفوضى وحبّ الشهوات، وهم ساهون يعدّون أنفسهم سعداء في شقاء الأمة وأغنياء بافتقارها.

وقد ثارت في عصر الإمام أحمد عاصفة العداء بين الطوائف، واشتدّت الخصومة بينها. ممّا أدّت إلى حلول الكراهية ووقوع الشر بين أفراد وطبقات المجتمع آنذاك.

وكان المحدّثون يغذّون روح الكراهية تجاه أعدائهم وخصومهم، فذهبوا إلى تكفير المعتزلة، وتكفير كلّ من يقول بخلق القرآن، إذ يقول أبو عبدالله الدهلي المتوفى سنة (٢٥٥ هـ) : من زعم أن القرآن مخلوق فقد كفر وبانت منه امرأته، فإن تاب وإلاّ ضربت عنقه، ولا يدفن في مقابر المسلمين، ومن وقف وقال: لا أقول مخلوق أو غير مخلوق فقد ضاهى الكفر، ومن زعم أن لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع ولا يدفن في مقابر المسلمين[٣٧٧].

وعلى أيّ حال فقد قويت روح الكراهية بين أفراد المجتمع فاشتدت المنازعات وكثرت الخصومة، وتطوّر الأمر وازدادت الحوادث، وسارت العامة من أبناء الأمة على هذا النهج، حتى أنّ امرأة تقدّمت إلى قاضي الشرقية عبدالله بن محمد الحنفي فقالت: إنّ زوجي لا يقول بمقالة أمير المؤمنين ففرق بيني وبينه[٣٧٨].

ومن تلك الحوادث: أنّ الواثق لما أستفك من الروم أربعة آلاف من الأسارى اشترط فيهم أنّ من قال: القرآن مخلوق يخلص من الأسر، ويعطى دينارين، ومن امتنع عن ذلك فيترك في الأسر ولا يفك [٣٧٩].

وهذا محمد بن الليث قاضي مصركان حنفياً، فانتهز محنة خلق القرآن فأوقع بأصحاب الإمام مالك والشافعي، ومنع فقهاءهم من الجلوس في المسجد، وقال شاعر مصر الحسين بن عبدالسلام الجمل يخاطبه:

وليت حكم المسلمين فلم تكن *** برم اللقاء ولا بفظ أزور

ولقد بجست العلم في طلابه *** وفجرت منه ينابعاً لم تفجر

(٣٧٧) أنظر ضحى الإسلام ج ٣ ص ١٦١ - ٢٠٧.

(٣٧٨) تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٧٤.

(٣٧٩) طبقات الشافعية ج ٣ ص ٢٢ وتاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ١٩٤.

فحميت قول أبي حنيفة بالهدى *** ومحمد واليوسفي الأذكر
وحطمت قول الشافعي وصحبه *** ومقالة ابن علية لم تضجر
والمالكية بعد ذكر شائع *** اخملتها فكأنها لم تذكر(٣٨٠)

وممّا تقدّم يتبيّن أنّ مشكلة خلق القرآن قد زادت من أحداث الفرقة في المجتمع الإسلامي، ومن جراء هذه الحوادث التي صاحبت هذه المحنة العامة والمشكلة الاجتماعية فتح باب التدخل من قبل أعداء الإسلام، وكانت الخصومة والتفرقة التي مني بها المسلمون آنذاك، هي الدافع الرئيسي الذي نشّط القوى المعادية للإسلام، فقد عملوا على توسيع رقعة الخلاف بين أفراد المجتمع وطبقاته، لإيقاع الفتنة تحقيقاً لأهدافهم.

وقد نجحت أساليبهم التي اتّبعوها، والوسائل التي اتخذوها، لأنها كانت تحمل طابع الحرص على الإسلام، لتجتذب إلى صفوفهم أناساً دفعتهم سلامة ضمائرهم إلى الدفاع عنها وكأنّها دفاع عن الإسلام، ولم تقتصر فئاتهم على هذه الطائفة فقط، بل انضم في سلكهم انتهازيون، وجدوا بذلك خير فرصة لتحقيق أغراضهم، ونيل مآربهم للوقيعة بخصومهم، إذ خرجت المنازعات عن حدودها، فتجنّى كلّ فريق على الآخر، وأخذ كلّ أحد يرمي الآخر بالكفر.

وفي وسط ذلك التيّار الجارف من الخصومة والعداء، استطاعت الأغراض والأهواء أن تنفذ إلى الأحاديث النبوية، وهي إحدى الدعائم التي يقوم عليها الدستور الإسلامي، ليتمّ لهم آنذاك التلاعب بمقدّرات الإسلام وتوجيهها صوب تحقيق أغراضهم وأهدافهم.

فلقد وضع الوضّاعون أحاديث تتفق مع هذه النزعة، ونسبوها لرسول الله (صلى الله عليه وآله)وهم يدّعون أنّ ذلك نصرة للدين، وتقوية للمسلمين. فإذا ما حوججوا وأمروا بالكف عن ذلك قالوا: إنّما نقول له لا عليه.

وناهيك بما قام به الدعاة على المنابر، لتوجيه الرأي العام نحو جهة معينة، وحصر الإسلام عليها، وتخصيصها به، فلم يكن فيه نصيب لغيرهم، ولا في الجنة مكان لسواهم، وقد غرق الناس في تلك المنازعات الدينية والسياسية مدة طويلة، حتى امتدت جذور تلك الفتنة إلى عصور متأخرة عن عصر الإمام أحمد; فاشتدّ الموقف حراجة، ووقف كلّ يتربص بالآخر، ممّا أدّى إلى نشوب حروب دموية ووقوع الخراب في كثير من البلاد الإسلامية، فأُحرقت جوامع، وهُدمت مساجد، ونهبت

(٣٨٠) القضاة للكندي ص ٣٧١.

أموال، وأُريقت دماء. إلى غير ذلك من الأمور التي خلّفت أوضاعاً سيئة، ومع كلّ هذا والمجال يتّسع أمام المتدخلين في صفوف المسلمين للعمل على تمزيق وحدة الصف واتساع دائرة الخلاف.

(يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ ا لْكَافِرُونَ* هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ ا لْحَقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدّينِ كُلّهِ وَلَوْ كَرِهَ ا لْمُشْرِكُونَ)[٣٨١].

وبقي شيء يتعلق بعصر أحمد، وهو ترجمة الملوك الذين جرت المحنة على أيديهم، فلا بأس أن نلمّ بذلك إلماماً وإن كان خارجاً عمّا رسمناه.

المأمون

هو عبدالله بن هارون الرشيد، كنيته أبو جعفر أو أبو العباس، وأمّه أُم ولد، يقال لها مراجل الباذغيسية، ولد في ربيع الأول سنة (١٧٠ هـ)، وتوفي سنة (٢١٨ هـ) وكان أديباً شجاعاً، له ولع ومشاركة في كثير من العلوم، متعطّشاً للآداب، محبّاً للنقاش والجدل، وقد كان المعتزلة معروفين بالفلسفة والأدب، ممّا أدّى إلى قربهم، وارتاح بمحادثتهم.

وكان يجلس للمناظرة يوم الثلاثاء، فإذا حضر الفقهاء من سائر أهل المقالات أُدخلوا حجرة مفروشة، وقيل لهم : انزعوا أخفافكم ثم أُحضرت الموائد[٣٨٢].

وكان المأمون يتّهم في التشيع مرّة، وفي الاعتزال أُخرى، وسيرته تدلّ على ذلك.

أما تشيّعه فقد كان يحبّ عليّاً ويفضّله على جميع الصحابة، وقد أمر مناديه أن ينادي بأنّ أفضل الخلق بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) علي بن أبي طالب، وأن لا يذكر معاوية بخير.

وروى ابن عساكر عن النظر بن شميل، قال: دخلت على المأمون فقال: كيف أصبحت يانظر؟

فقلت: بخير ياأمير المؤمنين.

فقال: ما الإرجاء؟ فقلت: دين يوافق الملوك، يصيبون به من دنياهم وينقصون به من دينهم.

قال: صدقت. ثم قال يانظر، أتدري ماقلت في صبيحة هذا اليوم؟

قلت: إني من علم الغيب لبعيد.

(٣٨١) الصف : ٨ و ٩.

(٣٨٢) مروج الذهب ج ٣ ص ١٩.

فقال: قلت أبياتاً وهي:

أصبح ديني الذي أدين به *** ولست منه الغداة معتذراً

حبّ عليّ بعد النبيّ ولا أشـ *** تم صدّيقاً ولا عمراً

ثم ابن عفان في الجنان مع الأ *** برار ذاك القتيل مصطبرا

ألا ولا أشتم الزبير ولا *** طلحة إن قال قائل غدرا

وعائش الأمّ لست أشتمها *** من يفتريها فنحن منه برا

قال ابن كثير في تاريخه: وهذا المذهب ثاني مراتب الشيعة، وفيه تفضيل علي على الصحابة[٣٨٣]، وقال بشر المريسي يمدح المأمون بما أظهره من تفضيل علي (عليه السلام):

قد قال مأموننا وسيّدنا *** قولاً له في الكتب تصديق

إنّ علياً أعني أبا حسن *** أفضل من قد أقلّت النوق

بعد نبي الهدى وإنّ لنا *** أعمالنا والقرآن مخلوق[٣٨٤].

وفي سنة (٢٠١ هـ) بايع بولاية العهد من بعده للإمام علي الرضا الإمام الثامن من الأئمة الاثني عشر، ابن الإمام موسى الكاظم (عليهما السلام)، وأمر بخلع السواد الذي كان شعار الدولة العباسية، وأمر بلبس الخضرة.

ولقد أقدم المأمون على هذا العمل مع شدّة امتناع الإمام الرضا (عليه السلام) عن ذلك، ولكنّه ألزمه بالقبول، فشرط الإمام شروطاً على ذلك.

ولا بدّ من طرح التساؤل أولاً عن الأسباب التي حملت المأمون على القيام بهذا العمل، الذي يعدّ من أعظم الأعمال التي قام بها. فهل أنّ حبّه لأهل البيت(عليهم السلام)دفعه إلى ذلك لأنّه يعتقد أنّهم أولى بهذا الأمر؟ أو أنّه فكّر في أمر الأمة - وهو المعروف بقوة الفكر وحريته - وأراد أن يجعلها تحت رعاية رجل يصلح لذلك ولم ير أفضل من الإمام الرضا (عليه السلام)؟ أم أنّها فكرة سياسية أراد بها جلب قلوب ملايين من الناس يدينون بالاعتراف للإمام الرضا (عليه السلام)بالولاية؟ وهم أولو قوة وبأس، رغم الدعايات الكاذبة ضدّهم، واتخاذ شتّى الوسائل في القضاء عليهم، وبهذا يحاول أن يكسر شوكة بني العباس، وينتقم منهم في نقل الملك من بيتهم إلى البيت العلوي، وهم خصوم لا هوادة بينهم، وبذلك يستطيع أن يضرب المأمون ضربته، ويحقّق سياسته في تحقيق الغرض الذي من أجله قام بهذا الأمر، وبالفعل تحقّقت

(٣٨٣) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢٧٦ ـ ٢٧٩ .

(٣٨٤) مروج الذهب ج ١ ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ ـ ٢٧٩.

أهدافه - إن كان يقصد ذلك - فقد خضع له كثير من الناس وأحبّوه لهذا العمل. كما أعلن العباسيون وأنصارهم غضبهم عليه، ونقضوا بيعته، وبايعوا شيخ المغنين إبراهيم بن المهدي، وقامت بعد ذلك حرب قضى المأمون عليها بالقوة، لضعف خصومه وكثرة أنصاره[٣٨٥].

والذي يظهر أنّه أراد جلب الرأي العام ضد بني العباس، فإنّ أهل البيت(عليهم السلام)لهم مكانة وهم المعنيون بإسناد الخلافة إليهم عندما قامت الثورة ضد الأمويين، وقد نصّ كثير من المؤرخين[٣٨٦] على تشيّع المأمون وميله إلى آل علي (عليه السلام).

وقد أجاب المأمون عن أسباب بيعته للإمام الرضا (عليه السلام) ، وذلك أنّه عندما دخل بغداد ظافراً، اجتمعت به زينب بنت سليمان، وكانت من طبقة المنصور، وكان بنو العباس يعظّمونها، فقالت: ياأمير المؤمنين، ماالذي دعاك إلى نقل الخلافة من بيتك إلى بيت علي؟

قال: ياعمّة إني رأيت عليّاً حين ولي الخلافة أحسن إلى بني العباس، فولى عبدالله البصرة، وعبيدالله اليمن، وقثم سمرقند، ومارأيت أحداً من أهل بيتي حين أفضى إليهم كافوه على فعله في ولده، فأحببت أن أكافيه إحسانه.

فقالت: ياأمير المؤمنين إنّك على برّ بني علي والأمر فيك أقدر منه على برّهم والأمر فيهم[٣٨٧].

وأنت ترى أنّ هذا الجواب لا يتمشى مع الواقع، لعلم المأمون بأنّ علياً لم يكن من أولئك الحكام الذين يولّون أمر الأمة أناساً لا أهليّة لهم، إلاّ لأنهم أقرباء وذوو رحم، بل ينظر للكفاءة والمقدرة، والناس عنده سواء.

وعلى أي حال فقد أظهر المأمون إحسانه إلى آل علي، وقد ثار في أيامه محمد ابن الإمام جعفرالصادق (عليه السلام) فأرسل المأمون إليه جيشاً، فكانت الغلبة للمأمون فظفر به وعفى عنه مستمراً على سياسته من الميل الى العلويين[٣٨٨].

قال أبو العباس أحمد بن عمار: كان المأمون شديد الميل إلى العلويين والإحسان إليهم، وخبره مشهور معهم، وكان يفعل ذلك طبعاً لا تكلّفاً، فمن ذلك أنه توفي يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين العلوي فحضر الصلاة عليه بنفسه، ورأى

(٣٨٥) مروج الذهب ج ٣ ص ٤٤١.
(٣٨٦) سير أعلام النبلاء ج ٩ ص ٤٩ الرقم ١٦١٠.
(٣٨٧) مروج الذهب ج ٤ ص ٢٤٢.
(٣٨٨) مروج الذهب ج ٣ ص ٤٣٩ - ٤٤٠.

الناس عليه من الحزن والكآبة ماتعجبواله، ثم إن ولداً لزينب بنت سليمان وهي عمّة المنصور توفي بعده فأرسل له المأمون كفناً، وسيّر أخاه صالحاً ليصلي عليه ويعزّي أمّه، فإنّها كانت عند بني العباس بمنزلة عظيمة، فأتاها وعزّاها عنه، واعتذر عن تخلفه - أي المأمون - عن الصلاة عليه فظهر غضبها وقالت لابن ابنها: تقدّم فصلِّ على أبيك وتمثّلت:

سكبناه ونحسبه لجيناً *** فأبدى الكير عن خبث الحديد

ثم قالت لصالح: قل له يابن مراجل أما لو كان يحيى بن الحسين لوضعت ذيلك على فيك وعدوت خلف جنازته[٣٨٩]. وفي سنة (٢١٠ هـ) أمر المأمون بردّ فدك إلى أولاد فاطمة (عليها السلام)، وكتب بذلك إلى قثم بن جعفر عامله على المدينة كتاباً يقول فيه:

أمّا بعد فإنّ أمير المؤمنين بمكانته من دين الله وخلافة رسول الله، والقرابة به أولى من استنّ ونفذ أمره، وسلم لمن منحه منحة وتصدّق عليه بصدقة، منحته وصدقته بالله توفيق أمير المؤمنين، وعصمته، وإليه في العمل بما يقربه إليه رغبته، وقد كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) أعطى فاطمة بنت رسول الله فدكاً وتصدق بها عليها، وكان ذلك أمراً ظاهراً معروفاً لا اختلاف فيه بين آل رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ولم تدّعي منه ماهو أولى به من صدق عليه، فرأى أمير المؤمنين أن يردّها إلى ورثتها، ويسلمها إليهم تقرّباً إلى الله بإقامة حقّه وعدله، وإلى رسول الله بتنفيذ أمره وصدقته، فأمر بإثبات ذلك في دواوينه والكتاب به إلى عماله، فلئن كان ينادي في كلّ موسم بعد أن قبض الله نبيه، أن يذكر كلّ من كانت له صدقة، أو هبة، أو عدة فيقبل قوله وتنفد عدته.

إن فاطمة لأولى بأن يصدق قولها فيما جعل رسول الله لها، وقد كتب أمير المؤمنين - أي المأمون - إلى المبارك الطبري مولاه بردّ فدك على ورثة فاطمة بنت رسول الله بحدودها وجميع حقوقها المنسوبة إليها من الرقيق والغلاة... الخ[٣٩٠].

وفي سنة (٢٠١ هـ) أحصى المأمون جميع العباسيين، فبلغوا ثلاثة وثلاثين ألفاً بين ذكور وإناث.

وكان المأمون يتحرى العدل، ويتولّى بنفسه الحكم بين الناس والفصل.

(٣٨٩) الكامل لابن الأثير ج ٦ ص ١٧٩.

(٣٩٠) فتوح البلدان للبلاذري ص ٤٦.

جاءته امرأة ضعيفة قد تظلّمت على ابنه العباس وهو قائم على رأسه، فأمر الحاجب فأخذه بيده فأجلسه معها بين يديه، فادّعت بأنّه أخذ ضيعة لها واستحوذ عليها، فتناظرا ساعة، فجعل صوتها يعلو على صوته، فزجرها بعض الحاضرين فقال المأمون: اُسكت فإنّ الحقّ أنطقها والباطل أسكته، ثم حكم لها بحقّها وأغرم ابنه لها عشرة آلاف درهم(٣٩١).

واشتهر عنه أنّه كان يقول: لو يعلم الناس ماأجد في العفو من لذة, لتقرّبوا إليَّ بالذنوب. وحدّث المرزباني: أنّ دعبل الخزاعي هجا المأمون بقوله:

أيسومني المأمون خطة عاجز *** أو ما رأى بالأمس رأس محمّدِ

إنّي من القوم الذين هم هم *** قتلوا أخاك وشرفوك بمقعدِ

فطلبه المأمون فاستتر منه، إلى أن بلغه أنّه هجا إبراهيم بن المهدي بقوله:

إن كان إبراهيم مضطلعاً بها *** فلتصلحنّ من بعده لمخارق

فضحك المأمون وقال: قد وهبته ذنبه فليظهر، فسار إليه، فكان أوّل داخل عليه.

ولما قدم على المأمون وأمنه استنشده القصيدة الكبيرة، وهي الرائية وعدد أبياتها ٢٤ بيتاً ومطلعها:

تأسفت جارتي لما رأت زوري *** وعدّت الحلم ذنباً غير مغتفر

فأنكرها، فقال المأمون: لك الأمان أيضاً على إنشادها فأنشدها، حتى إذا بلغ إلى قوله:

يا اُمّة السوء ماجانيت أحمد عن *** حسن البلاء على التنزيل والسور

خلفتموه على الأبناء حين مضى *** خلافة الذئب في أبقار ذي بقر

قتل وأسر وتحريق ومنهبة *** فعل الغزاة بأرض الروم والخزر

أرى اُمية معذورين إن قتلوا *** ولا أرى لبني العباس من عذر

قوم قتلتم على الإسلام أوّلهم *** حتى إذااستمكنوا جازواعلى الكفر

قبران في طوس خير الناس كلّهم *** وقبر شرّهم هذا من العبر

ماينفع الرجس من قبر الزكي ولا *** على الزكي بقبر الرجس من ضرر

هيهات كلّ أمرء رهن بماكسبت *** يداه فخذ ماشئت أو فذَرِ

قال: فضرب المأمون بعمامته إلى الأرض وقال: صدقت يادعبل.

(٣٩١) تاريخ ابن كثير ج ١٠ ص ٢٧٧.

ولما أنشد قصيدته التائية الشهيرة أمام الإمام الرضا(عليه السلام) والمأمون حاضر يسمع استحسنها، فأمر له الإمام الرضا بخمسين ألف درهم وأمر له المأمون بمثلها[٣٩٢]، ومهما يكن من أمر فإنّ المأمون قد أثرت فيه ثقافة عصره، فمال الى الفلسفة وحرية الرأي حتى جهر بأُمور هي من عقائد الشيعة، فإنّ أسلافه وأخلافه يرونها كفراً أو زندقة، ويظهر أنّه التزم الحقيقة. أمّا بيعته للإمام الرضا فهي خطوة سياسية عرف الإمام الرضا الغرض منها وقبلها مشترطاً. وقد ختم المأمون علاقته بالإمام الرضا بخاتمة عاد بها الى سنّة أهله وسياستهم العدائية.

المعتصم

هو أبو أسحاق محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور، المتوفى سنة (٢٢٧ هـ) كان موصوفاً بالشجاعة وقوة البدن، وسداد الرأي، وكان إذا غضب لا يبالي من قتل، وكان أُميّاً لا يقرأ ولا يكتب.

ذكر الخطيب أنّ ملك الروم كتب إلى المعتصم كتاباً يهدّده فيه، فقال للكاتب أكتب: قد قرأت كتابك وفهمت خطابك، والجواب ماترى لا ماتسمع وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار. وغزا بلاد الروم في سنة (٢٢٣ هـ)، فأنكى نكاية عظيمة في العدو، وهو الذي فتح عمورية وقتل من أهلها ثلاثين ألفاً وسبى منهم، وكان في سبيه ستون بطريقاً، قال الخطيب: وجاء بباب عمورية، وهو منصوب حتى الآن على أبواب دار الخلافة ممّا يلي المسجد الجامع في القصر.

وكان له من المماليك الترك خمسون ألفاً، وهو الذي بنى سامراء، وسبب ذلك أنّه لما كثرت عساكره من الترك في بغداد وزاحموا أهلها، وعاثوا فيها فساداً، فكان في كلّ يوم ربّما قتلوا جماعة، فركب المعتصم يوماً فلقيه رجل شيخ فقال للمعتصم: ياأبا إسحاق، فأراد الجند ضربه فمنعهم المعتصم وقال له: مالك ياشيخ؟ قال: لا جزاك الله خيراً عن الجوار جاورتنا مدة فرأيناك شر جار، جئتنا بهؤلاء العلوج من غلمانك الأتراك فأسكنتهم بيننا فأيتمت بهم صبياننا، وأرملت نساءنا، والله لنقابلنك بسهام السحر ـ الدعاء ـ هذا والمعتصم يسمع ذلك فدخل منزله ولم ير راكباً في يوم مثل

(٣٩٢) شعراء الشيعة للمرزباني ص٩٣ ـ ١٠٤.

ذلك اليوم، ثم ركب وصلّى بالناس العيد، وسار إلى موضع سامراء فبناها وكان في سنة (٢٢١ هـ)[٣٩٣].

ولم يكن المعتصم كأخيه المأمون، أو كولده الواثق في العطف على العلويين، ولم يكن كالرشيد في تشدّده، بل كان معتدلاً وسطاً.

والذي يظهر أنّ اعتداله كان بوصيّة من المأمون، فقد جاء فيها:

وهؤلاء بنو عمّك من ولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، فأحسن صحبهم وتجاوز عن مسيئهم، واقبل من محسنهم، وصِلاتهم فلا تغلها في كلّ سنة، فإنّ حقوقهم تجب من وجوه شتّى[٣٩٤].

وحدّث أحمد بن سليمان بن أبي شبح، قال: قدم الزبير بن بكار العراق هارباً من العلويين، لأنّه كان ينال منهم فهددوه فهرب منهم، وقدم على عمّه مصعب بن عبدالله بن الزبير، وشكا إليه حاله وخوفه من العلويين، وسأله إنهاء حاله إلى المعتصم، فلم يجد عنده - أي عند عمّه - وأنكر عليه حاله ولامه.

قال أحمد: فشكا ذلك إليّ وسألني مخاطبة عمه في أمره، فقلت له في ذلك، وأنكرت عليه إعراضه فقال لي: إنّ الزبير فيه جهل وتسرّع، فأشر عليه أن يستعطف العلويين، ويزيل مافي نفوسهم منه، أما رأيت المأمون ورفقه بهم، وعفوه عنهم، وميله إليهم؟ قلت: بلى، قال: فهذا أمير المؤمنين - أي المعتصم - مثل ذلك أو فوقه، ولا أقدر أن أذكرهم عنده بقبيح، فقل له ذلك حتى ينتهي عن الذي هو عليه في ذمهم[٣٩٥]. ولمّا حضرت المعتصم الوفاة جعل يردد هذه الآية: **(حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ)**[٣٩٦].

وقال: لو علمت أنّ عمري قصير مافعلت مافعلت. وقال: ذهبت الحيل فلا حيلة. وقال: اللّهم إنّي أخافك من قبلي ولا أخافك من قبلك وأرجوك من قبلك ولا أرجوك من قبلي، وقال: إنّي أخذت من بين هذا الخلق [٣٩٧].

ومن أغرب الأمور في سيرة المعتصم أنه قد فوّض أمر الدولة إلى أخوين مسيحيين وهما: سلمويه وإبراهيم. وكان سلمويه يشغل منصباً قريب الشبه من منصب الوزارة في العصر الحديث، وكانت الوثائق الملكية لا تتخذ صفة التنفيذ إلاّ

(٣٩٣) تاريخ الخلفاء ص ٣١٠ - ٣١١.
(٣٩٤) تاريخ الطبري ج ١٠ ص ٢٩٥.
(٣٩٥) الكامل لابن الأثير ج٦ ص ٤٢٨، حوادث سنة ٢١٨ هـ ، ذكر في مرض المأمون ووصيته.
(٣٩٦) سيّر أعلام النبلاء ج ٩ ص ٦٣ الرقم ١٦١١.
(٣٩٧) تاريخ الطبري ج ١١ ص ٧.

بعد توقيعه عليها، وقد عهد المعتصم إلى أخيه إبراهيم بحفظ خاتم الخليفة، كما عهد إليه بخزانة بيوت الأموال في البلاد، وكان المنتظر من طبيعة هذه الأموال وتصريفها، أن يوكل أمر الاشراف عليها إلى رجل من المسلمين، وقد بلغ من ميل الخليفة إلى سلمويه أن عاده في مرضه فغمره الحزن عند وفاته، حيث أُقيمت الطقوس المسيحية في خشوع مهيب[٣٩٨].

الواثق

أبو جعفر هارون بن المعتصم بن الرشيد المتوفى سنة (٢٣٢ هـ)، كان شاعراً فطناً يتشبه بالمأمون في حركاته وسكناته، وكان حسن السيرة مع أبناء عمّه آل أبي طالب. قال يحيى بن أكثم: ما أحد أحسن من خلفاء بني العباس إلى آل أبي طالب ماأحسن إليهم الواثق، مامات وفيهم فقير[٣٩٩].

وكان شديد القول بخلق القرآن، حتى بلغ الأمر به أنّه لما وقع الفداء بين المسلمين والروم في الأسرى أمر الواثق أن يمتحنوا أسرى المسلمين، فمن قال القرآن مخلوق وأنّ الله لا يُرى في الآخرة، نودي به وأعطي دينارين، ومن لم ينل ذلك ترك في أيدي الروم.

ولمّا حضرته الوفاة أمر بالبسط فطويت، وألصق خدّه على الأرض، وجعل يقول: يامن لا يزول ملكه إرحم من زال ملكه، وكان يردّد هذين البيتين:

الموت فيه جميع الخلق مشترك *** لا سوقة منهم يبقى ولا ملك

ما ضرّ أهل قليل في تفارقهم *** وليس يغني عن الملاك ماملكوا[٤٠٠]

قال أحمد بن محمد الواثقي، وكان فيمن يمرّض الواثق: فتقدّمت إليه، فلما صرت عند رأسه فتح عينيه، فكدت أموت من خوفي، فرجعت إلى خلف، فتعلقت قائمة سيفي بشي فكدت أهلك، فما كان عن قريب حتى مات، وأغلق عليه الباب، وبقي وحده، فسمعت حركة من داخل البيت، فدخلت فإذا جرذ قد أكل عينيه - التى لحظ إليَّ بها - وماكان حولها من الخدين[٤٠١].

المتوكل

(٣٩٨) الدعوة إلى الإسلام ص ٨١، وابن أصيبعة ج ٢ ص ١٦٤.

(٣٩٩) تاريخ ابن كثير ج ١٠ ص ٣١٠.

(٤٠٠) تاريخ ابن الساعي ص ٦٠.

(٤٠١) الكامل لابن الأثير ج ٧ ص ١٢.

جعفر بن المعتصم بن الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور العباسي، المتوفى سنة (٢٤٧ هـ) وأمه أم ولد يقال لها شجاع، وكانت ولادته بفم الصلح سنة (٢٠٧ هـ) ، وبويع بالخلافة بعد أخيه الواثق، وكانت مدة خلافته أربع عشرة سنة، وكان مولعاً بالشراب وباقتناء الجواري، وكان بمكانة من الترف والبذخ ربما يمتاز بكثير عن جدّه الرشيد.

عرف المتوكل ببغضه لأهل البيت(عليهم السلام) ومطاردته لمحبيهم، وقتل زعمائهم، وكان لا تأخذه في ذلك رحمة، ولا يمنعه خوف من الله، ومن يتهم بميله للعلويين فإنّ مصيره القتل أو السجن المؤبد، حتى ظهر النصب في عصره، وانتشر بغض أهل البيت(عليهم السلام) في أيّامه، وتقرّب الكثير إليه بذمّ أهل البيت(عليهم السلام)أو محبيهم، طلباً لرفده وطمعاً في صلته[٤٠٢].

مدحه أبو السمط مروان بن أبي الجنوب بأبيات يذمّ فيها العلويين منها:

يرجو التراث بنو البنا *** ت ومالهم فيها قلامة

ما للذين تنحلوا ميرا *** ثكم إلاّ الندامة

فخلع عليه المتوكل أربع حلل، وأمر له بثلاثة آلاف دينار فنثرت على رأسه، وعقد له على البحرين واليمامة.

وتقدّم إليه هذا الشاعر مرة أخرى بشعر يذم فيه آل محمد وشيعتهم فنثر عليه عشرة آلاف درهم[٤٠٣].

وكان يقصد من يبلغه عنه أنّه يتولّى علياً وأهله بأخذ المال والدم. حتى عمّ الاستياء، وواجه الناس موجة تعصّب فاحش، وعدّب الموالون لأهل البيت(عليهم السلام)أشدّ العذاب، ومنع الناس من زيارة قبرالحسين (عليه السلام)، كما أمر بهدم ماحوله من المنازل والدور، وأن يبذر ويسقى موضع قبره، ونادى في الناس: من وجدناه عند قبر الحسين (عليه السلام)بعد ثلاث حبسناه في المطبق[٤٠٤] حتى هجاه الشعراء، ومما قيل فيه:

تالله إن كانت أمية قد أتت *** قتل ابن بنت نبيّها مظلوما

فلقد أتاه بنو أبيه بمثله *** هذا لعمرك قبره مهدوما

أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا *** في قتله فتتبعوه رميما[٤٠٥]

(٤٠٢) النجوم الزواهر ج ٢ ص ٢٠٨، الخطط للمقريزي ج ٤ ص ١٥٩.

(٤٠٣) الكامل لابن الأثير ج ٧ ص ٣٨.

(٤٠٤) المصدر السابق ج ٧ ص ٢٤.

(٤٠٥) سمط النجوم العوالي ج ٣ ص ٤٦٤.

ويقول ابن الوردي:

وكم قد محي خير بشركما انمحت *** ببغض علي سيرة المتوكل

تعمق في عدل ولما جنى على *** مقام عليّ «حطّه السيل من عل»[٤٠٦]وكان واليه على مصر يزيد بن عبدالله التركي يتتبع الموالين لأهل البيت(عليهم السلام)بكلّ أذى، كما حمل جماعة منهم إلى العراق.

قال الكندي في كتاب الولاة والقضاة: إنّ يزيد التركي أمر بضرب جندي - في شيء وجب عليه - عشر درر، فتوسل الجندي إلى يزيد بحقّ الحسن والحسين أن يعفو عنه فزاده ثلاثين درة، ورفع أمره إلى المتوكل في العراق، فورد أمر المتوكل بضرب الجندي مائة سوط وحمله إلى العراق، وذلك في سنة (٢٤٣ هـ) وفي سنة (٢٤٨ هـ.) أخرج جماعة من العلويين من مصر إلى العراق[٤٠٧].

وكان أخصّ الناس به وأقربهم عنده من اشتهر بالنصب، وعرف بالعداء لأهل البيت(عليهم السلام)أمثال علي بن الجهم الشاعر الشامي - من بني شامه بن لوي - وعمر بن فرخ الرحبي، وأبو السمط من ولد مروان بن أبي حفص من موالي بني أمية، وغيرهم وسيأتي ذكرهم في القائمة السوداء التي ستتضمن أسماء من عرفوا بالنصب لأهل البيت(عليهم السلام).

قال المسعودي: ولم يكن المتوكل من يوصف في عطائه وبذله في الجود، ولا بتركه وإمساكه بالبخل، ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بني العباس ظهر في مجلسه اللعب والمضاحك والهزل، ممّا استفاض في الناس تركه إلاّ المتوكل، فإنّه السابق إلى ذلك والمحدث له، وأحدث أشياء من خواصه، فلم يكن من كتابه وقواده من يوصف بجود ولا إفضال، أو يتعالى عن مجون وطرب[٤٠٨] وكان منهمكاً في اللذات والشراب انهماكاً كبيراً[٤٠٩] وكان بنان وزنان لا يفارقانه، هذا يضرب وذاك يزمر[٤١٠]. ولم يفارق لذّاته وشرابه حتى في آخر لحظة من حياته، فقد قتل بين الناي والعود.

(٤٠٦) تاريخ ابن الوردي: ج ٢، ص ٢١٧.
(٤٠٧) الولاة وكتاب القضاة ص ٢٠٣.
(٤٠٨) مروج الذهب ج ٤ ص ٤٧.
(٤٠٩) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٣٧.
(٤١٠) ثمار القلوب للثعالبي ص ١٣٤.

ولقي الناس في عهده أنواع البلاء والامتحان، وزلزلت الأرض وتناثرت الكواكب كالجراد، وكان أمراً مزعجاً، واهتزت الأرض بتونس وأعمالها، والري وخراسان ونيسابور وأصبهان، وشقّقت الأرض بقدر مايدخل الرجل في الشق، وضربت المدن والقلاع والقناطر، وسقط من انطاكية جبل في البحر، ورجمت قرية بناحية مصر بحجارة من السماء وزن الواحدة منها عشرة أرطال، وهبت ريح بالعراق شديدة السموم لم يعهد مثلها أحرقت زرع الكوفة والبصرة وبغداد، وقتلت المسافرين، ودامت خمسين يوماً، ومنعت الناس من طلب المعاش في الأسواق، والمشي في الطرقات، وزلزلت دمشق، والجزيرة والموصل وقوس ونيسابور وغيرها[٤١١] في جميع أنحاء المملكة الإسلامية حتى ذهب ضحية ذلك خلق كثير، والخليفة المتوكل يتنعم في بذخه، ويمرح في أنسه، بين رقص جواريه وغلمانه، ونغم عيدانه ومجونه بل جنونه، ومجلسه عامر بالهزل والطرب، وقد نشط الروم في عهده فهجموا على دمياط، ونهبوا وأحرقوا وسبوا ستمائة امرأة.

وكان يبذل الأموال الطائلة على القصور والعمارات، وقد أنفق ألف ألف وسبعمائة ألف دينار على بناء قصر البرج وحده[٤١٢].

ولمّا عزّم على المسير إلى دمشق أمر باتخاذ القصور، وإعداد المنازل، واصلاح الطريق، وإقامة المرافد[٤١٣].

ومع هذا قد وصفوه بالصلاح ونصرة الدين، وإحياء السنة، وإماتة البدعة وقد مدحه ابن الخبازة بقوله:

أطال لنا ربّ العباد بقاءه *** سليماً من الأهوال غير مبدّل

وجامع شمل الدين بعد تشتت *** وفاري رؤوس المارقين بمنصل[٤١٤]

ولمّا مات وضعت المنامات والأطياف في عظمته، وعلوّ درجته في الجنة، وقام القصاصون والوعّاظ بذلك يقصّون أحلامهم لتحقيق أحلامهم.

وممّا لا ريب فيه فإنّ الفرق بين المتوكل ومن سبقه من الخلفاء بيّن: فالمأمون لم يكن بالخليفة المستضعف، والمعتصم كان على جانب عظيم من القوة وحسن التدبير، وكرم الخلق، وكذلك ابنه الواثق، فقد كان يجالس العلويين ويحسن إليهم وإلى أهل

(٤١١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٣٨، والشذرات لابن العماد ج ٢ ص ٩٦، وتاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ٢١٥، وتاريخ الطبري في حوادث سنة ٢٤١ و٢٤٢ وغيرها.

(٤١٢)تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٤٩١.

(٤١٣) اليعقوبي ج ٣ ص ٢١٥.

(٤١٤) تاريخ الخلفاء ص ٣٢٠.

الحرمين، حتى لم يبق منهم من يسأل الصدقة.

وفي أيام المعتصم والواثق لم يقتطع شيء من جسم الدولة العباسية، ولم يظهر بها أيّ ضعف، ولكن عهد المتوكل فتح باب الفرقة وتقلّصت أيام العزّ في بني العباس.

الدولة العباسية وبداية الضعف

وعلى كلّ حال فقد بدأ الضعف في جسم الدولة العباسية في أيام المتوكل، لضعفه في التدبير والسياسة، وإساءته لكثير من طبقات المجتمع، وبالأخص العلويين، ومن عرف بموالاتهم، فكانت الرقابة عليهم شديدة، والحساب عسيراً، فالشيعي في نظر الخليفة وأعوانه مصدر خطر دائم، وتهديد للدولة لا ينقطع.

وقام أنصاره وأعوانه بدور البطولة في القضاء على المذهب الشيعي، وبذلوا كلّ جهد، واستعملوا كلّ وسيلة لحصول ذلك الغرض، فراحوا يهولون في انحراف المذهب عن الحقّ ليغضّوا من قيمته، ويشوّهوا من جماله، ويستنزلوه من مستواه الرفيع وليس من الميسور عليهم حصول ذلك إلاّ بعد بذل جهود ومواصلة دعاية التهويل، ليقرّبوا ذلك إلى العقول، ولطالما سلبت أهواء السياسة من ذوي الفضل فضلهم ومن أجلها جرّدهم أرباب اللؤم عن محامدهم، وقد استطاع المذهب الشيعي أن يتغلّب بقوته الروحية على تلك المقاومات العنيفة، وجاهد جهاداً متصلاً، فتخطّى الحواجز واجتاز العقبات بتلك القوة، فلا سلطان يعضده، ولا سيف ينشره، وفشل المتوكل وأعوانه، فكان ضحية نصبه وتعصّبه، حتى قتل بيده ولده وقواده، وهو أول خليفة قتل جهرة من بني العباس، وكثر بعد ذلك القتل في المستخلفين من بعده.

وكان المتوكل لشدة نصبه وعدائه لعلي (عليه السلام) أنّ ندماءه في مجلسه يفيضون في ثلب علي (عليه السلام) فينكر ولده المنتصر ذلك - وكان ولي عهده - ويتهددهم ويقول للمتوكل: إنّ علياً هو كبير بيتنا، وشيخ بني هاشم، فإن كنت لابد ثالبه فتول ذلك بنفسك ولا تجعل لهؤلاء سبيلاً إلى ذلك. فيستخف المتوكل به ويشتمه ويأمر وزيره عبيدالله بصفعه، ويتهدده بالقتل ويصرّح بخلعه عن ولاية العهد، فأعدّ المنتصر جماعة من الأتراك وبعث معهم ولده صالح وأحمد وعبدالله ونصر، فدخلوا على المتوكل وهو بين ندمانه وكؤوس شربه، فأخرجوا الندمان حتى لم يبق مع

المتوكل إلاّ أربعة من الخاصة وأغلقوا الأبواب إلاّ باب دجلة; وقتلوا المتوكل والقى الفتح بن خاقان نفسه عليه ليقيه فقتلوه[٤١٥].

ورثاه البحتري في قصيدة يقول فيها:

هكذا فلتكن منايا الكرام *** بين ناي ومزهر ومدام

بين كأسين أورثاه جميعاً *** كأس لذاته وكأس الحمام

لم يُذل نفسه رسول المنايا *** بصنوف الأوجاع والأسقام

هابه معلناً فدبّ إليه *** في كسور الدجى بحدّ الحسام[٤١٦]

وعلى أيّ حال فقد كان المتوكل في جانب المحدثين، وأصبحت لهم الصولة والنفوذ، واستغل العوام هذه الفرصة فأوقعوا برجال الفكر، ونشروا الخرافات. أمّا أصحاب أحمد بصورة خاصة، فلهم المنزلة السامية، والمقام الرفيع، لأنه رفع منزلة الإمام أحمد وقرّب أصحابه، واتّسع المجال أمامهم في الانتقام من خصومهم والانتصار لمبادئهم، وكما رأينا كيف كان المتوكل يعظّم أحمد ويجلّه، ويشيد بذكره ويصله بهداياه، حتى بلغ به الأمر أنه كان يستشيره في تعيين القضاة، وقد بعث إليه مرّةً يسأله في تولية ابن الثلجي القضاء.

فقال أحمد: لا ولا على حارس; لأنّ أحمد كان يرى أنّ ابن الثلجي - وهو من كبار أصحاب أبي حنفية - مبتدع صاحب هوى[٤١٧].

اتّهام أحمد بالميل للعلويين

ومع اتّصاف المتوكل بالتودد لأحمد بن حنبل، وإظهار فضله، وعدم سماع أيّ وشاية عليه، فإنّ أحمد لم يسلم من الاتهام بالميل للعلويين، فقد إرتأى خصومه أن يسلكوا طريقاً يمكنهم أن يغيّروا قلب المتوكل بتهمة لا يغفرها المتوكل، ولا يقف دون عقابه لمن أتّهم بها أيّ حاجز، وهي الاتهام بالتشيّع أو الميل للعلويين، فاخترعوا من عند أنفسهم أنّ أحمد يبايع لعلويّ، أو أنه أخفى علوياً في بيته، لينالوا منه ويحوّلوا قلب المتوكل منه، فأخذ المتوكل بالتحرّي على أحمد بشدة، وطوقت المحلة التي كان يسكنها، وأحاط الجند بداره ودخلوها.

(٤١٥) العبر لابن خلدون ج ٣ ص ٥٩٢.

(٤١٦) ابن الساعي في تاريخه ص ٦٤.

(٤١٧) المنتظم لابن الجوزي ج ٥ ص ٥٧.

فقال أحمد: ماأعرف من هذا شيئاً، وإنّي لأرى طاعته في العسر واليسر، والمنشط، والمكره، والإثرة، وإنّي أتأسّف على تخلفي عن الصلاة في جماعة، وعن حضور الجمعة ودعوة المسلمين.

فقال له ابن الكلبي: قد أمرني أمير المؤمنين (أي المتوكل) أن أحلفك أن ما عندك طلبته فتحلف! .

قال: إن استحلفتموني حلفت. فأحلفه بالله وبالطلاق أن ماعنده طلبة أمير المؤمنين. ثم قال له: أريد أن أفتش منزلك ومنزل ابنك، فقام ابن مظفر وابن الكلبي وامرأتان معهما فدخلا، ففتشا البيت ثم فتّشت الامرأتان النساء، ثم دخلوا منزل ولده صالح ففتشوه، ودلوا شمعة في البئر ونظروا ووجّهوا النسوة، ففتشوا الحرم ثم خرجوا[٤١٨].

وإنّ الناظر في سيرة أحمد يجد أنه لا يستبعد اتّهامه بما يسوء العباسيين عامة والمتوكل خاصة، فقد كان جريئاً في رواية مناقب أهل البيت(عليهم السلام)، وقد روى في مسنده مالم يروه كثير من أهل المسانيد والصحاح، كما كان يظهر فضائل علي ويحدث بها.

قال عبدالله بن أحمد سمعت أبي يقول: مالأحد من الصحابة من الفضائل بالأسانيد الصحاح مثل مالعلي (رضي الله عنه)[٤١٩].

وقال عبدالله: قلت لأبي - أحمد بن حنبل- ماتقول في التفضيل؟ قال في الخلافة أبو بكر وعمر وعثمان.

فقلت: فعليّ؟

قال: يابني علي بن أبي طالب من أهل بيت لا يقاس بهم أحد[٤٢٠].

وقال محمد بن منصور: كنّا عند أحمد بن حنبل فقال له رجل: ياأباعبدالله، ماتقول في هذا الحديث الذي يروى: أنّ عليّاً قال: «أنا قسيم النار»؟

فقال أحمد: وماتنكرون من ذا؟ أليس روينا أنّ النبي(صلى الله عليه وآله) ، قال لعلي: «**لا يحبّك إلاّ مؤمن ولا يبغضك إلاّ منافق**»؟ قلنا: بلى. قال:

فأين المؤمن؟ قلنا في الجنة. قال وأين المنافق؟ قلنا: في النار. قال أحمد: فعليّ قسيم النار[٤٢١].

(٤١٨) مناقب أحمد لابن الجوزي ص ٣٦٠ - ٣٦٢.

(٤١٩) أحمد ابن حنبل لأبو زهرة ص ١٥٧.

(٤٢٠) المناقب ص ١٦٣ وطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ج ٢ ص ١٢٠.

(٤٢١) طبقات الحنابلة ج ١ ص ٣٢٠.

وقال عبدالله بن أحمد: كنت بين يدي أبي جالساً ذات يوم فجاءت طائفة من الكرخية. فذكروا خلافة أبي بكر، وخلافة عمر، وخلافة عثمان، وخلافة علي بن أبي طالب، فزادوا وأطالوا، فرفع أبي رأسه إليهم فقال: ياهؤلاء ، قد أكثرتم القول في علي والخلافة، إنّ الخلافة لم تزين علياً بل عليّ زيّنها[٤٢٢].

قال ابن أبي الحديد: وهذا الكلام دال بفحواه ومفهومه على أنّ غيره ازدان بالخلافة، وتمّمت نقيصته، وأنّ علياً لم يكن فيه نقص يحتاج إلى أن يتمم بالخلافة، والخلافة ذات نقص في نفسها، فتمم نقصها في ولايته إياها[٤٢٣].

ولما سأله إسحاق بن إبراهيم - عن القرآن وأنّه ليس بمخلوق - عمّن تحكي أنه ليس بمخلوق؟ فقال جعفر بن محمد الصادق قال: ليس بخالق ولا مخلوق. فسكت إسحاق[٤٢٤].

على أنّ حال الأخبار عن أحمد لا تمضي على هذا المنوال، بل نجد بينها أخباراً ربّما يصعب معها الجزم أو الترجيح، ولكنّا آثرنا ما هو أقرب الى الحقّ وأليق برجل عالم كأحمد، وقد تكون صحيحة لتأثره بأجواء المتوكل، أو قد تكون من صنع آخرين. سنشير إليها في محلّها.

شيوخ الإمام أحمد من الشيعة

كما أنّ لأحمد صلة برجال الشيعة، وقد أخذ العلم عن كثير منهم، فكانوا في عداد شيوخه وأساتذته، وكذلك أخذ عن عدد وافر من العلماء الذين انتموا إلى مدرسة الإمام الصادق (عليه السلام).

وربّما لامه بعض من تأثّر بدعاية خصوم الشيعة على اتصاله بمن عرف بالتشيّع.

يحدّثنا الخطيب البغدادي: أنّ عبد الرحمن بن صالح الشيعي[٤٢٥] كان يغشى أحمد بن حنبل، فيقرّبه أحمد ويدنيه، فقيل له: ياأباعبدالله، عبد الرحمن رافضي. فقال:

(٤٢٢) مناقب أحمد ص ١٦٣.

(٤٢٣) شرح نهج البلاغة ج ١ ص ١٧.

(٤٢٤) مناقب أحمد ص ٣٥٩.

(٤٢٥) هو عبد الرحمن بن صالح أبو محمد الأزدي، المتوفى سنة (٢٣٠ هـ) كان من أهل العلم سكن بغداد، وكتب عنه أهلها. قال محمد بن موسى: رأيت يحيى بن معين جالساً في دهليز عبد الرحمن غير مرة، يخرج إليه أجزاء يكتب منها عنه. وقال فيه يحيى: عبد الرحمن بن صالح ثقة صدوق شيعي، لأن يخر من السماء أحب إليه من أن يكذب في نصف حرف.

سبحان الله! رجل أحبّ قوماً من أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله)نقول له: لا تحبهم! هو ثقة[٤٢٦].

أما العلماء الذين أخذ عنهم أحمد: فقد ذكر علماء الرجال كثيراً من الشيعة أنّهم كانوا من شيوخ أحمد، وكذلك ذكرهم ابن الجوزي في مناقب أحمد منهم:

١ - إسماعيل بن أبان الأزدي أبو إسحاق الكوفي، المتوفى سنة (٢١٦ هـ) وهو من شيوخ البخاري وابن معين أيضاً.

٢ - إسحاق بن منصور السلوي أبو عبد الرحمن الكوفي، المتوفى سنة (٢٠٥ هـ) وقد خرّج حديثه أصحاب الصحاح الستة.

٣ - تليد بن سليمان المحاربي أبو سليمان الكوفي، المتوفى سنة (١٩٠ هـ) روى له الترمذي في صحيحه وقال فيه أحمد: إنّ مذهبه التشيّع ولم أر به بأساً.

٤ - الحسين بن الحسن الفزاري أبو عبدالله الأشقر الكوفي، المتوفى سنة (٢٠٨ هـ) خرّج حديثه النسائي.

٥ - خالد بن مخلد القطواني أبو الهيثم، المتوفى سنة (٢١٣ هـ)، كان من كبار شيوخ البخاري وخرّج حديثه في صحيحه، ومسلم والنسائي ومالك بن أنس في مسنده.

٦ - سعيد بن خيثم بن رشد الهلالي أبو معمر الكوفي، المتوفى سنة (١٨٠ هـ)، خرّج حديثه الترمذي والنسائي وابن ماجة.

٧ - عبدالله بن داود أبو عبد الرحمن الهمداني، المتوفى سنة (٢١٢ هـ) خرّج حديثه البخاري وأبو داود والترمذي، وقال فيه أحمد: هو أثبت من شريك، وقال ابن سعد: كان ثقة يرحل إليه.

٨ - عبيدالله بن موسى العبسي أبو محمد الكوفي، المتوفى سنة (٢١٣ هـ) صاحب المسند. خرّج حديثه أصحاب الصحاح الستة.

٩ - عبد الرزاق بن همام الصنعاني المتوفى سنة (٢١١ هـ) من كبار شيوخ أحمد والبخاري. خرّج حديثه أصحاب الصحاح.

١٠ - عباد بن العوام بن عمر بن عبدالله بن المنذر الواسطي، المتوفى سنة (١٨٥ هـ)، قال ابن سعد: كان يتشيّع وكان من نبلاء الرجال.

وقد حبسه الرشيد زماناً ثم خلّى عنه، وأقام ببغداد وسمع منه البغداديون وهومن رجال الصحاح الستة.

(٤٢٦) تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٢٦١.

١١ ـ محمد بن فضيل بن غزوان الضبي، أبو عبد الرحمن الكوفي، المتوفى سنة (١٩٥ هـ)، وهو مصنف كتاب الزهد والدعاء، قال أحمد بن حنبل: محمد بن فضيل حسن الحديث شيعي. وخرّج حديثه أصحاب الصحاح.

١٢ ـ عائذ بن حبيب الملاح الكوفي، المتوفى سنة (١٩٠ هـ)، بياع الأقمشة الهروي، خرّج له النسائي وابن ماجة.

١٣ ـ علي بن غراب الفزاري أبو الحسن الكوفي، المتوفى سنة (١٨٤ هـ)، سئل عنه أحمد بن حنبل فقال: حديثه حديث أهل الصدق. وخرّج حديثه النسائي وابن ماجة.

١٤ ـ علي بن هاشم بن البريد العابدي مولاهم أبو الحسن الكوفي، المتوفى سنة (١٨٠ هـ) خرّج حديثه البخاري في الأدب المفرد. ومسلم في صحيحه، والترمذي والنسائي، وابن ماجة، وأبو داود.

١٥ ـ علي بن الجعد أبو الحسن الهاشمي مولاهم البغدادي الجوهري، المتوفى سنة (٢٣٠ هـ) روى له البخاري وغيره.

١٦ ـ الفضل بن دكين المعروف بأبي نعيم، المتوفى سنة (٢١٩ هـ) من رجال الصحاح الستة، وهو شيخ البخاري وأحمد وابن معين وإسحاق، قال فيه أحمد: الفضل ثقة يقظان عارف بالحديث.

١٧ ـ محمد بن عبدالله بن الزبير بن عمر أبو أحمد الأسدي الزبيري، مولاهم المكي، المتوفى سنة (٢٠٢ هـ)[٤٢٧].

وقد نص ابن قتيبة في معارفه على تشيع جماعة هم من كبار شيوخ أحمد أمثال: يحيى بن سعيد القطان المتوفى سنة (١٩٨ هـ)، ووكيع بن الجراح المتوفى سنة (١٩٧ هـ)، وحميد بن عبد الرحمن الرواسي المتوفى سنة (١٩٠هـ)، وهشيم بن بشير الواسطي المتوفى سنة (١٨٣ هـ)[٤٢٨] وغيرهم.

كما أنّ الإمام أحمد أخذ العلم عن جماعة من تلامذة الإمام الصادق (عليه السلام).

والمنتمين لمدرسته، أمثال: إبراهيم بن سعد بن عبد الرحمن الزهري المتوفى سنة (١٨٣ هـ)[٤٢٩]، وإبراهيم بن زياد المتوفى سنة (٢٢٨ هـ)[٤٣٠] ، وجرير بن عبد

(٤٢٧) مناقب أحمد بن حنبل لابن الجوزي ص ٣٤ ـ ٥٤.
(٤٢٨) المعارف لابن قتيبة ص ٣٢٥
(٤٢٩) تهذيب الكمال ج ٢ ص ٨٨ الرقم ١٧٤.
(٤٣٠) تهذيب الكمال ج ٢ ص ٨٥ الرقم ١٧٢.

الحميد المتوفى سنة (١٨٨ هـ)[٤٣١]، ومكي بن إبراهيم المتوفى سنة (٢١٥ هـ)[٤٣٢]، والضحّاك بن مخلد الشيباني أبو عاصم النبيل المتوفى سنة (١٣١هـ)[٤٣٣]، وغير هؤلاء عدد كبير من الذين عرفوا بالتشيّع وانتسبوا لمدرسة أهل البيت(عليهم السلام). والغرض أنّ الإمام أحمد لم يسلم من التصاق التهمة به بالميل للعلويين، والجنوح للشيعة وهم خصوم الدولة، واعداء ذلك المجتمع الذي سادت به موجة من الفوضى والإرهاب. لأنّه أظهر مايدلّ على اتهامه من تفضيله للإمام عليّ ورواية مناقبه، واتصاله برجال الشيعة وأخذه عنهم، كما أنّه وضع كتاباً خاصاً في فضائل علي ومناقبه، خرّج أحاديثه بالطرق الصحاح، وروى عنه جمع غفير.

أقوال العلماء

رأينا كيف امتاز أحمد من بين أقرانه، فهل كان هو المنفرد بمنزلة لا يدانيه فيها أحد؟ أم أنّ الظروف رفعته دونهم وقدّمته على من هو أعلم منه، ولعلّ فيما نقدّمه من أقوال معاصريه جواباً عن ذلك:

قيل لأبي داود: أحمد أعلم أم علي بن المديني؟ قال: علي أعلم باختلاف الحديث من أحمد[٤٣٤].

وقال أحمد بن حامد: سمعت رجاء بن جابر المرجي يقول: رأيت ابن حنبل وإسحاق، وابن المديني والشاذكوني، فما رأيت أحفظ من عبدالله، يعني عبدالله بن عبد الرحمن الدارمي المتوفى سنة (٢٥٠ هـ)، والذي كان يسمّيه أحمد بالسيد، وقال فيه ابن أبي حاتم: إنّه إمام أهل زمانه[٤٣٥].

وقال أحمد: يحيى بن معين أعلمنا بالرجال. وقال ابن المديني: لا نعلم أحداً كتب من الحديث ماكتب يحيى بن معين[٤٣٦].

وقال ابن سلام: انتهى الحديث إلى أربعة: إلى أبي بكر بن شيبة، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وعلي بن المديني[٤٣٧].

(٤٣١) تهذيب التهذيب ج ٣ ص ٦٧ الرقم ٩٧٠.
(٤٣٢) تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٢٦٢ الرقم ٧١٩٥.
(٤٣٣) تهذيب الكمال ج ١٣ ص ٢٨١ الرقم ٢٩٢٧.
(٤٣٤) سير أعلام النبلاء ج ٩ ص ٣٤٣ الرقم ١٨١٩.
(٤٣٥) تاريخ بغداد ج١٠ ص ٣١، تهذيب التهذيب ج ٥ ص ٢٦٢ الرقم ٣٥٤٦.
(٤٣٦) تذكرة الحفاظ ج٢ ص ١٧، تهذيب الكمال ج ٣١ ص ٥٤٧ الرقم ٦٩٢٦.
(٤٣٧) سير أعلام النبلاء ج ٩ ص ٣٤٣ الرقم ١٨١٩ .

وقال الدارقطني في إبراهيم الحربي: إنّه ثقة يقاس بأحمد في زهده وعلمه وورعه، وهو إمام مصنّف عالم بكلّ شيء بارع بكلّ علم صدوق[٤٣٨].

وقال أبو زرعة: مارأيت أحفظ من أبي بكر بن شيبة. فقال له ابن خداش: ياأبا زرعة فأصحابنا البغداديون؟ قال: دع أصحابك; إنّهم أصحاب مخاريق، مارأيت أحفظ من أبي بكر[٤٣٩].

وفي ترجمة عبدالله بن أحمد بن حنبل أنّ بعضهم قدّمه على أبيه في الحفظ والسماع وعلل الحديث[٤٤٠].

وقال ابن المديني غير مرة: والله لو حلفت بين الركن والمقام; لحلفت بالله إني لم أر أحداً قط أعلم بالحديث من عبد الرحمن[٤٤١].

وقال ابن المديني: أعلم الناس لقول الفقهاء السبعة، الزهري، ثم بعده مالك، ثم بعده ابن مهدي[٤٤٢].

وقال أحمد في أبي الوليد الطيالسي: أبو الوليد اليوم شيخ الإسلام ما أقدّم عليه من المحدثين أحداً[٤٤٣].

وقال أبو عمران الطرسوسي في أبي مسعود الرازي: ماتحت أديم السماء أحفظ لأخبار رسول الله من أبي مسعود الرازي[٤٤٤].

وقال أبو الخصيب في البخاري: أنه أفقه وأبصر من ابن حنبل، وقال أبو عمر الخفاق: هو - أي البخاري - أعلم بالحديث من إسحاق وأحمد وغيرهما بعشرين درجة[٤٤٥].

وقال صالح بن محمد: أعلم من أدركت بالحديث وعلله علي بن المديني، وأعلمهم بتصحيف المشايخ يحيى بن معين، وأحفظهم عند المذاكرة أبو بكر ابن شيبة[٤٤٦].

وقال إسحاق بن إبراهيم: انّ الله لا يستحيي من الحق; أبو عبيد أعلم مني، ومن أحمد والشافعي![٤٤٧].

(٤٣٨) معجم الأدباء ج ١ ص ١٢٥.
(٤٣٩) تذكرة الحفاظ ج ٢ ص ١٩.
(٤٤٠) تاريخ بغداد ج ١ ص ١٢٥.
(٤٤١) تذكرة الحفاظ ج ٢ ص ١٩.
(٤٤٢) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٣٠٣.
(٤٤٣) تهذيب الكمال ج ٣٠ ص ٢٢٩ الرقم ٦٥٨٤.
(٤٤٤) طبقات الحنابلة ج ١ ص ٥٣.
(٤٤٥) تهذيب التهذيب ج ٩ ص ٦٧.
(٤٤٦) تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٧٠.
(٤٤٧) سير أعلام النبلاء ج ٩ ص ١٨٨ الرقم ١٧٠٢.

وأبو عبيد هذا من طبقة أحمد وأقرانه، فإنّ وفاته سنة (٢٢٥ هـ)، وأمّا إسحاق فهو المعروف بابن راهويه المتولد سنة (١٦٤ هـ) والمتوفى سنة (٢٣٨هـ) ، وهو في سن أحمد ومن أقرانه، وسئل أحمد عنه فقال: من مثل إسحاق. وقال النسائي: ابن راهويه أحد الأئمة. وقال ابن خزيمة: لو أن إسحاق بن إبراهيم كان في التابعين لأقروا له بحفظه وعلمه وفقهه. وقال محمد بن يحيى الذهلي: إنّ إسحاق اجتمع بالرصافة مع أعلام الحديث منهم أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وغيرهما فكان صدر المجلس لإسحاق(٤٤٨).

وقال إبراهيم بن أبي طالب: سألت أبا قدامة عن الشافعي وأحمد وإسحاق وأبي عبيد فقال: الشافعي أفهمهم إلاّ أنه قليل الحديث، وأحمد أورعهم وإسحاق أحفظهم، وأبو عبيد أعلمهم بلغات العرب(٤٤٩).

وقال محمد بن أسلم الطوسي لمّا بلغه موت إسحاق بن راهويه: ما أعلم أحداً كان أخشى لله من إسحاق يقول الله: (**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ا لْعُلَمَاء**)، وكان أعلم الناس، ولو كان الحمادان والثوري في الحياة لاحتاجوا إليه.

وقال أحمد بن حنبل: لا أعلم لإسحاق بالعراق نظيراً(٤٥٠).

مذهبه وانتشاره

لم ينل المذهب الحنبلي شهرة كغيره من المذاهب، وكانت خطى انتشاره قصيرة جداً، أمّا في بغداد فلم تكن له شهرة إلاّ بين طبقة عرفوا بالعنف والشدة في سيرتهم، وتحاملهم على غيرهم من المذاهب، أما خارج بغداد فهو غير معروف ولا منتشر، وكان يعتنقه في مصر أفراد معدودون، وذلك في القرن السابع، ولما ولي القضاء موفق الدين عبدالله بن محمد بن عبد الملك الحجازي المتوفى سنة (٧٦٩ هـ)، انتشر مذهب أحمد بواسطته، وقرب فقهاء الحنابلة وأصبح لهم شأن يذكر.

وفي سائر الأقطار الإسلامية كانت الغلبة للمذهب الحنفي والشافعي، وفي المغرب ساد مذهب مالك، وكان في الري عدد قليل من الحنابلة، وكذلك في الشام.

وقد علّل ابن خلدون أسباب قلّة أتباع أحمد بقوله:

(٤٤٨) تاريخ بغداد ج ٦ ص ٣٥٣.
(٤٤٩) تهذيب التهذيب ج ٨ ص ٣١٦.
(٤٥٠) تذكرة الحفاظ ج ٢ ص ٢٠.

أما أحمد فمقلده قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد، وإصالته في معاضدة الرواية، وللأخبار بعضها ببعض، وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها[٤٥١].

ويذهب غيره إلى أنّ السبب يعود لعدم تقلد الحنابلة للقضاء، لأنّ ذلك هو سبب انتشار مذهب أبي حنيفة ومالك.

ومهما تكن الأسباب فإنّ المذهب الحنبلي انتشر في بغداد، وكانت الغلبة فيها للمذهب الشيعي[٤٥٢] وقد قام الحنابلة بدور صراع عنيف مع الشيعة ولكن لم يستطيعوا التغلّب عليه.

وفي سنة (٣٢٣ هـ) عظم أمر الحنابلة وقويت شوكتهم، وصاروا يكبسون دور القواد والعامة، وإن وجدوا نبيذاً أراقوه، وإن وجدوا مغنية ضربوها فأرهجوا بغداد، وأقلقوا بال الحكومة، كما استظهروا بالعميان الذين يأوون إلى المساجد، فإذا مر بهم شافعي ضربوه بعصيهم حتى يموت[٤٥٣].

فخرج توقيع الخليفة الراضي ينكر على الحنابلة فعلهم ويوبّخهم باعتقاد التشبيه وغيره، فمنه: «تارة أنّكم تزعمون صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال ربّ العالمين، وهيئتكم الرذيلة على هيئته، وتذكرون الكفّ والأصابع والرجلين والنعلين المذهبين... والصعود إلى السماء، والنزول إلى الدنيا: تعالى الله عمّا يقول الظالمون والجاحدون علوّاً كبيراً، ثم طعنكم على خيار الأمة ونسبتكم شيعة آل محمد (صلى الله عليه وآله) إلى الكفر والضلال، ثم استدعاؤكم المسلمين إلى الدين بالبدع الظاهرة، والمذاهب الفاجرة التي لا يشهد بها القرآن، وانكاركم زيارة قبور الأئمة وتشنيعكم على زوارها بالابتداع، وأنتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام ليس بذي شرف ولا نسب ولا سبب برسول الله، وتأمرون بزيارته، وتدّعون له معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء، فلعن الله شيطاناً زين لكم هذه المنكرات وماأغواه!

«وأمير المؤمنين - أي الراضي - يقسم بالله قسماً جهداً إليه يلزمه الوفاء به لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم، ومعوج طريقتكم، ليوسعنّكم ضرباً وتشريداً، وقتلاً وتبديداً، وليستعملنّ السيف في رقابكم والنار في منازلكم ومحالكم»[٤٥٤].

(٤٥١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٦٦ .

(٤٥٢) أنظر أحسن التقاسيم لشمس الدين محمد بن أحمد المعروف بالشاري: ٣٩١ .

(٤٥٣) الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ١١٧.

(٤٥٤) الكامل لابن الأثير ج ٥ ص ١٧٥ - ١٧٦.

ومن هذا نستظهر أنّ أفكار المجسمة والحشوية، كان انتشارها في الحنابلة مشهوراً، وهذا ممّا يؤدي إلى نفرة كثير من النفوس على مافي الحنابلة من شدّة في الدعاية لنشر مذهبهم وإثارة الفتن، وغلظة المعاملة والعنف.

كما أنّ وقوع الفتن بين الحنابلة والشافعية أدّت إلى تقلّصه، ووقفت دون انتشاره، وخصوصاً أنّ العامة من الحنابلة قد اشتهروا في الأمر الذي يعتقدونه، واتخذوا العنف ذريعة لاظهار ذلك التشدّد، وأنّ مقابلتهم للشيعة ونسبتهم لهم إلى أمور لا تليق بهم قد أثّر أثره في انتكاس الحنابلة، وعدم انتشار مذهبهم، لأنّ أغلبية بغداد هم شيعة، والحنابلة قلّة اتخذوا العنف وسيلة لانتصار مذهبهم.

ولما قامت الدولة الأيوبية، كان ملوكها شديدي التعصّب للمذهب الشافعي، فحاربوا غيره من المذاهب، ولم يسمحوا لغيره من المذاهب إلاّ ماكان له من العامة كالمذهب المالكي.

وعندما أخذ نفوذ الدولة الأيوبية يضعف، أخذ ذلك المذهب ينتشر في مصر، ولقد جاء في الخطط للمقريزي[٤٥٥] أنه لم يكن له وللمذهب الحنفي كبير ذكر بمصر في الدولة الأيوبية ولم يشتهر إلاّ في آخرها.

ولمّا امتدّ سلطان العثمانيين أصاب المذهب الحنبلي ضربة قاضية، لأنّ العثمانيين كانوا حنفية وأخذ ذلك يتضاءل شيئاً فشيئاً. أمّا في مصر فلم يكن له أيّ شهرة هناك، فقد كان في العصور المتأخرة عدد شيوخ الأزهر (٣١٢) شيخاً من جميع المذاهب، وعدد طلابه ٩٠٦٩، وكان من بينهم (٢٨) طالباً من الحنابلة و (٣) شيوخ منهم فقط، ولكنه ظهر في القرن الثامن عشر ميلادية بصورة قوية جديدة، بظهور الوهابيين الذين يتبيّن في مذهبهم أثر تعاليم ابن تيمية، وقد تطرفوا في ذلك إلى حدّ بعيد.

الفقه الحنبلي

قلنا سابقاً: إنّ الإمام أحمد لم يدون كتاباً فقهياً يأخذ أتباعه عنه مذهبه، وهو محدّث أكثر منه فقيه، وكان ينهى عن تدوين أقواله وآرائه، ولكنّ أصحابه أخذوا آراءه الفقهية من أقواله وأفعاله وأجوبته ورواياته، فكانوا إذا وجدوا عنه في مسألة قولين عدلوا أوّلاً إلى الجمع بينهما بطريقة من طرق الأصول، إمّا بحمل خاص على عام، أو مطلق على مقيّد، فإذا أمكن ذلك كان القولان مذهبه، وإن تعذّر الجمع بينهما وعلم

(٤٥٥) الخطط للمقريزي ج ٤ ص ١٥١، أحمد بن حنبل لأبي زهرة ص ٤١٤.

التاريخ فقد اختلف أصحابه في ذلك، فقال قوم: الثاني مذهبه. وقال آخرون: الثاني والأوّل. وقالت طائفة: الأوّل وإن رجع عنه[٤٥٦].

ومن أجل هذا كانت المجموعة الفقهية المنسوبة لأحمد قد اختلفت فيها الأقوال والروايات عن أحمد بكثرة عظيمة، فإنّهم قد يستنبطون من فعل أحمد أو أجوبته قولاً لا يدلّ عليه الجواب أو الفعل، وقد يحكي آخر خلافه، لأنّه سمع من أحمد ماينا‌قض استنباطه الأوّل، وهكذا تكثر الروايات وتختلف الأقوال المنسوبة إلى أحمد.

وكذلك اختلفوا في تغيير عبارات جاءت على لسان أحمد في إجابته عن مسائل سئل عنها، فكانت عباراته ليست صريحة في إثبات الحرمة، أو في بيان أنّ الحكم هو الطلب على سبيل الوجوب، أو على سبيل الندب، فمثلاً كلمة «لا ينبغي» في كثير من إجاباته، فقد ذكروا أنّه يستحب فراق غير العفيفة، واحتجوا بقول أحمد: لا ينبغي أن يمسكها، فحملوا ذلك على الكراهة.

وسأله أبو طالب عن الرجل يصلي إلى القبر والحمام والحش. قال أحمد: لا ينبغي. قال أبو طالب: فإن كان؟ قال: يجزيه.

وسأله أبو طالب فيمن يقرأ في الأربع كلّها بالحمد وسورة؟ قال: لا ينبغي أن يفعل فحملوا هذا على الكراهة، وكذلك قوله أكره، أو لا يعجبني، أو لا أُحبّه، أو لا استحسنه، حملوا ذلك كلّه على الكراهة[٤٥٧].

ومنهم من يحمله على الحرمة، وقد نقل ابن القيم الجوزية روايات كثيرة عن أحمد جاءت بلفظ الكراهة، والمقصود التحريم.

وإذا جاءت رواية عن أحمد بلفظ أُحبّ، ويعجبني، أو أعجب إليَّ، فعند الأكثر من الحنابلة يكون ذلك محمولاً على الندب، وقيل: يحمل على الوجوب، وكذا إذا قال: هذا حسن أو أحسن. أما إذا قال أحمد: أخشى أو أخاف أو يكون أو لا يجوز، أو أجبن عنه فقيل: يحمل على التوقف لتعارض الأدلة، وقيل: هو على ظاهره.

وإن أجاب عن شيء ثم قال عن غيره أهون، أو أشدّ، أو أشنع فقيل هما سواء، إلى آخر مالديهم من الاصطلاحات في تفسير أقوال أحمد إذ هي عمدة المذهب، وعليها أُبتني التخريج والعمل، فهي بمثابة مايروى عن النبي (صلى الله عليه وآله).

قال ابن أبي يعلي: وليست جوابات إمامنا في الأزمنة والأعصار إلاّ بمثابة مايروى عن النبي (صلى الله عليه وآله) من الآثار، لا يسقط نهايتها موجبات بدايتها إلاّ

(٤٥٦) أحمد بن حنبل لأبو زهرة ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(٤٥٧) أعلام الموقعين ج ١ ص ٣٣ و ٣٤، أحمد بن حنبل، محمد أبوزهرة ص ٢٠٧.

بأمر صريح بالنسخ أو التخيف، فإذا عدم ذلك كان على موجبات رعايته، فكذلك في جواباته إذ العلماء أنكروا على أصحاب الشافعي من حيث الجديد والعتيق، وأنه إذا ثبت القول فلا يرد إلاّ باليقين، فكذلك في جوابات إمامنا[٤٥٨].

وعلى أيّ حال فقد وردت في أجوبة أحمد ألفاظ حملها بعضهم على الكراهة، وبعضهم على الحرمة، فمثلاً أنّه قال: أكره لحم الحيّة والعقرب، لأنّ الحية لها ناب والعقرب لها حمة. فحملوا ذلك على الحرمة.

وقوله: ويكره أن يتوضأ الرجل في آنية الذهب والفضة، وقوله في الجمع بين الأختين بملك اليمين: أكرهه ولا أقول هو حرام. قالوا: إنّ مذهبه الحرمة.

ومثل لفظ أكره قوله: لا يعجبني وقد ساق ابن القيّم الجوزية أمثلة كثيرة لحمل ذلك على الحرمة، ومن ذلك: أنّه سئل عن رجل أكثر ماله حرام أيؤكل ماله ويغصب منه؟ فقال: إذا كان أكثر مال الرجل حراماً فلا يعجبني أن يؤكل ماله.

وسئل عن الخمر يتخذ ليكون خلاً فقال: لا يعجبني، إلى آخر ماورد من تعبير هذه الألفاظ وحملها على أحد الوجهين، إستناداً للقرائن.

وقد ثبت عن أحمد أنّه كان يجيب عن بعض المسائل بلا أدري. نقل أبو داود أنه سئل عن المرأة تعدم الماء ويكون مجتمع الفساق فتخاف أن تخرج أتتيمم؟ قال: لا أدري[٤٥٩].

كتب الفقه الحنبلي

وقد أ لّف رجال المذهب الحنبلي كتباً في تدوين أقوال أحمد والروايات عنه، والتخريج عليها، ومن مجموع ذلك تكوّنت مجموعة فقهية نسبت إليه; شأنه شأن غيره من المذاهب كما تقدّم.

ومن أشهر الكتب التي تعدّ أصلاً من أصول الفقه الحنبلي: هو مختصر الخرقي، وهو عبدالله بن أبي بكر بن البدر الخرقي المتوفى سنة (٦٢٠ هـ)، وقال فيه: إنه لم يخدم كتاب في المذهب مثل ماخدم هذا المختصر، وقد توافر عليه علماء الحنابلة بالشرح والتعليق، وأعظم شروحه المغني لموفق الدين المقدسي، قال الشيخ عبد القادر الدمشقي المعروف بابن بدران: وقد اطلعنا له - أي للمختصر - مايقرب من

(٤٥٨) طبقات الحنابلة ج ٢ ص ١٧٦.
(٤٥٩) طبقات الحنابلة ج ١ ص ٨٣.

عشرين شرحاً، وسمعت من شيوخنا وغيرهم أنّ من قرأه حصل له ثلاث خصال: إمّا أن يملك مائة دينار، أو يلي القضاء، أو يصير صالحاً[٤٦٠].

ومنها المستوعب، تأليف محمد بن عبدالله بن الحسين السامري المتوفى سنة (٦١٠ هـ). والكافي للشيخ موفق الدين المقدسي صاحب المغني. والعمدة له أيضاً، والهداية لأبي الخطاب الكوذاني، وقد تقدّمت ترجمته[٤٦١]، والمحرر لابن تيمية، والمقنع لموفق الدين المقدسي، وغيرها من كتب المذهب.

أصول الفقه الحنبلي

وقد ذكر ابن القيّم الجوزية: أنّ الأصول التي بنى عليها الإمام أحمد فتاويه خمسة:

أحدها: النصوص، فإذا وجد النص أفتى بموجبه ولم يلتفت إلى ماخلفه، ولذلك قدّم النص على فتاوى الصحابة.

الثاني: ماأفتى به الصحابة، ولا يعلم مخالفاً فيه، فإذا وجد لبعضهم فتوى، ولم يعرف مخالفاً لها لم يعدها إلى غيرها، ولم يقل إنّ ذلك اجتماع، بل يقول من ورعه في التعبير: لا أعلم شيئاً يدفعه.

الثالث: أنه إذا اختلف الصحابة تخيّر من أقوالهم أقربها إلى الكتاب والسنة ولم يخرج عن أقوالهم، فإن لم يتبين له موافقة أحد الأقوال حكى الخلاف، ولم يجزم بقول.

الرابع: الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف إذا لم يكن في الباب شيء يدفعه، وهو الذي رجّحه على القياس.

الأصل الخامس: إذا لم يكن عند الإمام أحمد في المسألة نصّ، ولا قول الصحابة أو واحد منهم، ولا أثر مرسل أو ضعيف; ذهب إلى القياس فاستعمله للضرورة، وقد نقل الخلال عن أحمد أنّه قال: سألت الشافعي عن القياس فقال: إنّما يصار إليه عند الضرورة[٤٦٢].

ولكن كتب الأصول عند الحنابلة قد زادت على هذه الأصول، فذكروا الاستصحاب والمصالح والذرائع، وربّما ذكروا الإجماع، وقبل الختام نعود إلى إيضاح الموقف بين المعسكرين، المعتزلة والمحدّثين.

(٤٦٠) أنظر أحمد بن حنبل لمحمد أبو زهرة ص ١٩٦ - ١٩٧.
(٤٦١) سير أعلام النبلاء ج ١٤ ص ٣٣٥ / الرقم ٤٦٠٥.
(٤٦٢) أعلام الموقعين لابن القيم ص ٢٢ - ٢٦.

بين معسكرين

كان النزاع بين المحدّثين والمعتزلة شديداً، وقد استطاع المعتزلة أن يتغلّبوا على خصومهم، وأصبحت أمور الدولة بأيديهم، فمنهم الأمراء والقضاة وهم أهل الحل والعقد، عندما وقع المأمون تحت سيطرتهم. وخضع لنفوذهم، وارتاح لأحاديثهم، لأنّه كان متعطشاً إلى العلم والفلسفة وحرية العقل ومشغوفاً بالمناقشة والجدال، والمعتزلة في وقته هم أقطاب الأدب. وأرباب الجدل، وطلاب العلم والفلسفة.

قال الدميري: كان المأمون نجماً لبني العباس في العلم، والحكمة، وقد أخذ من العلوم بقسط وافر، وضرب فيها بسهم، وهو الذي استخرج كتاب أقليدس، وأمر بترجمته وتفصيله، وعقد في خلافته للمناظرة في الأديان والمقالات، وكان أستاذه أبو الهذيل العلاف(٤٦٣).

وكان لأحمد بن أبي داود أكبر الأثر في تحقيق مآرب المعتزلة وأهدافهم، فهو قاضي الدولة، وصاحب السلطة التشريعية، وله عند المأمون مكانة لا يزاحمه بها غيره، فاستطاع بلباقته وغزارة علمه. وذلاقة لسانه، أن يحمل المأمون على القول بخلق القرآن. وإظهار مايذهب إليه المعتزلة من آراء.

وكان المعتزلة يرون أنّ القول بقدم القرآن فكرة مسيحية، دست بين الجماهير الإسلامية، فيما كان يدسّ فيهم من أفكار، وقد تلقّاها الجمهور بالقبول لما فيها من تقديس للقرآن الكريم، كما جاء في رسالة النصارى للجاحظ المعتزلي: إنّ الكائدين للإسلام يرتضون ويرحبون بمقالة الفقهاء والمحدّثين الذين يروجونها عند العامة، لأنّهم يتخذون من الحكم بأنّ كلّ كلام الله قديم، سبيلاً لأن يقيموا الحجة على أنّ المسيح قديم، وتكون تلك الحجة من الكتاب الكريم، إذ فيه أنّ المسيح كلمة الله، وكلّ كلام الله قديم، وكلمة الله قديمة فالمسيح قديم(٤٦٤).

وإن الأخبار الصادقة تثبت أنّ النصارى الذين كانوا يعيشون بين المسلمين، يؤلمهم أن يدخل المسيحيون في دين الله أفواجاً، وكانوا يثيرون أفكاراً بين المسلمين، ويتخذون من هذه الأفكار حججاً لهم يجادلون بها عن دينهم.

وقد جاء في كتاب تراث الإسلام عن يوحنّا الدمشقي الذي كان في خدمة الأمويين إلى عهد هشام بن عبد الملك: أنّه كان يلقن بعض المسيحيين مايجادلون به المسلمين فيقول: (إذا سألك العربي ماتقول في المسيح؟ فقل إنّه كلمة الله، ثم ليسأل النصراني

(٤٦٣) حياة الحيوان ج ١ ص ٧٢.

(٤٦٤) أحمد بن حنبل لأبي زهرة ص٦٧.

المسلم بم سمّي المسيح في القرآن؟ وليرفض أن يتكلم بشيء حتى يجيبه المسلم، فإنّه سيضطر إلى أن يقول إنّما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، فإذا أجاب بذلك، فاسأله عن كلمة الله وروحه، أو مخلوقة أم غير مخلوقة؟ فإن قال مخلوقة، فليرد عليه بأنّ الله كان ولم تكن كلمة ولا روح، فإن قلت ذلك فسيفحم العربي، لأن من يرى هذا الرأي زنديق في نظر المسلمين.

فالمعتزلة يرون أنّ من يقول إنّ القرآن قديم يمد النصارى بحجة يجادلون بها، وأنّ من الواجب ألاّ يقال ذلك، لأنّه يعطي للخصوم حجة على الإسلام، ويفتح الثغرة لمن ينالون منه، وليس هو الحقّ، ومن قاله فقد ضاهى قول النصارى في المسيح، وحكم بتعدد القدماء، وجعل القرآن الذي ينطق به الناس قديماً كشأن الله سبحانه وتعالى[٤٦٥].

وكان المحدّثون يرون ألا يخوضوا في شيء لم يخض فيه السلف، كما أنّهم يمنعون عن الفلسفة والكلام، لأنّهم يرون أنّ العامة إذا تفلسفوا ألحدوا. وإذا قيل لهم إنّ القرآن مخلوق فذلك يساوي أنّه يصح الرد عليه، يجوز الإتيان بمثله، أو أنّه يؤدي إلى الاستهانة به، إلى غير ذلك مما توحيه إليه عواطفهم ومايرونه لازماً عليهم.

وهذه المسألة في الواقع مسألة علمية يجب أن تبحث وتناقش نقاشاً منطقياً، ليظهر للملأ أحقيّة أيّ الحزبين.

وكذلك الخلاف في رؤية الله سبحانه وتعالى وصفاته، ينبغي أن تناقش بعلمية ويترك الأمر للبراهين والحجج ليتضح الحقّ.

وقد سلك المعتزلة في تأييد مذاهبهم طريق القوة، واستعملوا الشدة وأخذوا الناس بالمحنة، وجاءوا بالعلماء من أطراف البلاد، ليحاكموهم، ويمتحنوهم في عقائدهم، ويتحكموا في ضمائرهم فمالوا عن توجههم الفكري، ووقعوا في تناقض عمليّ صريح.

فأصبح الناس لا يرون أنّ ذلك يرجع إلى قواعد علمية، أو أنّها مسألة تنزيه الله سبحانه وتعالى، أو مغالبة رأي برأي; بل جعلوا ذلك محنة نزلت في الإسلام والمسلمين، فهم يرون السجون قد ملئت برجال المحدّثين، والولاة في كلّ مكان يمتحنون الناس بقوّة السلطان، فالجنود يسوقون الناس بسياطهم وسيوفهم إلى مجالس الامتحان، بل إلى محاكمات المعتزلة، وبهذا فقد كره الناس الاعتزال لأنّ الحكومة احتضنته، وأرادت فرضه

(٤٦٥) أحمدبن حنبل، لمحمد أبو زهرة ص ٦٤.

بالقوة، والعقائد لا ينشرها التعذيب والإرهاب، وإنّما ينشرها الإقناع والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة. وقد وقع المعتزلة في سلوك يجافي ما ادّعوه.

وبهذا استغل المشنّعون على المعتزلة الفرصة، فأساؤوا الى سمعتهم، وشوّهوا دعوتهم، وأدخلوا على أذهان العامة من الباب التي يتفق وعقليتهم.

كما أنّهم التفوا حول المعارضين لهذه الدعوة، والثابتين في المحنة، وكلّما ازدادت المحنة، ازدادت العامة إيماناً بعقيدتهم، وتأييداً للرجال الذين لم يجيبوا إلى ماطلب منهم.

وكان امتحان أحمد بن حنبل لم يصل إلى حدّ السيف كغيره من العلماء الذين كانت نهايتهم القتل، والتأبيد في السجن، فقد نجا من ذلك، وكان هو بقية الفئة التي ثبتت من المحدثين على الامتناع - بأيّ صورة كان - فكانت العامة تنظر إليه كبطل قارع خصمه وثبت على إيمانه.

فأصبح بعد رفع المحنة شخصية لها أثرها، لاسيّما وأنّ السلطة قد لحظته بالعناية أيام المتوكل، عندما رفع المحنة، فكان محل ثقة الجماهير، واحترام العلماء من المحدثين، حتى أصبح حبّه علامة الإيمان، وبغضه علامة الكفر، وإن من وثّقه ابن حنبل وثق، ومن ضعّفه ضعف. وانتصرت العامة أيام المتوكل بانتصار المحدّثين.

انتصار المحدّثين

انتصر المحدّثون بعد أن أفل نجم المعتزلة بانحراف المتوكل عنهم، وبذلك انفجر بركان غيظهم وظهر حقدهم الدفين، وانطلقت حركة الانتقام جامحة، فجاهروا بلعن المعتزلة ووصفوهم بكلّ قبيح، بل تجاوزوا الحدّ إلى سواهم ممّن لم يكونوا على رأي أصحاب ابن حنبل.

واتخذوا تشييع الجنائز كمظاهرات لإظهار الشعور، والتظاهر بالسبّ لمن خالفهم، كما صنعوا في تشييع جنازة أحمد بن نصر التي مشى فيها جماهير العامة في بغداد، وصاروا يتمسّحون بالنعش حتى أنّ المتوكل تخوّف من اجتماع العامة وتجمهرهم على ذلك النحو، فكتب إلى عامله يأمره بمنعهم من الاجتماع والحركة في مثل هذا وشبهه[٤٦٦].

(٤٦٦) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٣١٤ - ٣١٥.

وكذلك فعلوا في جنازة ابن حنبل، فإنّه يقال إنّ خلقاً كثيراً مشوا فيها، وحدث أحد الذين شهدوها قال: إنّه مكث طوال الأسبوع رجاء أن يصل إلى القبر فلم يتمكن إلاّ بشقّ النفس لكثرة ازدحام الناس عليه.

وهكذا تحوّلت تلك الجنازة إلى مظاهرة عظيمة، أظهر القوم فيها التفجّع على الإمام الراحل، وطعنوا في أهل البدع - كما يرون - ولعنوهم - كما يشاؤون - ولزم بعضهم القبر وباتوا عنده، وجعل النساء يأتين إليه، فاضطرت السلطة إلى أن أرسلت حامية إلى ذلك الموضع منعاً لوقوع الفتنة(٤٦٧).

وعلى أيّ حال فقد كان المحدّثون يصبّون جام غضبهم على أعدائهم لعناً وقتلاً وتكفيراً، وتمادوا في مهاجمة المعتزلة حتى قالوا: إنّ المعتزلي لا تجوز الصلاة عليه، وإن دماءهم وأموالهم حلال للمسلمين، وفيه الخمس، وليس على قاتل الواحد منهم قود ولا دية ولا كفارة، بل لقاتله عند الله القربة والزلفى(٤٦٨).

وقد وضع بعضهم من الأحاديث ماشاؤوا، ومن المنامات ما أرادوا، وقام القصاصون في نشرها على ذلك المجتمع الذي سادت فيه روح النقمة بعد نشوة الانتصار.

كما حكموا على من لم يقل بمقالتهم في خلق القرآن بالكفر والخروج عن الدين، وكان أحمد نفسه يرى ذلك، فقد حكم على جماعة ممّن أجاب في المحنة بالكفر.

وكان لا يرى إجزاء تحرير رقبة عبد يقول بخلق القرآن.

روى عبدالله بن أحمد، قال: سئل أبي عن رجل وجب عليه تحرير رقبة مؤمنة، فكان عنده مملوك لقّنه أن يقول بخلق القرآن.

فقال أحمد: لا يجزي عنه عتقه، لأن الله تبارك وتعالى أمره بتحرير رقبة مؤمنة وليس هذا بمؤمن، هذا كافر(٤٦٩).

وسئل عمّن قال لفظي بالقرآن مخلوق، فقال: هذا لا يُكلّم، ولا يُصلّى خلفه، وإن صلى أعاد.

وبلغ أحمد أنّ القواريري سلّم على ابن رياح، فلمّا أراد القواريري أن يزور ابن حنبل، قال له: ألم يكف ماكان من الإجابة حتى سلمت على ابن رياح، وردّ الباب في

(٤٦٧) المعتزلة ص ١٨٥ - ١٨٦.
(٤٦٨) الفَرق بين الفِرق ص ١٥١.
(٤٦٩) طبقات الحنابلة ج ١ ص ١٣١.

وجهه، ونهى الشهود عن أن يشهدوا أمام قاض جهمي - يريد معتزلياً - ولو استعدى عليه[٤٧٠].

وقال في إحدى رسائله: إنّهم يكفرون بالذنب.. وحكمهم ألاّ يكلّموا ولا يناكحوا ولا تؤكل ذبائحهم ولا تقبل شهادتهم حتى يتوبوا[٤٧١]، وكان يتهم من يتعرض لأصحاب الحديث بالزندقة[٤٧٢].

وكان أحمد لا يشيّع جنازة من يقول بخلق القرآن، ولا يصلي عليه، ويرتب عليه أحكام الكفار.

كما أنّ أنصاره حكموا على من بغض أحمد بالكفر والبدعة. يقول قتيبة بن سعيد: أحمد بن حنبل إمامنا من لم يرض به فهو مبتدع[٤٧٣].

وراحوا يرفعون من شأن المتوكل على مافيه من مخالفة الدين، وبالغوا في الثناء عليه، حتى قال قائلهم: الخلفاء ثلاثة، أبو بكر يوم الردة، وعمر بن عبد العزيز في ردّ المظالم، والمتوكل في إحياء السنة[٤٧٤].

ومدحوه بأشعار كثيرة، واغتفروا له سوء فعله لرفعه المحنة، ورأى كثير من المحدّثين رؤى في المنام تذكر أنّ الله غفر له.

وكذا نشط الحنابلة نشاطاً عظيماً في نظم الشعر الذي يرفع من شأن إمامهم، ويقوي دعائم مذهبهم، ويحطّ من شأن أعدائهم، يقول مزاحم الخاقاني في مدح أحمد:

لقد صار في الآفاق أحمد محنة *** وأمر الورى فيها فليس بمشكل

ترى ذا الهوى جهلاً لأحمد مبغضاً *** وتعرف ذا التقوى بحبّ ابن حنبل[٤٧٥]

ويقول ابن أعين:

أضحى ابن حنبل محنة مأمونة *** وبحبّ أحمد يعرف المتنسك

وإذا رأيت لأحمد متنقصاً *** فاعلم بأنّ ستوره ستهتك[٤٧٦]وقال محمد بن أحمد بن الحسين الموصلي قصيدة طويلة منها:

وانظر بعين الاعتبار ولا تكن *** ذا غفلة عن طاعة الديّان

(٤٧٠) ضحى الإسلام ج ٣ ص ٢٠٠.
(٤٧١) المدخل الى مذهب أحمد بن حنبل ص ١٠ .
(٤٧٢) الطبقات ج١ ص ١٣٨ .
(٤٧٣) طبقات الحنابلة ج ١ ص ١٥.
(٤٧٤) المناقب ص ٣٥٦.
(٤٧٥) طبقات الشافعية الكبرى ج ٢ ص ٣٣.
(٤٧٦) جلاء العينين للآلوسي ص ١١٥.

واقصد لمذهب أحمد بن محمد *** أعني بن حنبل الفتى الشيباني
فهو الإمام مقيم دين المصطفى *** من بعد درس معالم الإيمان
إلى أن يقول:
فعلى ابن حنبل السلام وصحبه *** ماناحت الورقاء بالأغصان
إني لأرجو أن أفوز بحبّه *** وأنال في بعثي رضى الرحمن[٤٧٧]
ويقول عبدالله بن محمد الأنصاري في قصيدة يرثي أحمد:
وإمامي القوام لله الذي *** دفنوا حميد الشأن في بغدان
أنا حنبلي ماحييت وإن أمت *** فوصيتي ذاكم إلى إخواني[٤٧٨]
ويقول جعفر بن أحمد السراج:
لله ربّ الناس مذهب أحمد *** فإن عليه ماحييت معولي[٤٧٩].
ويقول أبو علي بن المتوكل على الله:
ياذا الذي أضحى يصول ببدعة *** وتشيع وتمشعر وتمعزل
لا تنكرن تحنبلي وتسنني *** فعليهما يوم المعاد معولي
إن كان ذنبي حبّ مذهب أحمد *** فليشهد الثقلان أني حنبلي[٤٨٠].

وهكذا يستمر الحنابلة في نصرة المذهب بالأقوال والأفعال، فهم يبثّون فضل أحمد ومزاياه، ووجوب تفضيل مذهبه على غيره، بشتّى الوسائل والطرق.

ولما قويت شوكة المحدّثين ـ وعلى رأسهم الحنابلة ـ وتعالت سلطتهم حتى كانوا حكومة داخل حكومة، أخذوا ينشرون المذهب بكلّ نشاط وقوة، ويوقعون الشر بمن يخالفهم بالرأي حتى ذكروا: أن محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير والتاريخ ألّف كتاباً في اختلاف الفقهاء لم يذكر فيه أحمد بن حنبل، فسئل عن ذلك فقال: لم يكن أحمد فقيهاً إنما كان محدّثاً، ومارأيت له أصحاباً يعول عليهم، فأساء ذلك الحنابلة، وقالوا: إنّه رافضيّ، وسألوه عن حديث الجلوس على العرش فقال: إنّه محال وأنشد:

سبحان من ليس له أنيس *** ولا له في عرشه جليس

فمنعوا الناس من الجلوس إليه، ومن الدخول عليه، ورموه بمحابرهم. فلمّا لزم داره، رموه بالحجارة حتى تكدست، وحتى ركب صاحب الشرطة، ومعه ألوف من الجند لمنع العامة عنه، ورفع الحجارة[٤٨١].

(٤٧٧) طبقات الحنابلة ج ١ ص ٢٥٧.
(٤٧٨) سير أعلام النبلاء ج ١٤ ص ٣٨ الرقم ٤٣٣٣ .
(٤٧٩) المناقب لابن الجوزي ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣.
(٤٨٠) طبقات الحنابلة ج ١ ص ٢٣٥.

وهذا ممّا يدلّ على تعصّب الحنابلة وشذوذهم في نشر مذهبهم، ومأكثر الحوادث التاريخية التي دلّت على أنّ حركتهم في غالب الأحوال حركة جماهيرية وهي لا شعورية. وكانت نشوة الانتصار على خصومهم قد جعلتهم يتشدّدون ويتعصّبون، وقد استمسكوا بألفاظ لا يفهمون معانيها. وكان موضوع مناقشتهم مسألة خلق القرآن، فخاضوا في هذه المسألة على غير علم، ولقد كان يكفي أن يقول الرجل القرآن غير مخلوق حتى يستجاز قوله، وإن تردد ولو للتروي والتفكير نبذ ورد(٤٨٢).

ولقد استنكر المفكرون من الأمة تلك الحال، حتى لقد ألّف ابن قتيبة ـ الذي كان يعيش في ذلك العصر ـ رسالة وصف فيها كيف كانت الاختلافات تجري بحدّة وعنف، بين الذين لا يعلمون في هذه المسألة، ويتكلّمون من غير بيّنة، وكيف كان المحدثون وعلى رأسهم الحنابلة يكفرون أو يحكمون من غير بيّنة على كلّ من لم ينطق بكلمة قديم، مضافة إلى شيء يتصل بالقرآن.

وقال في وصف المحدّثين، ثم الحنابلة:

كان آخر ماوقع من الاختلاق أمر أخص بأصحاب الحديث، الذين لم يزالوا بالسنة ظاهرين، وبالاتباع قاهرين، يداجون بكل بلد ولا يداجون، ويستتر منهم بالنحل ولا يستترون، ويصدعون بحقّهم الناس ولا يستغشون، لا يرتفع بالعلم إلاّ من رفعوا، ولا يتّضع فيه إلاّ من وضعوا، ولا تسير الركبان إلاّ بذكر من ذكروا، إلى أن كادهم الشيطان بمسألة لم يجعلها الله تعالى أصلاً في الدين، ولا فرعاً في جهلها سعة، وفي العلم بها فضيلة، فنما شرّها، وعظم شأنها. حتى فرقت جماعتهم، وشتت كلمتهم، ووهنت أُمورهم، وأشمتت حاسديهم.

وهذه المسألة التي كانت بهذه الشدّة واللجاجة في الخصومة والعداوة، فإنّها كانت محنة لأحمد في حياته من الأمراء والخلفاء، ثم كانت محنة الفكر من بعده، فالعامة لا يقبلون قولاً من أحد إلاّ إذا قدمه بوصف القدم لما يتصل بكتاب الله تعالى.

ويقول ابن قتيبة: ربّما ورد الشيخ المصر فقعد للحديث، فيبدؤونه قبل الكتابة بالمحنة، فالويل له إن تلعثم أو تمكث، أو سعل أو تنحنح قبل أن يعطيهم مايريدون، فيحمله الخوف من قدحهم فيه، وإسقاطهم له، على أن يعطيهم الرضا، فيتكلّم بغير علم، ويقول بغير فهم، فيتباعد من الله في المجلس الذي أمل أن يتقرّب فيه، وإن كان ممّن يعقد على مخالفتهم سام نفسه إظهار مايحبّون ليكتبوا عنه.

(٤٨١) اختلاف الفقهاء للطبري ص ١٠، طبقات الشافعية الكبرى ج ٣ ص ١٢٤.

(٤٨٢) أحمد بن حنبل، لمحمد أبو زهرة ص ٣٩٤.

وإن رأوا حدثاً مسترشداً، أو كهلاً متعلّماً سألوه، فإن قال أنا أطلب حقيقة هذا الأمر، وأسأل عنه، ولم يصح لي شيء بعد، وإنّما صدقهم عن نفسه، واعتذر بعذره والله يعلم صدقه، كذبوه وآذوه، وقالوا خبيث فاهجروه[٤٨٣]. ومن هذا يظهر أن للعوام سلطة لا يمكن لأحد من ذوي الفهم أن يقف أمامها، وليس للعلماء رأي في ذلك الصراع، وممّا يؤيد ذلك:

إنّ شيخ الحنابلة أبا جعفر عبد الخالق بن عيسى، توفي وأراد العوام أن ينبشوا قبر أحمد ويدفنوه معه، ولم يستطع أحد أن يقول للعوام لا تنبشوا قبر أحمد وادفنوه بجنبه، فقال أبو محمد التميمي من بين الجماعة: كيف تدفنونه في قبر الإمام أحمد وبنت أحمد مدفونة معه!؟ فإن جاز دفنه مع الإمام فلا يجوز دفنه مع بنته، فقال بعض العوام: اسكت فقد زوجنا بنت أحمد من الشريف ـ أي أبو جعفر ـ فسكت التميمي [٤٨٤] ودفنوه مع أحمد في قبره!

وهكذا تسير الأمور على غير ترو وتدبّر ويبتلى المسلمون بهذا البلاء، وتقع تلك الحوادث المؤلمة التي صدعت وحدة الصف، وفرّقت الكلمة، وفسحت المجال لخصوم الإسلام للتدخل في ذلك المعترك، لبث أفكارهم المسمومة ونشر آرائهم الفاسدة.

لقد كان هذان المعسكران في صراع فكري ونزاع عقائدي، وكان الأولى ألاّ يتعدّى ذلك حدود المنطق والنقاش العلمي، وأن يقتصر ذلك على العلماء والمفكّرين، ومن الخطأ أن يفرض تقبل الآراء الفلسفية على العوام يراد منهم أن يعرفوا الجوهر والعرض، والكمّية والكيفية، والمحدود واللامحدود، والمكان والجهة..

فالمعتزلة ـ وهم قادة تلك الحملة ـ كانوا الداعين الى حرية الفكر، والقائلين بسلطة العقل، قد خالفوا دعوتهم فعاملوا الناس بالشدّة، وقوة السلطة، والتعذيب والتنكيل والإهانة، ممّا حمل العامة على التذمّر والالتفاف حول من يعهد به مقاومة تلك الشدة، ومخالفة السلطة حتى كان ما كان من تعلّق الجماهير بشخصية أحمد، وجعلها في هالة القداسة والعظمة. وازداد نشاطهم في المنامات كثرة هائلة، حتى توصلوا إلى تأييد قولهم في خلق القرآن إلى إيجاد منام أشبه بمحاكمة، وتكون النتيجة أنّ الله سبحانه وتعالى يصدق قول أحمد، ويصوب رأيه.

(٤٨٣) أحمد بن حنبل، لمحمد أبو زهرة ص ٣٩٤ .

(٤٨٤) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٣ ص ٣٣٧.

وجعلوا جنّة عدن وقفاً على الحنابلة، لا يدخلها إلاّ من أحبّ أحمد[٤٨٥]، الى غير ذلك ممّا نشط فيه العوام، وتلقوه من القصاصين في لزوم التمسك بمذهب أحمد، واعتبار غيرهم مبتدعة كفرة، وبهذا الاندفاع فقد تغيّرت الأحوال، وانعكست المفاهيم، وحدث من وراء ذلك ما لا تحمد عقباه.

فعمل المعتزلة وتشددهم يعدّ في الواقع هو السبب في إثارة تلك الأعاصير، وهم مسؤولون عن انتكاسهم بعد ذلك النشاط، وهزيمتهم أمام قوّة المحدّثين، ورجوع الأكثرية الى الجمود، والتسليم خضوعاً للعاطفة، وامتثالاً لأمر السلطة.

يقول المسعودي: لما أفضت الخلافة للمتوكل أمر بترك النظر، والمباحثة في الجدال، والترك لما كان عليه الناس في أيام المعتصم والواثق، وأمر الناس بالتسليم والتقليد، وأمر الشيوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السنة والجماعة.

وقال الدكتور أحمد أمين: ولما ذهب ضوء المعتزلة وقع الناس تحت سلطان المحدّثين وأمثالهم من الفقهاء، وظلّوا تحت هذا السلطان من عهد المتوكل الى ما قبل اليوم بقليل، فكانت النتيجة جموداً بحتاً، وعلم العالم أن يحفظ الأحاديث ويرويها، كما سمعها ويفسّرها تفسيراً لغوياً، ويشرح رجال السند، كما شرحه الأقدمون، هذا ثقة، وهذا ضعيف، من غير نقد عقلي، وفقه الفقيه أن يروي أقوال الأئمة قبله، فإذا عرضت مسألة جديدة لم تكن; فقصارى جهد المجتهد أن يخرجها على أُصول إمامه، فهذه طبائع العلماء من عهد المتوكل، تسليم بالقضاء والقدر، وتسليم بما كان ويكون، وتقليد للسابقين، وتقليد في الفتاوى والآراء، ومن ثمة تكاد تكون الكتب المؤلّفة في الحديث والفقه والتفسير، بل والنحو واللغة من عهد المتوكل صورة واحدة، وإن اختلفت في شيء فاختلاف في الإطناب والإيجاز، والبسط والاختصار، أمّا الترتيب فواحد وأما الأمثلة فواحدة، وأمّا العبارة الغامضة في الكتاب الأول فغامضة في الكتاب الأخير، كلّها خضعت لأمر المتوكل بالتسليم والتقليد، وانعدمت فيها كلّها الشخصية; لأنّ الشخصية عدوّة التسليم والتقليد، ولو بقي الاعتزال لتلوّن المسلمون بلون آخر أجمل من لونهم الذي تلونوا به.[٤٨٦]

ملاحظات حول انتصار الحنابلة

وعلى ضوء ما تقدّم يجب أن نلحظ الأمور التالية :

(٤٨٥) مناقب أحمد، لابن الجوزي ص ٤٤٧ ـ ٤٤٩ .

(٤٨٦) ضحى الإسلام، لأحمد أمين ج ٣ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .

١ - إن ذلك الضغط الذي فرضه المعتزلة كان سبباً في زيادة النتائج السيئة التي أدّت إلى أفول نجمهم وهدم كيانهم. كما وأنّ المحدّثين قد نفعهم ذلك بالتفاف الجماهير حولهم، حتى اكتسبوا النصر ورجّحت كفتهم، فقابلوا المعتزلة بالمثل، بل زادوا على مافعل أولئك من الانتقام من خصومهم، وازدياد نشاطهم الى إيجاد أمور لا تتمشى مع روح الإسلام، من التهجّم على من لم يوافقهم في الرأي، وطعنوا بكثير من الشخصيات وإكفار من شاؤوا تكفيره، بدون ميزان شرعي.

ولو سار المعتزلة في غير طريق الشدّة، ولم يجعلوا للقوّة دخلاً في نشر مبادئهم في دعوة الناس الى حرية الفكر، واعمال العقل، لكان أولى وأجدر، ولم يحدث ما حدث من تلك الانتكاسة الفظيعة التي كان من ورائها إنطلاق الأحقاد، وانفجار الضغائن الكامنة.

وكذلك المحدّثون بعد انتصارهم لو أنّهم نهجوا نهجهم الذي كانوا يسيرون عليه من المحافظة على العادات والتقاليد الموروثة، وعدم الخوض في شيء لم يخضّ فيه السلف; لكان ذلك أجدر وأنفع، وبهذا يكون كلّ معسكر قد أدّى واجبه وحقّق أهدافه على ضوء المنطق.

ولكن ذلك الصراع الذي أوجد تلك الثورة العقائدية، وانتصار طائفة على طائفة، واستعمال القوة في تطبيق المبادئ، كلّ ذلك أوجد تلك العوامل، التي حلّت بالمجتمع الإسلامي، ممّا أدى الى العداء والاتهام بالباطل، والخروج عن الموازين العلمية، والحدود الشرعية.

٢ - لم يكن المذهب الحنبلي من المذاهب المنتشرة وذات أهمية، وكاد يُمحى أسوة بغيره من المذاهب، لولا قيام ابن تيمية وانتصاره لمذهب أحمد، وربطه بعقائد السلف الذين لا يرون تأويل ما ورد في الصفات، وبالغ في النكير على الأشاعرة، فافترق الناس فيه إلى فرقتين، فريق يقتدي به، ويقول بأقواله، ويعمل برأيه، ويرى أنه شيخ الإسلام، وأجل حفاظ الأمة الإسلامية، وفريق يبدعه ويضلله، ويزري عليه بإثبات الصفات، وينتقد عليه مسائل ما له فيها سلف.

وفي القرن الثاني عشر ظهر الشيخ محمد بن عبد الوهاب[٤٨٧] المتولد سنة (١١١٥ هـ) والمتوفى سنة (١٢٠٦ هـ) فأنكر على الناس استغاثتهم بالنبي(صلى الله عليه وآله)عند قبره، وأظهر أنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وكان قد درس الفقه على أبيه الشيخ عبد الوهاب بن سليمان على المذهب الحنبلي، فأهل نجد حنابلة لأنّهم وهابية. قد اعتنقوا في العقائد مذهب ابن عبد الوهاب، وهو يعتنق فيه مذهب ابن تيمية في العقائد والفقه، وابن تيمية لم يكن مقلداً بل كانت له مسائل ينفرد بها، ويفتي على رأيه، ولكنّه معدود من الحنابلة، مع أنّ له أقوالاً وفتاوى يخالف بها المذاهب الأربعة، أو يخالف المشهور منها فمن ذلك :

القول بقصر الصلاة في كلّ ما يسمى سفراً طويلاً كان أو قصيراً، كما هو مذهب الظاهرية.

القول بأنّ سجود التلاوة لا يشترط له وضوء كما يشترط للصلاة.

وأنّ من أكل في شهر رمضان معتقداً أنّه ليل فبان نهاراً لا قضاء عليه.

وجواز الوضوء بكلّ ما يسمى ماء مطلقاً كان أو مضافاً، وأنّ المائع لا ينجس بوقوع النجاسة فيه، إلاّ أن يتغير قليلاً كان أو كثيراً.

وكان يذهب الى التكفير بالحلف بالطلاق وأنّ الطلاق الثلاث لا يقع إلاّ واحدة، وأنّ الطلاق المحرم لا يقع .[٤٨٨]

وقد امتحن بسبب فتواه بالطلاق وسجن، ومن هذا يظهر أنّ ابن تيمية لم يكن مقيّداً بمذهب معين، فقد كان يفتي في بعض الأحكام بما أدّى إليه اجتهاده من موافقة أئمة المذاهب الأربعة، وفي بعضها يفتي بخلافهم أو بخلاف المشهور من مذاهبهم، كما كان ينهى عن التقليد، أو الإلتزام بقول واحد من الأئمة[٤٨٩] كأنّه لم يكن حنبلياً إذا قسناه برجال المذاهب الأخرى في التزامهم وتقديمهم، وإنّما كان يلتقي معهم في مسائل الصفات وعدم تأويلها.

٣ - ولا يفوتنا أن نلحظ نشاط الوضّاعين للأحاديث على رسول الله (صلى الله عليه وآله)ويقصدون بذلك تأييد السنّة والانتصار على المبتدعة، وهم كلّ من خالفهم في

(٤٨٧) ولد محمد بن عبد الوهاب في بلدة العينية بنجد سنة (١١١٥ هـ ١٧٠٣ م) ودرس الفقه الحنبلي، واقتدى بابن تيمية ورحل الى المدينة والبصرة، وبغداد، وكردستان، وهمدان، وأصفهان وعاد الى بلاده وأظهر طريقته وأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحارب البدع واستعان بمحمد بن سعود في تأييد دعوته الى أن توفي سنة (١٢٠٦هـ ١٧٩١ م) واعتنق آل السعود هذه الدعوة، وحاربتهم الدولة العثمانية وهزمهم والي مصر محمد علي باشا، ولم يتمكن من القضاء على هذه الحركة، وبقيت لها السيادة في نجد وفي اصقاع المملكة العربية السعودية الى اليوم.

(٤٨٨) العقود الدرية في مناقب ابن تيمية ص ٣٣٢ .

(٤٨٩) جلاء العينين للآلوسي ص ١٠٧.

الرأي، فهذا أحمد بن عبد الله الأنصاري يحدث عن نافع عن ابن عمر في قول الله تعالى: (**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ**) فأمّا الذين ابيضت وجوههم أهل السنة والجماعة، وأما الذين اسودت وجوههم أهل الأهواء والبدع.(٤٩٠)

وهذا أحمد بن حرب الملحمي كان من الكاذبين، وقد وضع حديثاً على رأي الحنابلة، بسند عن أبي هريرة مرفوعاً: «من قال إن القرآن مخلوق فهو كافر».(٤٩١)

ومثله أحمد بن عمر بن مصعب بن بشر بن فضالة المروزي فقيه كذاب.

قال الدار قطني: كان حافظاً عذب اللسان في السنّة والردّ على المبتدعة، لكنه يضع الحديث، وقال ابن حيان: كان ممّن يضع الحديث ويقلب الأسانيد لعلّه قد قلب على الثقاة أكثر من عشر آلاف حديث .(٤٩٢)

ومن أبطال الوضّاعين لنصرة المبادئ وحبّ الغلبة: أحمد بن عبد الله الجويباري، ويقال: الجوباري، وجوبار من عمل هرات، نقل الحاكم عن الحافظ سهل بن السري: أنّ أحمد الجويباري، ومحمد بن عكاشة وضعوا على رسول الله(صلى الله عليه وآله) عشرة آلاف حديث. ومن آفاته أنّه روى أنّ حضور مجلس عالم خير من حضور ألف جنازة، ومن ألف ركعة، ومن ألف حجة، ومن ألف غزوة.(٤٩٣)

وروى أيضاً مرفوعاً: أنّ السنة تقضي على القرآن. قال أبو سعيد: لا نعرف أحداً أكثر وضعاً للأحاديث منه. وكان يضع الحديث لمحمد بن كرام - رئيس فرقة الكرامية من الحنابلة - على ما يريد، فكان ابن كرام يخرجها في كتبه ويسمّيه أحمد بن عبد الله الشيباني.(٤٩٤)

ومنهم أبو بشر الحافظ أحمد بن محمد الكندي، المتوفى سنة (٣٢٤ هـ)، وكان أحد الوضّاعين ومشهوراً بالكذب، وكان إماماً في السنّة والردّ على المبتدعة(٤٩٥)، كما يقولون.

وغير هؤلاء ممّن يضعون الأحاديث انتصاراً لمبادئهم والوقيعة في خصومهم، وقد سئل أحمد بن محمد المعروف بغلام خليل، فأجاب بأننا نضعها لنرقّق بها قلوب العامة، وقد وضع هؤلاء أكثر من أربعين ألف حديث، أكثرها يعود لنصرة المبدأ والتغلّب على الخصم.

(٤٩٠) الدر المنثور ج ٢ ص ١١١ - ١١٢.
(٤٩١) لسان الميزان ج ١ ص ٢٠٢ - ٢٥٩ .
(٤٩٢) أنظر تذكرة الحفاظ ج ٣ ص٢٣، وتاريخ بغداد ج ٥ ص ٧٢ .
(٤٩٣) الموضوعات لابن الجوزي ج ١ ص ٤٨.
(٤٩٤) لسان الميزان ج ١ ص ٢٩٣.
(٤٩٥) مرآة الجنان ج ٢ ص ٢٨٧.

٤ - إنّ ذلك التهجّم والاتهام بالباطل لم يقتصر على الفئتين المتخاصمتين، بل تعدّاه الى كلّ من لم يشاركهم في الرأي حول الرؤية وخلق القرآن من جميع الطوائف، وكان للشيعة النصيب الأوفى من ذلك التهجّم، والرمي بالباطل، وإلصاق التهم زيادة على ما هم عليه من معاداة السلطة لهم، ومطاردتهم في جميع الأدوار، لأنّهم يحملون فكرة مقاطعة الدولة، إذ لا يعترفون بشرعية سلطان يتركز على الجور ويحكم بغير ما أنزل الله.

وكان دور المتوكل هو أعظم الأدوار، لأنّه كان يبغض أهل البيت(عليهم السلام)ويتبع الشيعة بكلّ أذى، حتى ملأ بهم السجون، وصبغ الأرض من دمائهم. ولم يخضعوا لآرائه أو يقفوا عن مقاومته.

وقد أمر عامله على مصر، وهو يزيد بن عبد الله، أن يطاردهم. فكانت سيرته معهم قاسية، فعاقبهم أشدّ العقاب، وقتل أكابرهم، وحمل منهم جماعة على أخشن مركب، وسيرهم الى بغداد، ولم يزدهم ذلك إلاّ ثباتاً في العقيدة وتمسكاً في المبدأ. ومعارضة لسلطة المتوكل وإعلان الغضب عليه.

كما أنّه التفت الى العلويين فجرت عليهم منه شدائد من الضيق وأخرجهم من مصر وذلك في سنة (٢٤٢ هـ).[٤٩٦]

وقد أشرنا الى الحوادث المؤلمة بين السنة والشيعة أو بين الشيعة والحنابلة على الأخص، لأنّ الحنابلة هم أعداء المعتزلة بصورة عامة قد ربطوا بين الاعتزال والتشيع، ولم يجعلوا فارقاً بينهم على ما بين المعتزلة والشيعة من خلاف، ولكنّه لم يتعدّ حدود المنطق والموازين العلمية، وكان أبطال الشيعة يقابلونهم بحجج واضحة وبراهين قاطعة، وكان هشام بن الحكم يناظر علماءهم فيفحمهم.

وإن كان المعتزلة يلتقون مع الشيعة ويشاركونهم في كثير من المسائل، وأهمّها مسألة خلق القرآن والرؤية والتفضيل، فجعلوا من ذلك روابط تصلح لأن يتخذ أساساً للتفاهم بين التشيّع والاعتزال، أو أنّهم كانت تجمعهم المصالح المشتركة، وبهذا نظروا الى الشيعة والمعتزلة بمنظار واحد، ولم يفرّقوا بينهم حتى قال الذهبي:[٤٩٧] إنّ الرفض والاعتزال تصادقا وتواخيا.

ولمّا ضعف الاعتزال وزالت قوّته بقي المذهب الشيعي يتمتع بقوته الروحية وصفاته المعنوية منفصلاً عن السلطة، ولم يخضع لها منذ نشأته ولم تصدع الدعايات

(٤٩٦) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٠٨.
(٤٩٧) ظهر الإسلام لأحمد أمين ج ٤ ص ١١٨.

كيانه، ولم يهبط عن مستواه بما قوبل به من كتل معادية، تحاول نزوله عن المستوى الذي هو فيه، وبقي يصارع الحوادث، ويتلقى الصدمات، من أجل الحقّ والحقّ أحقّ أن يتبع.

وقد إتّجه الحنابلة بكلّ ما لديهم من قوة لمحاربة الشيعة وإلصاق التهم بهم، ووصفهم بما لا يليق بهم، فترى المؤرخين وعلماء الرجال منهم إذا أرادوا أن يؤرخوا رجال الشيعة من أهل العلم والأدب، تجد هناك تقوّلاً بالباطل، ولعلّ الوقوف على ما كتبه ابن الجوزي وابن كثير وغيرهم شاهد على ما نقول، وقد أفتى البعض منهم بكفر الشيعة ووجوب قتلهم وإبادتهم، كابن تيمية وغيره.(٤٩٨)

وقد توارثت الأجيال تلك النعرة، وسرت تلك الفكرة في الأدمغة التي تحكّم فيها الجمود، ووجد أعداء الإسلام في ذلك أكبر عون لحلول الفرقة، وزيادة العداء والتباعد. وبمزيد الأسف أنّ بعض المؤلّفين في العصر الحاضر لم ينظروا لتلك الظروف التي نشأت فيها الخلافات، فتقبّلوا كلّ ما وجدوه مكتوباً عن تاريخ الشيعة من طعون وتقوّلات، ولو أنّهم وقفوا وقفة مؤرخ منصف، لبان لهم الحقّ.

٥ ـ كان بودي أن أشرح كثيراً من الأمور التي نجمت عن مشكلة خلق القرآن، ولكني خشيت أن يطول الموضوع وتتّسع أطراف البحث.

كما كنت أرغب في الحديث عن قبر أحمد وتاريخ غرقه في دجلة، والإشارة الى تعظميه، ونقل رفات الموتى إليه، ولكني أرجأت ذلك الى الأجزاء القادمة إن شاء الله.

نظرة عامة

ونعود والعود أحمد، نعود لنلقي نظرة حول المذاهب وانتشارها، بعد دراسة طويلة ، وبحث واسع مجهد، وترويض للنفس على تحمّل الصعوبات، واجتياز العقبات، التي تحول بين الباحث وبين الوصول الى الغاية .

وإنّ الناظر الى تأريخ المذاهب يلزمه أن يروّض نفسه على أن يسير وفق الأمور التي يقتنع بصحّتها، فإنّ هناك عاطفة وتعصباً، وهناك سياسة وتدخلاً، وهناك عداءً وتحزباً، فلا بد إذن من الوقوف وقفة المتبصر الطالب للحقيقة، المتجرد عن التحيز والتعصّب، ليسهل عليه أن يقتطف زهرة الحقيقة من بين تلك الأشواك، ويعرف وجه الصواب، وتتّضح له الأغراض التي كمنت وراء ستار شفاف من المظاهر.

(٤٩٨) الدرر البهية في مناقب ابن تيمية ص ١٨٢ ـ ١٩١ .

لذلك ينبغي أن أشير الى الصعوبة التي يلقاها الباحث عن المذاهب لوجود عقبات التعصب، وترسبات الطائفية، وأنّ أكثر من كتب في هذا الموضوع لم يساعده التوفيق على ترويض نفسه لتحمل الصعوبات، وقد استعرضنا في أبحاثنا هذه الى كشف الحقيقة وإظهار الواقع، وإن كنا قد تعمدنا ترك أشياء كثيرة ربّما يكون بذكرها احتمال تحامل أو طعن، ونحن نبرأ الى الله من ذلك، فلم نقصد إلاّ الخدمة للمصلحة العامة، ومحاربة تلك النعرات التي من ورائها خصومات وتشاجر، وفرقة وتباعد، واتهام بالباطل وهضم للحقائق وظلم للتاريخ.

وقد رأينا كيف انقسم العلماء في القرن الثاني الى قسمين: أهل حديث وأهل رأي، وكان أهل المدينة يمثلون القسم الأوّل، وأهل العراق يمثلون القسم الثاني، وأصبح لكلّ جانب أنصار ومتعصّبون، واشتهر أبو حنيفة بالقياس وقلة الحديث.

سئل رقبة بن مسقلة عن أبي حنيفة، فقال: هو أعلم الناس بما لم يكن، وأجهلهم بما كان، وقد روى هذا القول عن حفص بن غياث، يريد أنه لم يكن له علم بآثار من مضى.[٤٩٩]

وأصبح أهل الحديث ينقمون على أهل الرأي، حتى خرج ذلك النزاع عن حدود المقاييس العلمية، وبلغ الى التهاجي والتعصب، فكان كلّ فريق يحاول الانتصار على الآخر، فهذا يهجو خصمه بشعره، وذلك يردّ عليه بالمثل، وتحيّز لكلّ فريق جماعة، وتعددت عوامل الفرقة حتى أدى ذلك الى الطعن في العقائد، والحطّ من الكرامات.

قال أحمد بن الحسن لأحمد بن حنبل: يا أبا عبدالله ذكروا لابن أبي قتيلة بمكة أصحاب الحديث فقال: **أصحاب الحديث قوم سوء.** فقال أبو عبدالله ـ وهو ينفض ثوبه ويقول ـ : **زنديق، زنديق، زنديق، ودخل البيت**[٥٠٠].

وفي ذلك العصر اتّسع نطاق النشاط العلمي، فكان في كلّ بلد إمام، له مذهب ينسب إليه، ففي الشام مذهب الأوزاعي، وفي مصر مذهب الليث بن سعد، وفي الكوفة مذهب سفيان الثوري وابن عيينة، وغيرها من المذاهب التي انقرضت ولم يكتب لها البقاء.

ولكن المذهب الحنفي قد سعد دون غيره برجال دوّنوا فيه وألّفوا، وكانت لهم السلطة التشريعية، فأبو يوسف قاضي قضاة الدولة العباسية كان يتولّى نشر المذهب بقوّة سلطانه، ونفوذ أمره.

(٤٩٩)تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢١٣.

(٥٠٠) طبقات الحنابلة ج١ ص ٣٨ .

وإذا أردنا أن نقيس شهرة أبي حنيفة في عصره، ومنزلته في مجتمعه، فلا يعدو أن يكون واحداً من الشخصيات التي نبغت في ذلك العصر، بل كان الكثير منهم يفوقه بالشهرة.

ولكنه على مر الزمن أصبح أبو حنيفة يذكر اسمه بالاعجاب في العالم الإسلامي ويجب أن يلاحظ وذلك كنتيجة للعصور المتأخرة ولتلامذة أبي حنيفة، وعلى الأخصّ لمحمد بن الحسن الشيباني. فقد كتبوا كتباً ودوّنوا فيها كلّ العلوم والتجارب، وأضافوها الى السلف وختموا كلّ ذلك بخاتم راويهم الأخير وهو أبوحنيفة، فكان من أجل ذلك عند الأجيال المتأخرة هو المبدع الوحيد، والمؤسس لعلم الفقه وطريقته، والفقهاء الكبار الذين عاشوا قبله، والذين عاصروه لا يعرف عنهم شيء، من أجل نقص الكتب التي تحمل اسمهم. ومن ناحية أُخرى فقد كانت مساهمة تلامذة أبي حنيفة في تكوين الروايات وتكميلها غير منفصلة عن عمل أُستاذهم.[٥٠١]

وكان لتلامذة أبي حنيفة آراء خاصة; فإنّك تجد في كتب الحنفية أقوال أبي يوسف، ومحمد بن الحسن وزفر بن الهذيل، حسب ما يظهر لهم من المعاني والآثار، فوافقوا أبا حنيفة في بعضها، وخالفوه في كثير من الآراء والأقوال، وقد حاول بعض الحنفية أن يجعل أقوالهم المخالفة لأبي حنيفة أقوالاً له رجع عنها، أو أنّ أبا حنيفة جعل ما يصحّ من الحديث مذهباً له، فتكون أقوال تلامذته التي اجتهدوا فيها واستخرجوها من الأحاديث هي أقوال أبي حنيفة وآراؤه، وبهذا تكوّن المذهب ونسب المجموع إليه.

وهكذا مذهب مالك بن أنس فقد تولّى نشره سلطان الأندلس، عندما بلغه ثناء مالك عليه، وكان يحيى بن يحيى المتوفى سنة (٢٣٣ هـ) مكيناً عنده، قال أحمد بن خالد: لم يعط أحد من أهل العلم بالأندلس منذ دخلها الإسلام، من الحظوة وعظيم القدر، وجلالة الذكر ما أعطيه يحيى بن يحيى.

وكان السلطان لا يولّي قاضياً في أقطار الأندلس إلاّ بمشورته واعتباره، ولا يشير إلاّ بأصحابه، والناس سراع الى الدنيا، فأقبلوا على ما يرجون به بلوغ ما يرضيهم.[٥٠٢]

كما أنّ مالكاً نفسه كان مكيناً عند العباسيين يصلونه بجوائزهم، ويرفعون من شأنه، حتى أنّ الأُمراء كانوا يخشون سطوته، والحرس يأتمرون بأمره بسجن من يريد سجنه، وإطلاق من يريد إطلاقه، وكان يحضر عند الوالي فيعرض عليه السجن

(٥٠١) نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي ص ٢٣٥.

(٥٠٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٢ ص ١١٦.

فيأمره بضرب هذا مائة، وهذا مائتين، وقطع هذا وصلب ذاك.[٥٠٣]

وحاول المنصور أن يجعل مالكاً هو المصدر للتشريع، فنهى غيره من العلماء عن الإفتاء، وطلب منه أن يضع كتاباً يحمل الناس على العمل به.

وقد رأينا فيما سبق أنّ المنصور قد غضب عليه قبل ذلك لفتوى تخالف غرضه، فعذب مالك وضرب خمسين سوطاً حتى انخلعت كتفه، وهذا ما يدلّنا على أنّ المنصور يناصر العلماء ما لم تمس تعاليم أحدهم بصالح سلطانه، فهو يرى أنّ مركز الخلافة فوق كلّ شيء، وقد طارد العلماء الذين انتقدوا أعماله.

أمّا الشافعي وهو تلميذ مالك ومن عداد أهل الحديث، فقد انتشر مذهبه بمصر بواسطة تلامذته، ومكانتهم في مجتمعهم، وقد زاحم مذهبه مذهب مالك حتى تعصّب عليه أصحاب مالك فقتلوه شهيداً[٥٠٤] . وجاءت الدولة الأيوبية، وكان ملوكها شافعية، فناصروا مذهب الشافعي ونشروه، وبنوا له المدارس فأقبل الناس عليه.

وقد أشرنا عن قريب في هذا الجزء الى مذهب أحمد وانتشاره، وكيف تكوّن، فلا نطيل الحديث بذلك.

وصفوة القول أنّ المذاهب الأربعة المعمول بها كانت تنتشر تحت تأثير عوامل، لو ساعدت غيرها من المذاهب السنية المعمول بها في ذلك الزمن لطال عمرها، وامتد الزمن بها، كمذهب الأوزاعي، والظاهري، وابن جرير، والأعمش، والليث بن سعد وغيرهم.

وكان من وراء تأثير الدعاية القوية للمذاهب الأربعة ومناصرة السلطات لها، أن أقبل الناس عليها وهجروا ماسواها، وقد صدر مرسوم في عهد المنتصر العباسي، يقضي بالالتزام بقول المشايخ السابقين، وأن لا يذكر قول مع أقوالهم، وأفتى علماء الأمصار بوجوب اتّباع المذاهب الأربعة، وتحريم ما عداها، وبهذا أُغلق باب الاجتهاد في وجوه أتباع المذاهب الأربعة. ولا قائل من السلف بغلق باب الاجتهاد، وبهذا سارت المذاهب الأربعة في طريق الانتشار دون غيرها من المذاهب السنية المعمول بها كما تقدّم، وقد تكفلت أبحاثنا في هذا الكتاب بأجزائه جميعاً، كلّ ماله علاقة بتكوين المذاهب وانتشارها.

(٥٠٣) مالك بن أنس لأمين الخولي ص ٣١٩.

(٥٠٤) توالي التأسيس لابن حجر ص ٨٦ .

وفي الختام أبتهل الى الله تعالى أن يتقبّل أعمالنا، ومنه وحده عزّ وجلّ أطلب المكافأة والجزاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل، كما نسأله تعالى مكافأة من شجعنا من الأدباء في تقريظ هذا الكتاب نظماً ونثراً، وسننشر ذلك في كلمة الختام مع الشكر والتقدير لهم، والى هنا ينتهي الجزء الرابع والى اللقاء في الجزء الخامس إن شاء الله.

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ).[٥٠٥]

الفهرس التفصيلي

(٥٠٥) هود: ٨٨.

الفهرس التفصيلي

تقديم وبيان

تقديم وبيان ...٧
نوعية البحث ...٩
منهج البحث...١٠
التعصّب للمذاهب ...١٤
التحامل على مذهب أهل البيت(عليهم السلام) ...١٥
البحث والزوائد...١٩

الإمام الصادق (عليه السلام)**لمحات من تاريخ حياته**

ولادته ...٢٤
نشأتـه...٢٥
معاصرته للحكم الأموي ...٢٦

الإمام الصادق(عليه السلام)**قبس من سيرته وتعاليمه**

تمهيد ...٣٥
نهيه عن المنازعات وفضّ الخصومة لدى حكّام الجور ...٣٧
نهيه عن الولاية للظالمين ...٣٩
حثّه على صلة الرحم ...٤٠
حثّه على مساعدة الضعفاء وأبناء السبيل...٤٢
حثّه على العمل وطلب الرزق الحلال ...٤٨
نبذ من أعماله وأقواله...٤٩
حول أخطاء بعض الكتاب ...٥٥
الدعوة العباسية...٥٦
أساليب الدعوة ...٥٩

دعوة الإمام الصادق(عليه السلام) للخلافة ...٦٥
الدعوة الصامتة ...٧٣
موقف الإمام الصادق(عليه السلام) واتّجاهه للإصلاح ...٧٣
أسس الدعوة الى الاصلاح ...٧٦
مهمّة الداعي ...٧٩
شخصية الداعي ...٨١
ملاحظات حول دعوته الإصلاحية ...٨٢

الإمام الصادق(عليه السلام) **انطباعات عن شخصيّته**

تمهيد ...٨٩
انطباعات مالك بن أنس ...٩٠
انطباعات سفيان الثوري...٩١
انطباعات زيد بن علي(عليه السلام) ...٩٢
انطباعات مالك بن أنس ...٩٣
انطباعات أبي حنيفة ...٩٤
انطباعات المنصور الدوانيقي ...٩٦
انطباعات ابن أبي ليلى ...١٠٠
انطباعات عمر بن عبيد ...١٠١

الإمام الصّادق(عليه السلام) **فصول من حِكَمِه**

تمهيد ...١٠٧
حِكَمه وأقواله ...١٠٩
حِكَمه تعاليم إسلامية ...١٢٧
جهاده ودفاعه عن الإسلام ...١٢٩
مشكلة الغلاة ...١٣٣
المؤرّخون ومشكلة الغلاة ...١٣٥
أسباب نشأة الغلاة ...١٣٨
الدعوة الإسلامية وخصومها ...١٤٠
رؤساء الغلاة ومواقف الإمام ضدّهم ...١٤٣

أبو الخطاب الأسدي ...١٤٣
بزيع بن موسى...١٤٧
بشار الشعيري ...١٤٨
صائد النهدي ...١٥١
المغيرة بن سعيد ...١٥٣
براءة الإمامين الباقر والصادق من المغيرة ...١٥٤
أبو منصور العجلي ...١٥٧
دراسة حركة الغلاة ناقصة ...١٦١
الغلاة والشيعة ...١٦٢
حركة الغلاة ضد الإسلام ...١٦٤
حوار وتصويب ...١٦٧
موقف مع شيخ أزهري ...١٧١
الناقمون على الإسلام وأهل البيت(عليهم السلام) ...١٧٧
المنحرفون عن الحقّ والشيعة ...١٧٩

الإمام الصادق(عليه السلام)أجوبة ومُناظرات

تمهيد ...١٩١
موقف الإمام من الزنادقة والشُبه الفكرية...١٩٢
طرق معيشة العباد ...٢٠٤
سلوك الوالي مع الرعية ...٢٠٥
التوحيد في أجوبة الإمام للمفضّل بن عمر ...٢٠٧
المجلس الأوّل في خلق الإنسان ...٢٠٨
المجلس الثاني في ذكر الحيوان ...٢١١
المجلس الثالث في ذكر السماء ...٢١٢
المجلس الرابع في ذكر آفات الدهر ...٢١٢
مناظرات الإمام حول الإسلام ومبادئه ...٢١٣
خلاصة الصراع بين دعوة الإمام الاصلاحية ودولة المنصور العباسية ...٢١٨

الإمام أحمد بن حنبل نسبُه ونشأتُهُ ...٢٣١

تمهيد ...٢٣٣

نسبه ...٢٣٤
ولادته ونشأته ...٢٣٦
نبوغه وشهرته ...٢٣٨
صلته بالمتوكّل ...٢٤٠
الإمام أحمد بن حنبل في محنَته...٢٤٣
أدوار المحنة ...٢٤٦
امتحان أحمد بن حنبل ...٢٥٢
في عهد المعتصم ...٢٥٢
شركاء في المحنة ...٢٥٨
أوضاع المحنة في عصر الإمام أحمد ... ٢٦٢
الإمام أحمد بن حنبل حياته العلميّة...٢٦٥
مناقبه ...٢٦٥
شيوخه ...٢٧٠
تلامذته ...٢٧٣
كتبه وآثاره ...٢٧٧
مسند الإمام أحمد ...٢٧٨
الإمام أحمد بن حنبل عَصرُه وَحَوادِثُهُ ... ٢٨٤
احداث عصره ... ٢٨٨
المأمون ... ٢٩٢
المعتصم ...٢٩٩
الواثق...٢٠١
المتوكل ...٣٠٢
الدولة العباسية وبداية الضعف ...٣٠٧
اتّهام أحمد بالميل للعلويين ...٣٠٩
شيوخ الإمام أحمد من الشيعة ...٣١١
أقوال العلماء ...٣١٥
مذهبه وانتشاره...٣١٨
الفقه الحنبلي ...٣٢١
كتب الفقه الحنبلي ...٣٢٤
أصول الفقه الحنبلي ...٣٢٥

بين معسكرين ... ٣٢٦
انتصار المحدّثين ... ٣٣٠
ملاحظات حول انتصار الحنابلة ... ٣٣٩
نظرة عامة ... ٣٤٥
الفهرس ... ٣٥١